المصادر الأدبيّة واللغويّة في التراث العربي

الدكتور عز الدين إسماعيل

مكتبة غريب

المصادر الأدبية واللغوية
فى التراث العربى

المصادر الأدبية واللغوية
فى التراث العربى

تأليف

الدكتور عز الدين إسماعيل

الناشر
مكتبة غريب
٢٠١ شارع كامل صدقى (الفجالة)
تليفون ٩٠٢١٠٧

مدخل

يقول مؤرخ الحضارة الكبير « ول ديورانت » في كتابه الضخم « قصة الحضارة » — وهو بصدد الحديث عن شغف المسلمين في القرون الوسطى بالكتب ولقتنائها ، وعن كثرة المشتغلين بالعلم ، تأليفاً وتمحيصاً وتدارساً — يقول « إن عدد العلماء في آلاف المساجد المنتشرة في البلاد الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند لم يكونوا يقلون عن عدد ما فيها من الأعمدة » .

وفي وسعنا أن نستدل من هذا القول على أشياء كثيرة ، يكفينا منها الآن ما يدل عليه من ضخامة ما خلفه علماء المسلمين — الذين لا يكاد يحصيهم العد — من تراث علمي وفكري وأدبي ، ابتداء من الرسائل الصغيرة إلى الموسوعات الضخمة .

وإذا كان « ول ديورانت » قد أشار إلى البعد المكاني لانتشار علماء المسلمين من قرطبة غرباً إلى سمرقند شرقاً فإن البعد الزمني يساعدنا في تمثل ضخامة هذا التراث وفي تفسير هذه الضخامة كذلك . فعلى مدى ثمانية قرون ، ابتداء من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) إلى نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) كان علماء المسلمين يشتغلون بالعلوم الانسانية والعلوم الطبيعية والطبية والرياضية وسائر المعارف القديمة . ومحصلة هذين البعدين ،

المكاني والزماني ، ترينا إلى أي مدى بلغت ضخامة التراث العربي . ويكفي ان نذكر في هذا الصدد مكتبة قرطبة في الأندلس في عهد المستنصر (٣٥٠ هـ - ٣٦٦ هـ) ، فقد جمع فيها المستنصر - عن طريق وكلائه في شتى الأقطار الإسلامية - نسخاً مما الفه علماء المسلمين إلى ذلك العهد . ويقال إن هذه المكتبة كانت تضم أربعمائة ألف مجلد (١) . هذا يحدث ونحن ما زلنا في منتصف القرن الرابع الهجري . ولنا أن نتصوركم كانت خزائن « دار الحكمة » التي أنشأها الخليفة العباسي المنصور في بغداد تضم من مؤلفات ، وكذلك « دار العلم » ، التي أنشأها الفاطميون في مصر ؛ فقد « كانت هذه الدار من أعظم الخزائن التي عرفها العالم الإسلامي فيما مضى ، وأكثرها جمعاً للكتب النفيسة من جميع العلوم » . (٢) هذا سوى المكتبات وخزائن الكتب العامة والخاصة التي لا يمكن حصرها .

كلا ، ليس في وسع أحد أن يتصور حجم ما خطته أقلام العلماء والمفكرين والأدباء من المسلمين في شتى فروع المعرفة في حدود ما تبقى منه حتى يومنا هذا ، فضلا عما امتدت إليه عاديات الزمن بالتبديد أو الإحراق أو الضياع . لقد كان سقوط بغداد في أيدي التتار نذير شؤم للتراث الذي خلفه الأقدمون ؛ فقد « روي أن مياه دجلة جرت سودا من كثرة ما ألقي فيها من الكتب والصحائف » . (٣) وكذلك تعرض هذا التراث في الأندلس لمحنة فظيعة ، بعد انتهاء دولة المسلمين هناك وسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ م ؛ فقد « أمر الكاردينال فرانسيسكو خمينيث دي ثيسنيروس Francisco Jiménez de Tisneros (ت ١٥١٧ م) ، عراف الملكة إيزابيل فاتحة غرناطة ، وصاحب النفوذ السياسي الهائل ، يستمده من الدين ، بإحراق الكتب العربية في ساحة باب

---

(١) انظر محمد عجاج الخطيب : لمحات في المكتبة والبحث والمصادر ، بيروت - دمشق ١٩٧١ ، ص ٣١.

(٢) نفسه ص ٣٠ - ٣١ .

(٣) عمر الدقاق : مصادر التراث العربي ، مكتبة دار الشرق - بيروت ١٩٧٢ ص ٢٤ .

الرملة في غرناطة ، ولا سيما ما كان متصلاً بالأدب أو الفكر أو الدين ، وبخاصة المصاحف المخطوطة ، وبأن تباد كل الكتب العربية نهائياً من كل إسبانيا . ويفوق عدد المخطوطات التي أحرقت في غرناطة وحدها كل تصور . وأكثر الباحثين حذراً وعطفاً على الكاردينال يقدرونها بثمانين ألفاً » . [1] . وعلى بعد خمسين كيلو متراً من مدريد شيد سنة ١٥٦٧ م دير فخم جمعت إلى مكتبته بقايا نفائس المخطوطات التي سلمت من ذلك الحريق فكانت بضعة آلاف مجلد ، « ثم ضم إليها نحو أربعة آلاف مخطوط سنة (١٠٣٠ هـ الموافق ١٦٢٠ م) حين استولى بعض قراصنة الأسبان على مركب للسلطان زيدان سلطان فاس ، كانت تلك المخطوطات في جملة الآثار النفيسة التي سلبوها من ذلك المركب . وبهذا بلغت المخطوطات في مكتبة الإسكوريال نحو عشرة آلاف مخطوط . وفي ٧ حزيران عام ١٦٧١ م سقطت صاعقة على الدير أحرقت قسماً كبيراً من هذه المخطوطات ، ولم يسلم منها سوى ألفي مجلد لا تزال إلى عصرنا في تلك الخزانة التاريخية » . [2]

ومن تحصيل الحاصل أن نمضي في تتبع الأرقام المذهلة لكميات الكتب التي احتوتها المكتبات العربية العامة والخاصة في العالم الإسلامي القديم ، والتي توافرت عنها أو عن بعضها معلومات موثقة . ذلك أن ما أفلت من عاديات الزمن من هذه الكتب (المخطوطات) يشغل في يومنا هذا مكانا يتفاوت ضخامة وضآلة في مكتبات العالم الكبرى ، من المكتبة العامة في مدينة « ألماآتا » عاصمة جمهورية كازاخستان في أواسط آسيا إلى مكتبة الجامعة الكاثوليكية الأمريكية في واشنطن.

إذن فهو تراث ضخم ، ذلك الذي خلفه لنا العلماء والمفكرون والأدباء

---

(١) الطاهر أحمد مكي : دراسة في مصادر الأدب ، دار المعارف بمصر ١٩٧٠ ص ٩٥ ، وهناك من يقدرون أن ما أحرق يومذاك لا يقل عن مائة ألف مخطوط (انظر : لمحات في المكتبة ... ص ٥٣ الهامش) .

(٢) محمد عجاج الخطيب : نفسه ص ٥٤ الهامش .

منذ بدء الخط البياني الصاعد للحضارة الإسلامية في العصور الوسطى إلى أن بلغ ذروته ، ثم منذ انكساره نحو الهبوط في منتصف القرن السابع الهجري أمام الغزو المغولي وسقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ إلى وقوع البلاد الإسلامية تحت الحكم العثماني منذ سنة ٩٢٣ هـ فتكون الدورة قد تمت .

وتراث كل أمة هو ركيزتها الحضارية ؛ فهو جذورها الممتدة في باطن التاريخ . ومن أجل هذا تحرص الأمم الناهضة — في تأصيلها لواقعها الجديد — على نبش هذا التراث ، واستحياء ما هو صالح للبقاء منه ، وما يمكن أن يكون له مغزى ودور فعال في بناء واقعها الجديد .

والأمة العربية في حركة ناهضة منذ ما يقرب من قرن ونصف قرن . وقد اقترنت هذه الحركة منذ بواكيرها بالبحث عن الأصول ، واستحياء أروع ما خلفته لها الأيام من تراثها الفكري والأدبي . ومع تفتح هذا الوعي اتجهت العناية بالتراث اتجاهين يكمل أحدهما الآخر : اتجاهاً ينصرف إلى كنوز المخطوطات القديمة ، يحققها تحقيقاً علمياً ، ويوثق مادتها ، ويطبعها طبعات دقيقة فييسر بذلك تداولها بين الناس والمشتغلين منهم بالحضارة الإسلامية بخاصة ؛ واتجاها آخر ينصرف إلى دراسة هذه المادة المتساحة ، واستنباط المضامين الفكرية والروحية والإنسانية بعامة ، التي تمثل جوهر ذلك التراث .

وعلى الرغم من تواصل الجهود من جانب المجامع العربية والجامعات والهيئات الرسمية والأفراد في العمل على هذين المحورين ، ما يزال ما حقق من هذا التراث ونشر — على قيمته البالغة — لا يقاس في حجمه إلى ما ينتظر . ومن جهة أخرى ما تزال الدراسات المتعلقة بهذا التراث تتلمس طريقها جيلاً بعد جيل نحو بناء تصور أشمل وأعمق لهذا التراث ولمضامينه الإنسانية .

من أجل هذا دأبت أقسام اللغات العربية بالجامعات على أن تقدم لطلابها وهم في مستهل حياة الدرس والطلب تعريفاً بالمصادر الأساسية القديمة للدراسات العربية ، واصلة بذلك ماضيهم بحاضرهم ، واضعة أيديهم على المفاتيح

الأساسية لهذه الدراسات . وحبذا لو نهجت سائر أقسام كليات الآداب هذا النهج ، فيقدم قسم التاريخ مثلا لطلابه تعريفاً بالمكتبة التاريخية العربية القديمة ، ويقدم قسم الجغرافيا تعريفاً بالمكتبة الجغرافية وقسم الفلسفة وقسم الاجتماع ..الخ

ومن هذه الوجهة يتحدد الهدف من هذا الكتاب : وهو التعريف بالمصادر الأدبية واللغوية العربية القديمة ، أو — على وجه الدقة — بأهم هذه المصادر وأبرزها . لكننا في الحقيقة نطمح إلى أكثر من التعريف ؛ فنحن نهدف كذلك إلى تسجيل حركة النمو والتطور التي مر بها التأليف قديماً في هذين الميدانين . ومن ثم يتحتم علينا أن نتناول كل مصدر من هذه المصادر من زاويتين :

(الأولى) تتناول التعريف بمؤلفه تعريفاً موجزاً ، ثم وصف منهج الكتاب وتحديد مجاله الموضوعي ، مع بيان أهم موضوعاته ومجال الانتفاع به وطريقة هذا الانتفاع ، وتقديم نموذج صغير منه — كلما اقتضى الأمر — لبيان أسلوبه .

(الثانية) تحديد قيمته بوصفه حلقة في سلسلة تاريخية ممتدة .

أما الزاوية الأولى فتخدم الفائدة العملية المباشرة ، وأما الزاوية الثانية فتخدم التصور العام لحركة تطور التأليف منذ بداياتها الأولى .

وأرجو — بعد — أن يكون هذا الكتاب قد حقق هدفه .

والله الموفق .

عز الدين إسماعيل

تمهيد

فى التدوين عند العرب

أ ـ بين الرواية والتدوين :

١ ـ لم تظهر المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي فجأة ، بل مرت ـ شأن الثقافة بعامة ـ بمراحل وأطوار من الإعداد والتمهيد ، وهي مراحل الرواية والجمع والتدوين للمعارف المختلفة ، متأثرة في الوقت نفسه بمراحل تطور وسيلة التدوين نفسها ، وهي الكتابة اللغوية ، وبالأدوات اللازمة للكتابة ، وفي مقدمتها الورق . فمن البدهي أن غياب الورق يحد من حجم الكتابة والتدوين ، وأن عدم معرفة الكتابة من شأنه أن ينشط حركة الرواية ، حيث يستعين الإنسان بقوته الحافظة في اختزان المعلومات واسترجاعها عندما يقتضي الأمر . فإذا توافرت المعرفة بالكتابة وتوافرت وسائلها كان التدوين ثم التأليف .

وتجمع الدراسات الحديثة على أن العرب قد عرفوا الكتابة منذ العصر الجاهلي ، بخاصة في مراكز التحضر المختلفة آنذاك ، في الشمال الشرقي لشبه جزيرة العرب ، وفي شمالها الغربي ، وفي اليمن جنوبياً ، وفي الحجاز أيضاً ، في مكة والمدينة . فيقال إنه عند مجيء الإسلام كان في مكة سبعة عشر كاتباً ، وفي المدينة أحد عشر كاتباً ، وإن كان المظنون أن عددهم في هاتين المدينتين كان أكبر من ذلك [1] . بل إن الكتابة تسربت في ذلك العصر ـ هوناً ما ـ

(١) راجع حسين نصار : نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦ ص ٢٣ .

إلى بعض القبائل في البوادي ؛ فقد كان أكثم بن صيفي – حكيم قبيلة تميم – يعرف الكتابة [1] . وكذلك كان الشاعر الجاهلي المسمى بالمرقش الأكبر يعرفها [2] . وحين نزل القرآن الكريم دعا العرب إلى ضرورة استخدام الكتابة في بعض المعاملات : « يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدَيْنٍ إلى أجل مُسَمّى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأْبَ كاتب أن يكتب كما علمه الله » . هذا فضلاً عن قسمه في أكثر من آية بالكتابة وأدواتها : « ن . والقلم وما يسطرون » . – « والطور ، وكتاب مسطور ، في رقٍّ منشور » . ولا بد أن القرآن الكريم – في هذا – إنما كان يخاطب العرب بما يعرفونه ويقدرونه .

٢ – والشواهد على معرفة العرب للكتابة منذ العصر الجاهلي كثيرة . وهي جميعاً روايات متناثرة هنا وهناك في المصادر القديمة ذاتها . لكن الخلاف بين الدارسين المحدثين يقوم أساساً حول حجم هذه المعرفة ، وبالأحرى حول حجم ما دونه العرب في العصر الجاهلي .

(أ) فمن الدارسين من يكاد ينفي تدوين العرب قبل الإسلام شيئاً من معارفهم ، فيقول : « لم يكن للعرب في فترة ما قبل الإسلام ثقافة مدونة وعلوم مسجلة ؛ فقد غلبت عليهم البداوة ، واستغرق حياتهم التنقل ، ففشت فيهم الأمية ، ولم يتركوا خلال هذه الحقبة المديدة الغامضة من فجر حياتهم سوى نقوش قليلة تنبيء عما كان لهم من دور حضاري ، حتى إن هذه النقوش لم تكن متوافرة إلا في بعض المناطق العربية ، كجنوبي جزيرة العرب وشماليها ، حيث توجد الأحجار والصخور ، على حين كان باطن الجزيرة وأكثر ربوعها سهوباً وصحارى لم تسعف سكانها العرب في ترك مياسمهم على الأرض

---

(١) نفسه .

(٢) أبو الفرج الأصفهاني : كتاب الأغاني ، ط دار الكتب ، ج١٦ ، ص ١٣٠ .

التي عاشوا فيها أحقاباً مديدة » . [1]

(ب) والمستشرق الفرنسي « بلاشير » يقلل من شأن التدوين قبل الإسلام ومن حجم ما دون آنذاك ، مرجحاً دور الرواية الشفوية في سيرورة الشعر الجاهلي وانتشاره ، فيقول : « لا شك في أن بعض الرواة في بعض المراكز الحضرية قد دونوا كتابة بعض القصائد الهامة ، ولكن ذلك يعوزه الدليل . حتى ولو سلمنا بصحة وقوع ذلك فإن التدوين لم يشمل إلا جزءاً من آثار الشعراء الحضريين ، أما البقية فقد سارت في الصحراء عن طريق الرواية الشفوية . وخلاصة القول فإن الرواية الشفوية وحدها تؤلف الطريقة الأساسية لنشر الآثار الشعرية ، منذ اللحظة التي قذف فيها الشاعر وراويته تلك الآثار في خضم الجماهير » . [2] ولا ندري إن كان موقفه هذا ينسحب على غير الشعر من ألوان المعرفة القديمة .

(ج) ومن قبل هذا وذاك تصدى ناصر الدين الأسد لاستقصاء الشواهد الكثيرة الدالة على أن حجم التدوين لدى العرب قبل الإسلام لم يكن هيناً ؛ فأشار إلى ما كان لدى « دَغْفَل » النسابة من دواوين شعر جاهلية ، وإلى واقعة جمع النعمان بن المنذر ملك الحيرة للشعر العربي في الجاهلية وتدوينه ، ثم إلى رواية لابن الكلبي عما أفاده من أسفار الحيرة ونقوش كنائسها وما كان فيها من أخبار العرب الجاهليين وأنسابهم . ثم قال : « أمامنا إذن ، في هذه النصوص والروايات ، شعر جاهلي ، وأخبار جاهلية ، مدونة كلها في كتب وأسفار ودواوين من الجاهلية نفسها » . [3] ثم يعود فيشير إلى قول بشر بن أبي خازم — وهو شاعر جاهلي لم يدرك الإسلام :

وجدنا في كتاب بني تميم « أحق الخيل بالركض المُعارُ »

---

(1) الدقاق : مصادر .. ص ٧ .

(2) بلاشير : تاريخ الأدب العربي ، ترجمة إبراهيم الكيلاني ، دمشق ١٩٧٣ ، جـ١ ص ١٢٠

(3) ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ١٩٥٦ ، ص ١٦٢ .

وإلى ما ورد فيه من إشارة إلى « كتاب بني تميم » في الجاهلية ، منتهياً من هذا إلى « أن كل قبيلة من القبائل كانت تجمع شعر شعرائها ، وحكم حكمائها ، وأقوال خطبائها ، وأخبارها ومفاخرها ومآثرها وأنسابها في كتاب » . (1)

ومن الواضح أن موقف الباحث هنا من قضية التدوين في العصر الجاهلي يختلف كل الاختلاف عن صاحبيه ، إذ يكاد الأول منهما ينفي تدوين العرب لشيء قبل الإسلام ، في حين يقلل الثاني من حجم هذا التدوين : مثيراً الشك في الروايات التي تؤكده .

ومبدأ الشك في الرواية قد يكون له ما يبرره في بعض الأحيان ، لكننا هنا لسنا بصدد رواية خبر واحد ، أو الاستشهاد بشاهد واحد ، بل نحن أمام روايات وشواهد كثيرة متعددة المصادر . ومن ثم يصبح الشك أمراً مبالغاً فيه . وقد رأينا من قبل كيف كان في مكة والمدينة وحدهما عند مجيء الإسلام قرابة ثلاثين كاتباً . وهو خبر لم يشك فيه أحد . فماذا كان هؤلاء الكتاب جميعاً يدونون في جاهليتهم ؟ .

٣ ـ وفي إبان الدعوة الإسلامية وفي أعقابها مست الحاجة إلى التدوين على نطاق واسع .

(أ) فقد دون القرآن الكريم كله تفاريق في البداية، دونته طائفة من الكتاب عرفوا بكتاب الوحي . وكان من جملتهم زيد بن ثابت ، وعلي بن أبي طالب ، ومعاذ بن جبل ، وطلحة بن الزبير ، وسعد بن أبي وقاص ، وحذيفة ابن اليمان ، وعثمان بن عفان ، وأُبَيّ بن كعب ، ومعاوية بن أبي سفيان . وقد كان زيد أكثرهم كتابة ، لكثرة ملازمته للرسول عليه السلام . وقد ظل القرآن الكريم مدوناً على هذا النحو طوال عهد الدعوة . ولم تمس الحاجة إلى تدوينه مجتمعاً إلا فيما بعد ، بعد أن اختار الله تعالى رسوله إلى جواره ، وبعد

---

(1) نفسه ص ٢٦٤ .

أن قامت فتن المرتدين عن الإسلام في عهد الخليفة الأول أبي بكر . فقد أنفذ أبو بكر جيوشاً من المسلمين لحرب هؤلاء المرتدين ، وخرج في هذه الجيوش عدد كبير من الصحابة ، استشهد منهم في غزوة اليمامة وحدها ألف ومئتان ، كان من بينهم سبعمائة يحفظون القرآن (١) . عند ذالك أوجس عمر بن الخطاب خيفة من أن يأتي يوم يتبدد فيه القرآن لسبب كهذا أو لغيره من الأسباب ، فهُرِعَ إلى أبي بكر ، وأشار عليه بضرورة تدوين القرآن مجتمعاً . لكن أبا بكر لم يكن ليصنع شيئاً لم يصنعه رسول الله ، فقال لعمر : « كيف أفعل أمراً لم يفعله رسول الله ولم يعهد إلينا فيه عهداً ؟ ! » . (٢) لكن عمر — الذي أدرك هول الكارثة المتوقعة — لم ييأس من جداله ، وما زال به حتّى أقنعه بضرورة جمع القرآن . وقد أناط أبو بكر مهمة جمعه بزيد بن ثابت .

ونشط زيد بن ثابت في جمع القرآن مما كان مدوناً عنده وعند غيره من الصحابة . وكان ربما وجد الآية أو السورة مدونة لدى أكثر من واحد منهم . فكان ذلك هادياً له إلى الوثوق بها . وفي الوقت نفسه كان زيد يعتمد على القراء الحفاظ ، ولكنه كان لا يأخذ الآية من واحد منهم إلا إذا شهد عليها شاهدان يؤكدانها ، وكانت النصوص المكتوبة تعد أحد الشاهدين (٣) . وحين فرغ زيد من جمع القرآن في مصحف واحد قدمه إلى أبي بكر فظل عنده إلى وفاته ، ثم انتقل إلى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب فظل عنده عشر سنين . واحتفظت به ابنته حفصة بعد وفاة أبيها .

وفي عهد عثمان نشطت الفتوح الإسلامية ، وتفرق كثير من المسلمين في الأقطار المفتوحة ، وكان منهم القراء الذين يحفظون القرآن ، كما كان لدى

---

(١) انظر جورجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، طبعة الدكتور حسين مؤنس . القاهرة ، ج ٣ ص ٦٤ .

(٢) جورجي زيدان : نفسه .

(٣) انظر السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ، ج ١ ص ٥٨ .

بعضهم نسخ من القرآن ، رتبها كل منهم ترتيباً خاصاً . وقد كان هؤلاء مرجع المسلمين في تلك الأمصار ، يسمعون منهم القرآن ويأخذونه عنهم . كان أهل الكوفة مثلا يأخذون عن ابن مسعود ، وأهل البصرة عن أبي موسى الأشعري ، وفي دمشق وحمص أخذ الناس عن المقداد بن الأسود ، وهكذا . ولم يخل الأمر من الاختلاف بين هؤلاء في قراءة بعض الآيات . وربما التقوا فقال الواحد منهم للآخر : « قراءتي خير من قراءتك » (١)

عند ذاك أدرك حذيفة بن اليمان الخطر المحدق ، فأسرع إلى الخليفة الثالث عثمان وقال له : أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى (٢) . واستجاب عثمان لنداء حذيفة فأرسل إلى حفصة أن تبعث إليه بالصحف التي لديها لكي ينسخها ثم يردها إليها . فما إن استقرت عنده حتى دعا بزيد بن ثابت مرة أخرى ، ومعه عبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وأمرهم أن ينسخوا تلك الصحف ، وأن يستعينوا في ضبط القراءة بما حفظه القراء . وكان زيد يقود المجموعة في هذا العمل الجليل . ولكن ماذا لو اختلفوا أو اختلف بعضهم معه في قراءة ؟ لقد وضع لهم عثمان المعيار الحاسم ، فقال : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما أنزل بلسانهم (٣) .

وعلى أيدي هذه الجماعة تمت عملية تدوين القرآن في صورة نهائية . ومنذ ذلك الوقت صارت هذه النسخة هي النسخة الأم . وقد أمر عثمان بكتابة ست نسخ منها ، احتفظ لنفسه منها بواحدة ، وجعل واحدة لأهل المدينة ، ووزع النسخ الأربع الباقية على مكة والبصرة والكوفة والشام (٤) .

---

(١) جورجي زيدان : نفسه ، ج ٣ ص ٦٥ .

(٢) نفسه .

(٣) ابن النديم : الفهرست ــ المكتبة التجارية بمصر ــ ص ٤٣ .

(٤) جورجي زيدان : نفسه ، ج ٣ ص ٦٥ .

والحق إن تدوين القرآن على هذا النحو يعد أضخم وأدق عملية تدوين تمت في الصدر الأول للإسلام . وما أسرع ما انتشرت النسخ المأخوذة عن هذه النسخة الأم ، وما أكثر ما صار في أيدي الناس من هذه النسخ ، حتى إنه ليقال إن عسكر معاوية في وقعة صفين حين رفعوا المصاحف كان معهم ما يقرب من خمسمائة نسخة [1] . وهذا دليل — من جهة أخرى — على أن عملية النسخ ، أي الكتابة ، كانت قد صارت ميسورة ، وعلى كثرة النُّسَّاخ .

(ب) ولم يقتصر الأمر في صدر الإسلام الأول على تدوين القرآن الكريم ، بل مست الحاجة إلى الكتابة في بعض الأمور المتعلقة بالدعوة الجديدة . فمنذ البداية اقتضى الأمر كتابة بعض المعاهدات ، كالمعاهدة التي أمر الرسول عليه السلام بكتابتها على أثر هجرته إلى المدينة ، لتنظيم العلاقات بين المهاجرين والأنصار واليهود . وهي معاهدة طويلة [2]

وإلى جانب المعاهدات نجد الرسائل التي بعث بها الرسول إلى القبائل المختلفة ، سواء لعقد حلف معهم ضد قريش عند بدء الدعوة ، أو لدعوتهم إلى الإسلام ، أو في أمر من أمور العقيدة . هذا سوى كتب الأمان وكتب تقسيم الغنائم وكتب الإقطاعات .

كل هذا في داخل شبه الجزيرة ، أما في خارجها فقد بعث الرسول بالرسائل إلى ملوك الدول المجاورة ، كالمنذر بن ساوي ، والمقوقس في مصر ، والنجاشي في الحبشة [3] .

---

(١) نفسه ، جـ ٣ ص ٦٦ .

(٢) راجع النويري : نهاية الأرب ، جـ ١٦ ، ص ٣٤٨ وقد وردت كلمة « الصحيفة » في نص هذه المعاهدة وصفا لها عدة مرات .

(٣) ذكر المسعودي في « التنبيه والإشراف » أن زيد بن ثابت كان يكتب إلى الملوك ويجيب بحضرة النبي . وكان يترجم للنبي بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية ، وتعلم ذلك بالمدينة عن أهل هذه الألسن . وذكر عدد من المؤرخين أن النبي عليه السلام قال لزيد :

(جـ) أما فيما يتعلق بالحديث الشريف فالمعتقد لدى الكثيرين أنه ظل يُتناقل روايةً أكثر من مائة عام ، وأنه « في حياة النبي عليه السلام ، وفي حياة الخلفاء الراشدين ، وفترة من الزمن طويلة مدة الخلافة الأموية ، لم يكن الحديث مدوناً »[1] . والسبب العام الذي يعزى إليه تأخر تدوين الحديث هو كراهة أن يُضاهَى بكتاب الله غيره ، أو يُشتغل عن القرآن بسواه .

أما أن الحديث الشريف ظل يتناقل رواية حقبة طويلة من الزمن فهذا لا مراء فيه ، ولكن هذا لا ينفي بالضرورة عملية تدوينه منذ وقت مبكر ، بل في حياة الرسول نفسه . فعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبدالله بن عباس ، وأبو هريرة ، وسعد بن عبادة الأنصاري ، وأنس بن مالك — هؤلاء جميعاً دونوا الأحاديث منذ وقت مبكر . وقد أخذ عبد الله بن عمرو الرخصة في هذا التدوين من الرسول نفسه . وقفىّ التابعون على آثار الصحابة في هذا الشأن . ثم استمرت عملية تدوين الحديث في نموها الطبيعي ، حتى بلغت غاية اكتمالها في مدونات الحديث الكبيرة الجامعة ، مثل صحيح الإمام البخاري (ت ٢٥٦ هـ) وصحيح الإمام مسلم (ت ٢٦١ هـ) وغيرهما .

وإذن فقد بدأت عملية تدوين القرآن الكريم منذ اللحظة الأولى من حياة الدعوة على أيدي كتاب الوحي أولا ، ثم على يد زيد بن ثابت وجماعته التي شكلها الخليفة عثمان بن عفان أخيراً وبصفة نهائية . وكذلك دونت رسائل كثيرة للرسول عليه السلام ، بعث بها إلى القبائل في داخل شبه الجزيرة وإلى ملوك الدول المجاورة . يضاف إلى هذا أن نفراً من الصحابة كانوا قد بدأوا يدونون لأنفسهم الحديث الشريف في حياة الرسول نفسه . وكل هذا يوضح لنا أن حجم عملية التدوين في ذلك الزمن الباكر لم يكن هيناً .

— أتحسن السريانية ؟ فإنها تأتيني كتب ، قال : لا ، قال : فتعلمها ! (انظر محمد حميد الله : صنعة الكتابة في عهد الرسول والصحابة ، مجلة « فكر وفن » — عدد ٣ سنة ١٩٦٤ .

(١) محمد أحمد خلف الله : دراسات في المكتبة العربية — القاهرة ١٩٥٨ ص ٣٩ .

٤ — وتكثر نسخ القرآن الكريم في أيدي الناس منذ عهد معاوية بن أبي سفيان — كما أسلفنا — فتزداد بهذا حاجة الناس إلى تدبر معانيه ، وإلى من يوضح لهم أحكامه ومقاصده . وما استشكل عليهم فهمه منه . حقاً إن هذه الظاهرة لم تبدأ منذ ذلك العهد ، بل برزت — على نطاق ضيق — في حياة الرسول نفسه ، فكان الصحابة يسألونه أحياناً عن معنى لفظة أو تأويل آية . لكن شيئاً من هذا التأويل لم يدون في ذلك الوقت . أما بعد ذلك فقد مست الحاجة إلى تفصيل آيات القرآن ، وكان الصحابة ومن بعدهم الجيل الأول من التابعين هم مرجع الناس في هذا التفصيل [١] . وقد دون عبدالله بن عباس — فيما دون — كثيراً من التفسير ، بخاصة في مجال غريب القرآن وفي أسباب النزول [٢] . ومن التابعين من كتب في التفسير كذلك . مثل عروة بن الزبير [٣] . وسعيد بن جبير [٤] ، والحسن البصري [٥] ، وقتادة [٦] ، وغيرهم . وقد انتهى هذا التفسير المأثور كله عن الصحابة والتابعين إلى تفسير « جامع البيان في تفسير القرآن » لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ — ٣١٠ هـ) . وهو تفسير ضخم ، يقع في ثلاثين جزءاً . وأنت إذا تصفحت هذا التفسير لا تكاد تخطىء في أي صفحة من صفحاته أسماء من ذكرنا وشيكا وغيرهم من الصحابة والتابعين الذين صرفوا قدراً كبيراً من جهودهم إلى تفسير القرآن .

---

(١) كان عروة بن الزبير يتلقى في بعض الأحيان رسائل يسأله فيها أصحابها عن تأويل بعض الآيات ، فكان يكتب إليهم بما يطلبون . (راجع ابن سعد : الطبقات الكبرى — طبعة ليدن — جـ ٨ ص ٦ — ٧ .

(٢) سنشير إلى كتبه في هذا المجال بعد قليل .

(٣) راجع ابن سعد : نفسه .

(٤) راجع ابن سعد : نفسه ١٨٦/٦ .

(٥) راجع ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٥١

(٦) هو قتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٨ هـ) .

من أجل هذا عد تفسير الطبري هذا أبرز نموذج لما عرف في المصطلح بالتفسير بالمأثور .

(أ) على أن تفسير القرآن استتبع لوناً آخر من التأليف ، امتزج به منذ البداية ، ثم ما لبث أن انفصل عنه ، وهو كتابة المغازي والسِّير .

لقد كان مما وصف به الرسول عليه السلام القرآن قوله : « كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ... » [1] والحق إن القرآن الكريم قد تضمن إشارات كثيرة إلى أحداث وشخوص ، ابتداء من آدم عليه السلام وابنيه قابيل وهابيل إلى عام الفيل قبيل البعثة المحمدية . ولكنه كذلك تضمن سيرة الرسول الكريم وأخبار غزواته والوقائع الحربية التي خاضها ضد المشركين . وأمام هذه المواطن من القرآن وجد المفسرون الأوائل أنفسهم مطالبين بتفصيل الحديث فيهـا .

وقد كان لعروة بن الزبير فضل عناية بالتاريخ القديم وبالمغازي . وما أكثر الروايات القديمة التي تشير إلى ما كان يكتبه في تفصيل الخبر في هذه الوقائع إجابة عن أسئلة يرسل بها إليه عبد الملك بن مروان . ومن ثم عد عروة أول من صنف في المغازي [2] .

وقد اشتهر في هذا المجال كثيرون ، منهم أبان بن عثمان بن عفان ووهب بن منبه ، وعاصم بن عمر ، وابن شهاب الزهري ، وموسى بن عقبة ، ومحمد بن إسحق ، ومحمد بن عائذ الدمشقي ، وغيرهم .

(ب) ونحن حين نتصفح مقدمة السيرة التي رواها ابن هشام عن ابن إسحق نجده يقول فيها : « وأنا إن شاء الله مبتدىء هذا الكتاب بذكر إسماعيل ابن إبراهيم ومن ولَدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ولَدِه وأولادهم

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار — ط دار الكتب بمصر ، ج ٢ ص ١٣٣ .
(٢) انظر ناصر الدين الأسد : مصادر .. ص ١٤٩ .

لأصلابهم ، الأول فالأول ، من إسماعيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يعرض من حديثهم ، وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل على هذه الجهة للاختصار ، إلى حديث سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. » (١) فهو إذن يقدم بين يدي السيرة بهذا الاستقصاء الطويل لنسبه عليه السلام .

وعناية العرب بحفظ أنسابها قديمة . وقد عرف منهم نفر برواية النسب فكانوا بمثابة المرجع الذي يئولون إليه إذا اختلط عليهم الأمر . وقد كان أبو بكر الصديق نسّابة (٢) من هؤلاء . وقد أخذ عنه جُبَيْر النسب وتفوق حتى قيل إنه أنْسَبُ العرب . وعن جبير هذا أخذ سعيد بن المسيب (٣) . والذين اشتغلوا بعلم الأنساب كثيرون . والذي يهمنا هنا هو أن نعرف كيف بدأ التدوين في هذا المجال وكيف تطور . ويبدو أن دَغْفَلاً النسابة — وهو جاهلي أدرك الإسلام — هو أول من وردت الإشارة إلى تدوينه النسب في الصحف (٤) . ثم يلي هذا ابن شهاب الزهري ، فهناك إشارة إلى أنه أخذ في تدوين نسب مضر استجابة لطلب خالد بن عبدالله القسري وإن لم يتم الكتاب (٥) . ولعل من أقدم كتب النسب الكاملة كتاب « نسب قريش » لأبي عبدالله المصعب بن عبدالله بن المصعب الزبيري (ت ٢٣٦ هـ) . ثم كثرت بعد ذلك المصنفات في الأنساب .

وكل الشواهد السابقة تشير إلى أن عملية التدوين قد بدأت في حياة العرب منذ وقت مبكر ، وأنها أخذت تنمو وتتطور حتى اكتمل تدوين المعارف العربية والإسلامية في النصف الأول من القرن الثالث الهجرى . وسنحاول

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ١ ص ٣ .
(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٥١/٢ .
(٣) الجاحظ : البيان والتبيين ٣٠٣/١ .
(٤) انظر ناصر الدين الأسد : مصادر .. ص١٦٠ .
(٥) انظر الأغاني ٥٦/١٩ .

في الفقرة التالية تقديم شواهد على ما عرف من مدونات منذ العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي ، تساعدنا على تصور حجم التدوين في هذه المراحل الأولى .

ب — المدونات (من الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي)

١ — هنالك بعض المدونات التي تعزي إلى العصر الجاهلي ، نشير منها إلى ما يلي :

(أ) أنه اشتهر لدى العرب منذ العصر الجاهلي عدد من الحكماء « كانوا ينهجون نهجاً يذكرنا بنهج حكماء الشرق الأدنى القديم ... فكان الحكيم هو الرجل المثقف ثقافة جامعة لشتى ألوان المعرفة ، وكان بعض الحكماء العرب يورثون الحكمة أبناءهم . » [١]

وقد كان لقمان من أشهر حكماء العرب في الجاهلية . ويبدو أن ما كان لديه من حكمة كان مدوناً في كتاب منذ ذلك العصر ؛ فابن هشام [٢] يشير إلى أن سويد بن الصامت كان يحمل صحيفة فيها حكمة لقمان ، وأنه ذهب بها إلى الرسول عليه السلام فقرأها عليه ، فقال له الرسول : إن هذا الكلام حسن ، والذي معي أفضل من هذا — قرآن أنزله الله تعالى عليّ ، هو نور وهدى .

(ب) ويذكر ابن النديم [٣] أنه كان في خزانة كتب الخليفة العباسي المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم (توفي قبل البعثة المحمدية بحوالي خمسة

---

(١) عبد المجيد عابدين : الأمثال في النثر العربي القديم (انظر ناصر الدين الأسد : نفسه ص ١٦٨) .

(٢) السيرة النبوية ٢/٦٨ .

(٣) الفهرست ، ص ١٣ — ١٤ .

وأربعين عاماً) ، وأن هذا الكتاب كان في جلد أدم ، وقد دون فيه « حق عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة على فلان بن فلان الحميري من أهل وزل صنعا ، عليه ألف درهم فضة كيلاً بالحديدة ، ومتى دعاه بها أجابه . شهد الله والملكان » .

(ج) ويذكر العسكري « أن عمران بن حصين قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : الحياء لا يأتي إلا بخير . فقال بشير بن كعب – وكان قد قرأ الكتب – : إن في الحكمة أن منه ضعفاً . فغضب عمران بن الحصين وقال : أحدثك بما سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم وتحدثني عن صحفك هذه الخبيثة » . (1)

(د) ويبدو أن كتباً كثيرة من هذا الطراز كانت متداولة بين الناس منذ وقت مبكر ؛ فقد ذكر القاسم بن محمد أن عمر بن الخطاب بلغه أنه قد ظهر في أيدي الناس كتب ، فاستنكرها وكرهها ، وقال : « أيها الناس ، إنه قد بلغني أنه ظهرت في أيديكم كتب ، فأحبها إلى الله أعدلها وأقومها ، فلا يبقين أحد عنده كتاباً إلا أتاني به ، فأرى فيه رأيي » . قال : فظنوا أنه يريد أن ينظر فيها ، ويقومها على أمر لا يكون فيه اختلاف . فأتوه بكتبهم ، فأحرقها بالنار (2) .

(هـ) ويبدو كذلك أن بيع الحيرة وكنائسها في عهد المناذرة كانت مليئة بالسجلات والمدونات ؛ فقد ذكر الطبري (3) أن هشام بن محمد بن السائب الكلبي قال : « كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ، ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة .

---

(1) انظر ناصر الدين الأسد : مصادر .. ص ١٦٨ – ١٦٩ .

(2) نفسه ص ١٤٠ .

(3) تاريخ الطبري – ط مصر – ج ٢ ص ٣٧ .

٢ — وينتهي عهد الراشدين ويبدأ العهد الأول من دولة بني أمية بخلافة معاوية بن أبي سفيان . وفي عهده تبرز كتب جديدة ، وفي الوقت نفسه يتسع نطاق الكتب المتاحة للناس . وفيما يلي إشارات لبعض النماذج .

(أ) — ولنبدأ بالإشارة إلى كتب الصحابي الجليل عبدالله بن عباس ، المتوفى سنة ٦٨ هـ . فابن سعد يذكر لنا [١] أن كُريبًا وضع عند موسى بن عقبة حمل بعير من كتب ابن عباس . وكريب هذا ممن أخذوا عن ابن عباس . والخبر نفسه يدلنا على أن هذه الكتب التي كانت لابن عباس ، والتي بلغت حمل بعير ، لم تكن هي كل كتبه . وكذلك كانت هذه الكتبُ تنتسخ ؛ ففي بقية الخبر أن علي بن عبدالله بن عباس كان إذا أراد كتاباً من هذه الكتب كتب إلى موسى بن عقبة يستعيره منه فينسخه ثم يرده .

(ب) وكذلك يروي ابن سعد عن هشام بن عروة بن الزبير أنه قال : أحرق أبي يوم الحرَّة كتب فقه كانت له ، فكان يقول بعد ذلك : لأن تكون عندي أحب إلي من أن يكون لي مثل أهلي ومالي [٢] . وقد سبقت الإشارة إلى أن مجال إهتمام عروة قد امتد إلى التاريخ والمغازي ، حتى عد أول من كتب المغازي . فهل كان ما أحرقه في يوم الحرة من كتبه في الفقه غير ما دونه في هذا المجال ، أم أن ابنه هشاماً إنما أطلق عبارة « كتب فقه » على كل كتبه ؟

(جـ) وقد كان معاوية بن أبي سفيان مولعاً بمعرفة أخبار الملوك وسيرهم وسياساتهم ، فكانت لديه دفاتر فيها سير الملوك وأخبارها ، وأخبار الحروب والمكايد . وإنه ليقعد في كل يوم فيحضر له غلمانه هذه الدفاتر ، « فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون قد وكلوا بحفظها وقراءتها » . [٣]

---

(١) الطبقات الكبرى ٢١٦/٥ .

(٢) نفسه ١٣٣/٥ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب — بيروت ١٩٧٠ — جـ٣ ص ٢٢٢ .

وربما تضمنت هذه الدفاتر أحاديث عبيد بن شَرِيّة الجرهمي ؛ فابن النديم يذكر [1] أن عبيداً وفد على معاوية ، فسأله معاوية عن أخبار العرب ووقائعهم ، وعن سير الملوك من عرب وعجم ، وعن تبلبل الألسنة وتفرق الناس ، وغير ذلك من الأخبار ، فكان عبيد يجيبه عن كل ما سأل عنه . وفي الوقت نفسه طلب معاوية من كتابه في الديوان أن يدونوا هذه الأحاديث في الصحف ، وأن ينسبوها إلى صاحبها .

(د) وفي عهد معاوية كذلك ألف عبيد بن شرية كتاباً في الأمثال . وقد ذكر ابن النديم [2] أنه رأى هذا الكتاب ، وأنه كان نحو خمسين ورقة . وهذا معناه أن هذا الكتاب كان يتداول حتى عصر ابن النديم ، أي في أواخر القرن الرابع الهجري .

وقد ذكر ابن النديم [3] كتاباً آخر في الأمثال كذلك ، ألفه صُحار بن عيّاش العبدي ، أي في أيام معاوية .

(ﻫ) ونحن نسمع عن قيام ناد في أوائل النصف الثاني من القرن الأول الهجري لعله الأول من نوعه في المجتمع الإسلامي ؛ إذ يقال إن « عبد الحكم بن عمرو بن عبدالله بن صفوان الجمحي قد اتخذ بيتاً فجعل فيه شطرنجات ونردات وقرقات ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل في الجدار أوتاداً ، فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ، ثم جر دفتراً فقرأه ، أو بعض ما يلعب به فلعب به مع بعضهم » . [4]

---

(١) الفهرست ١٣٨ .

(٢) نفسه .

(٣) الفهرست ١٣٨ .

(٤) الأغاني ٤/٢٥٣ .

وهذا كله إن دل على شيء فإنما يدل على تزايد المؤلفات والمدونات في ذلك العهد .

٣ — ثم تستمر حركة التدوين في العهد الأموي الثاني في صعود نتيجة لاتساع نشاط المؤلفين والمصنفين . وفيما يلي عدد من الشواهد التي تؤكد هذه الحقيقة .

(أ) فمن المعروف أن حركة الترجمة للمعارف والعلوم من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية قد بدأت في عصر المأمون العباسي . ولكن الجاحظ يحدثنا[1] عن خالد بن يزيد بن معاوية ، وكيف أنه اشتغل بالعلم وبالتأليف ، وبترجمة الكتب إلى العربية ، فكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء .

(ب) ويبدو أن عادة التدوين كانت تجري في دم ابن شهاب الزهري ؛ فقد قال ابن أبي الزناد : « كنا لا نكتب إلا سُنة ، وكان الزهري يكتب كل شيء ، فلما احتيج إليه عرفت أنه أوعى الناس » .[2]

هذا الرجل ملأ الدنيا بمصنفاته وتآليفه ، حتى ليقال إنه كان إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله فاشتغل بها عن كل شيء ، حتى عن أهل بيته . ولهذا قالت له امرأته ذات يوم : « والله لهذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر » .[3]

(ج) وقد كلف الوليد بن يزيد مولعاً بالشعر ، فأراد أن يجمع ديوان العرب وأخبارها وأنسابها : فاستعار من حماد الراوية ، ومن جُناد بن واصل الكوفي — وكان من أعلم الناس بالشعر — ما عندهما من الكتب والدواوين فدونها عنده ، ثم أعادها إليهما .[4]

---

(١) البيان والتبيين ٣٢٨/١ .

(٢) نفسه ٢٩٠/٢ .

(٣) الفهرست ١٣٤ .

(٤) انظر الأسد : مصادر .. ص ١٥٧ .

وهذا دليل واضح على ما كان لدى هذين الرجلين من مدونات في التراث الأدبي العربي .

(د) على أن خزانة كتب الوليد بن يزيد لم تضم ما استنسخه من كتب حماد وجناد فحسب ، بل كانت تضم كذلك مصنفات ابن شهاب الزهري — على كثرتها — وغيرها من الكتب ، حتى إن الوليد حين قتل سنة ١٢٦ هـ حملت هذه الكتب من خزائنه على الدواب (١) .

(هـ) وكذلك كان أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) من أكبر علماء الأدب واللغة . وقد كان حريصاً على الحفظ ، كثير المحفوظ ، حتى انه في مجلسه لم يكن يحدث تلاميذه إلا من ذاكرته . ومع ذلك فقد كان كثير التدوين . والجاحظ يشير إلى حجم ما كان لديه من كتب فيقول إنها « ملأت بيتا له إلى قريب من السقف ، ثم إنه تقرّأ فأحرقها كلها ، فلما رجع بعد إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه » . (٢)

وقد كان أبو عمرو رأس مدرسة البصرة ومؤسسها ، كما كان حماد الراوية بالنسبة لمدرسة الكوفة ، وعن هذين الرجلين أخذ الرعيل الأول من علماء اللغة والأدب ، ثم تلاحقت أجيال تلاميذهم جيلاً بعد آخر .

(ج) وسائل التدوين :

تحدثنا في الفقرة الأولى عن حركة التدوين لدى العرب منذ مراحلها الباكرة في العصر الجاهلي ، وفي تطورها ونموها في إبان القرن الأول من الهجرة ، وما انتهت إليه هذه الحركة من نشاط واسع النطاق في العصر العباسي

---

(١) راجع ابن سعد : الطبقات الكبرى ١٣٦/٢ .
(٢) البيان والتبيين ٣٢١/١ .

وتحدثنا في الفقرة الثانية — بصورة موازية — عن حجم المدونات في شتى المعارف التي كانت متاحة في تلك الحقبة ، بما يؤكد نمو حركة التدوين واتساع نطاقها في خلال القرن الأول الهجري وبدايات القرن الثاني .

وكل هذا من شأنه أن يقودنا إلى الحكم على دعوى انتهاء القرن الأول الهجري دون أن يدون العرب شيئاً من معارفهم بأنها دعوى تعميمية متسرعة ، تفتقر إلى الأسانيد التاريخية . أما الشك في كل هذه الروايات التي تحدثنا عن التدوين فقد صار واضحاً أنه لا مبرر له .

ونود الآن أن ندعم ما بدا لنا من أمر التدوين لدى العرب منذ العصر الجاهلي من زاوية أخرى .

فالتدوين — لكي يتم — يقتضي بالضرورة توافر عنصرين لا غنى عنهما ، هما معرفة المدوِّن بالكتابة ، وتوافر وسائل التدوين ، بخاصة إذا كان هذا التدوين على نطاق واسع ، وإذا تجاوز الأمر مجرد التدوين إلى استنساخ المدونات في مئات من النسخ ، كما حدث منذ وقت مبكر في تدوين القرآن الكريم واستنساخه .

أما بالنسبة لمعرفة العرب بالكتابة منذ أواخر العصر الجاهلي — وبخاصة في الحواضر — على نطاق معقول نسبياً ، ثم نمو هذه المعرفة مع مضي الزمن — فقد تحدثنا عنه في مستهل الفقرة الأولى ، ويمكن استكناهه من تتبعنا لنمو حركة التدوين في خلال القرن الهجري الأول . ويبقى إذن أن نتحدث عن وسائل التدوين ومدى وفرتها في تلك الحقبة من الزمن .

ولكن الكتابة باللغة العربية لها مشكلة خاصة : تتعلق بالخط العربي نفسه ، في نشأته وتطوره . ومن ثم يصبح أمامنا في هذه الفقرة مشكلتان : الأولى مشكلة الخط العربي بوصفه وسيلة التدوين الكتابية ، والثانية مشكلة الوسائل التي يصلح التدوين عليها .

١ ـ تختلف آراء الباحثين حول نشأة الخط العربي وحول أصوله ومصادره اختلافاً كبيراً ، يتراوح بين الآراء الغيبية التي تجعل هذا الخط توقيفاً من الله تعالى علمه آدم منذ بداية الخلق ، والآراء التي تستقرىء النقوش الحجرية التي عثر عليها في أماكن متعددة من شبه الجزيرة العربية .

(أ) فعلى حين يأخذ ابن فارس[١] بنظرية التوقيف يقول ابن النديم في بيان أولية الخط العربي : « اختلف الناس في أول من وضع الخط العربي » فقال هشام الكلبي : أول من صنع ذلك قوم من العرب العاربة ، نزلوا في عدنان ابن أد ، وأسماؤهم : أبو جاد ، هواز ، حطي ، كلمون ، صعفص ، قريسات .. والأعراب وضعوا الكتاب على أسمائهم ، ثم وجدوا بعد ذلك حروفاً ليست من أسمائهم ، وهي الثاء والخاء والذال والظاء والشين والغين فسموها الروادف.. وقال ابن عباس : أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بولان وهم قبيلة سكنوا الأنبار .. وهم مرامر بن مرة ، وأسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة .. فأما مرامر فوضع الصور ، وأما أسلم ففصل ووصل ، وأما عامر فوضع الإعجام » .[٢]

وهذان الخبران اللذان يرويهما ابن النديم غير مطمئنين ، وبخاصة ما في الخبر الثاني من إشارة إلى وضع الإعجام منذ البداية ؛ فمشكلة الإعجام تشكل قضية قائمة بذاتها في تاريخ الخط العربي .

(ب) وقيل كذلك إن أول من كتب بالعربية إسماعيل عليه السلام ، وأن « نفيسا » و « نصرا » و « تيما » و « دومة » أبناءه وضعوا كتاباً واحداً ، وجعلوه سطراً واحداً ، موصول الحروف كلها ، غير متفرق ، ثم فرقه

(١) انظر الصاحبي في فقه اللغة ـ المكتبة السلفية ١٩١٠ ، ص ٧ .

(٢) الفهرست ١٢ ـ ١٣ .

« ثابت » و « هيسع » و « قيذار » ، وفرقوا الحروف ، وجعلوا الأشباه والنظائر [1] .

وهذا أيضاً خبر لا يمكن الاطمئنان إليه كثيراً .

(جـ) وقد قام العلماء حديثا باستقراء عدد من النقوش عثر عليه في مناطق أم الجمال في شرق الأردن ، وفي النمارة قرب دمشق ، وفي زبد ، في الجنوب الشرقي من حلب ، وفي حوران اللجا ، جنوبي دمشق — وهي نقوش قديمة من عصور ما قبل الاسلام ، بالإضافة إلى النقوش والبرديات التي عثر عليها في العهد الإسلامي ، فضلا عن الرسائل الثلاث التي بعث بها الرسول عليه السلام إلى المنذر بن ساوى والمقوقس في مصر والنجاشي ملك الحبشة ، والتي عثر على ما يظن أنه النسخ الأصلية لهذه الرسائل . ومن هذا الاستقراء انتهوا إلى ترجيح أن الخط العربي قد أخذ في البداية عن الخط النبطي[2] ثم أخذ قبيل الإسلام يتطور في اتجاهه الخاص . ومن ثم كان التشابه كبيرا بين الخط العربي قبيل مجيء الإسلام وبين المراحل الأولى من الكتابة في صدر الإسلام . وإذا كانت هناك بعض الفروق الطفيفة فمرجعها إلى التطور الذي حدث في تجويد هذا الخط نتيجه لتزايد عدد الكتاب واتساع نطاق التدوين .

٢ — ومن أهم القضايا التي اتصلت بتاريخ الخط العربي قضية رقش الحروف ، أي استخدام نظام التنقيط للتمييز بين حروفها المتطابقة في الشكل . ففي الأبجدية العربية مجموعات من الحروف ترسم بطريقة واحدة ، هي : الباء والتاء والثاء والياء والنون ، ثم الجيم والحاء والخاء ، ثم الدال والذال ، ثم الراء والزاي ، ثم السين والشين ، ثم الصاد والضاد ، ثم الطاء والظاء ، ثم العين والغين ، ثم الفاء والقاف . وبدون نظام التنقيط هذا ، الذي يميز

---

(٣) انظر الطاهر أحمد مكي : دراسة في مصادر الأدب ، ص ٣٨ .

(٢) انظر ناصر الدين الأسد : مصادر .. ص ٢٤ .

كل حرف عن غيره من الحروف ، يصبح من الصعب قراءة الكلمة صحيحة دائما ، ويصبح التصحيف — أي قراءة الكلمة على غير وجهها الأول المقصود — أمرا شديد الاحتمال ، بل كثير الوقوع .

ولا شك في أن عملية الرقش هذه قد أعطت حروف العربية صورتها النهائية الكاملة . ولكن متى بدأت هذه العملية ، وكيف تطورت ؟

(ا) ينفي بعض الدارسين أن تكون الكتابة العربية في العصر الجاهلي قد عرفت النقط ، فيقول : « كانت الكتابة العربية الجاهلية عارية من النقط خالية من الشكل ، شأنها في ذلك شأن الأم النبطية التي اشتقت منها . ولم يكن العرب الجاهليون في حاجة إلى ضوابط النقط والشكل لمكانتهم من العربية . ولا غرو فالعربية لغتهم وهم سادتها، المالكون لزمامها ، يقرأونها كما يتكلمونها صحيحة بالسليقة والطبع »[1] .

غير أنه من الواضح أن الكلام بالسليقة غير القراءة ؛ فالقراءة — كالكتابة — تحتاج إلى تعلم لأصولها ، ومعرفة برموزها وإشاراتها الصوتية .

(ب) ويرى الدكتور محمد حميد الله[2] أن الرقش كان معروفا في عهد الرسول عليه السلام، معتمدا في هذا على ما ترويه بعض المصادر القديمة من أن « عبيد بن أوس الغساني كاتب معاوية قال : كتبت بين يدي معاوية كتابا . فقال لي : يا عبيد ارقش كتابك ؛ فإني كتبت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم رقشته — (وفي رواية السيوطي : كتبت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا معاوية ارقش كتابك) — قال عبيد : قلت

---

(١) إبراهيم جمعة : دراسة في تطور الكتابات الكوفية — دار الفكر العربي بالقاهرة سنة ١٩٦٩ ص ٢٧٣ :

(٢) محمد حميد الله صنعة الكتابة في عهد الرسول والصحابة — ص ٢٦ .

وما رقشه (وفي رواية ابن عساكر : ما رقشته) يا أمير المؤمنين ؟ قال : أعط كل حرف ما ينوبه من النقط » .

ثم يعلق الدكتور حميد الله على هذه الروايات المختلفة المصادر للخبر نفسه بقوله : « نرى من هذا أن الرقش كان معروفا في أواخر العصر النبوي ؛ فإن معاوية صار كاتبا له بعد فتح مكة في سنة ثمان للهجرة »[١] .

(ج) والدكتور ناصر الدين الأسد يذهب إلى أبعد من هذا فيقول : « كانت الكتابة الحميرية والصفوية والثمودية واللحيانية ، والكتابة النبطية التي يرجح أن الكتابة العربية مشتقة منها – كانت كل هذه الكتابات غير منقوطة ، ولكن المدقق فيها يرى أن الكثرة الغالبة من حروفها يختلف بعضها عن بعض اختلافا يمنع اللبس والاختلاط ، ومن هنا لم تكن في حاجة إلى نقط . وأما الخط العربي فكثير من حروفه متشابهة تشابها كاملا ، مختلفة في الصوت اختلافا تاما ، ولا سبيل إلى التفرقة بينها إلا بالنقط ، بل إن هذا التشابه العجيب بين الحروف ليكاد يجعلنا نظن أن الحرف منذ أن وُجد وُجد معه نقطة . وأن النقط ضرورة من ضرورات هذه الحروف منذ نشأتها » .[٢]

ومع أنه يعتمد على رواية للقلقشندي فإن هذه النتيجة لم يؤد إليها إلا الاستنباط العقلي ، فهي نتيجة ظنية على كل حال .

(د) وإذا كانت الآراء السابقة تعتمد على روايات قديمة من مصادر مختلفة فتختلف نتيجة لذلك ، فإن النقوش والبرديات التي عثر عليها حديثا ربما كانت أوثق المصادر في هذا الصدد . فقد « نشر جورج مايلس مقالة مصورة عن كتابة وجدت على سد قريب من الطائف . نقرأ عليها في ستة

(١) نفسه .

(٢) مصادر .. ص ٣٨ .

أسطر ما يلي : « هذا السد لعبد الله معوية / أمير المؤمنين ، بنيه (بناه) عبد الله بن صخر / بإذن الله لسنة ثمن وخمسين ، أ / للهم اغفر الله معوية أ / مير المؤمنين وثبته وانصره ومتع ا /لمومنين به . كتب عمرو بن حباب » . ويقول صاحب المقال إنه يوجد رقش على إحدى عشرة كلمة »[1] .

وإذا كان هذا النقش قد كتب في سنة ٥٨ هـ فإن هناك بردية مؤرخة في سنة ٢٢ هـ في أيام خلافة عمر بن الخطاب ، أطلع عليها عالم البرديات أدولف جرومان ، وفيها نص عربي مع ترجمة يونانية ، وقد ظهر فيها الرقش على حروف الخاء والذال والزاي والشين والنون[2] .

ومعنى هذا أن هذه الكشوف تؤكد الرأي القائل بمعرفة العرب للرقش منذ وقت مبكر ، أو منذ عهد عمر بن الخطاب على أقل تقدير . على أن المقارنة بين الحروف المرقوشة في البردية (٢٢ هـ) وفي نقش معاوية (٥٨ هـ) يمكن أن تنبهنا إلى أن الحروف القابلة للرقش لم تكن جميعها ترقش في البداية كما أنها لم تكن ترقش في كل الكلمات أو في كل موضع ترد فيه في الكلمة ، وأن الحروف المرقوشة في النقش لا تتفق مع الحروف المرقوشة في البردية إلا في حرف النون .

وربما جاز لنا أن نستنبط من هذا أن العرب وإن عرفوا الرقش منذ وقت متقدم لم يكونوا يستخدمونه دائماً ، وإذا استخدموه لم يستخدموه بصورته الكاملة .

---

(١) انظر محمد حميد الدين : نفسه ص ٢٦ ع ١ والحروف التي رقشت أحياناً في هذه الكلمات هي : ب ، ت ، ث ، ن ، ي .
ويحتمل كذلك الفاء والغين .

(٢) نفسه .

(هـ) وحين ننظر فنجد أن حروف القرآن لم تكن في بادىء الأمر منقوطة يرد على الذهن هذا السؤال : لماذا لم يكن مصحف عثمان منقوط الحروف على الرغم من أن النقط كان – كما رأينا – مستخدما ، ولو جزئيا ، في عهد سلفه عمر بن الخطاب ؟

ومن جهة أخرى فإن كل من يطلع على الرسالة التي بعث بها الرسول عليه السلام إلى المنذر بن ساوي يلاحظ أن الحروف فيها خالية من النقط .

وفي هذا الصدد ينقل الدكتور ناصر الدين الأسد [١] عن ابن الجزري عالم القراءات قوله : « ... إن الصحابة رضي الله عنهم لما كتبوا تلك المصاحف جردوها من النقط والشكل ليحتمله ما لم يكن في العرضة الأخيرة مما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم . وإنما أخلوا المصاحف من النقط والشكل لتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوَّين شبيهة بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المعقولين المفهومين » .

ومعنى هذا أن العدول عن نقط الحروف في القرآن في البداية كان مقصودا إليه . وهو في تعليل السبب في هذا العدول يورد ما روي عن ابن مسعود – وهو صحابي جليل ، كان له مصحفه الخاص – من أنه قال : « جردوا القرآن ليربو فيه صغيركم ولا ينأى عنه كبيركم » . ثم أورد شرح الزمخشري لهذه العبارة حيث يقول : « أراد تجريده عن النقط والفواتح والعشور لئلا ينشأ نشء فيرى أنها من القرآن » [٢] .

وإذن فعدم ظهور النقط في القرآن في بادىء الأمر لا يمكن أن يستدل منه على عدم معرفة العرب آنذاك به ، بل لتحرجهم في استخدامه . ونفس

---

(١) مصادر .. ص ٣٥ .

(٢) نفسه .

الشيء يمكن أن يقال بالنسبة لما دون آنذاك من حديث الرسول عليه السلام ورسائله .

ويؤيد هذا المعنى بطريقة غير مباشرة ما ذكره الدكتور حميد الدين [1] من قول ابن الأثير في « أسد الغابة » إن النبي عليه السلام قال : « إذا اختلفتم في الياء والتاء فاكتبوها بالياء » ، وما يعاضده من قول الإمام الداني في « المحكم » رواية عن يحيى بن أبي كثير : « كان القرآن مجردا في المصاحف ، فأول ما أحدثوا فيه النقط على الياء والتاء ، وقالوا : لا بأس به ، هو نور له».

فعبارة « لا بأس به ، هو نور له » تؤكد معنى التحرج سابقا من استخدام النقط فيه ، والتماس تبرير شرعي لنقط الياء والتاء فيه ، على أساس أن هذا النقط لن يلحق بالقرآن منه ضر ، بل سيكون « نورا » له .

(و) على أن الحاجة إلى نقط القرآن نقطاً كاملاً ما لبثت أن صارت ماسة عندما ظهر التصحيف واللحن على ألسنة الناس ، سواء منهم العرب أنفسهم ومن دخلوا في الإسلام من البلاد المفتوحة . عند ذاك ارتفع الحرج نهائياً أمام الخطر الداهم .

أما اللحن فقد تزايد حتى فزع منه أبو الأسود الدؤلي (ت ٦٩ هـ) فنشط — بأمر أو بتفويض من زياد بن أبيه ، والي العراق في خلافة معاوية — في وضع ضوابط للكتابة تعصم من اللحن ، فاهتدى إلى الفتحة ، وكان يكتبها نقطة فوق الحرف بمداد يختلف لونه عن لون مداد الكتابة نفسها ، وإلى الكسرة ، فجعلها نقطة تحت الحرف ، وإلى الضمة ، فجعلها نقطة بين يدي الحرف ، أي على خط استواء الكتابة ، أما التنوين فجعله نقطتين أمام يدي الحرف ، على خط استواء الكتابة كذلك ، وأما السكون فقد أهمله ، وكان

---

(١) صنعة الكتابة .. ص ٢٦/٢٧ .

إهماله في هذه الحالة يدل عليه . وبهذه الطريقة شكل أبو الأسود المصحف كلـــه .

وأما التصحيف فيبدو أنه استمر ، لأن ما صنعه أبو الأسود من ضبط لحركات الحروف لم يكن ليحول دون الوقوع في خطأ التصحيف نتيجة لغياب النقاط من الحروف المتشابهة . وظل الأمر كذلك إلى عهد عبد الملك بن مروان ، فإذا بالحجاج قد « فزع إلى كتابه ، وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المتشابهة علامات ، فيقال إن نصر بن عاصم قام بذلك ، فوضع النقط أفراداً وأزواجاً ، وخالف بين أماكنها بتوقيع بعضها فوق الحروف وبعضها تحت الحروف » . (١)

ومع أن نصرا استخدم لون الحبر نفسه الذي كتبت به الحروف ، لكي تتميز النقاط الدالة على الشكل ، التي وضعها أستاذه أبو الأسود ، عن نقاطه المعجمة للحروف — مع ذلك جاء الوقت الذي أدرك فيه العلماء ما تحدثه هذه الطريقة في الكتابة من إرباك ، وأنه لا بد من الاستعاضة عن نظام أبي الأسود بنظام آخر في الشكل ، فكانت الشرط العلوية والسفلية هي البديل .

ويعزى إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠ هـ) اختراع هذا الشكل الجديد في بواكير القرن الثاني الهجري . ومنذ ذلك التاريخ شاع النقط والشكل بطريقة المحدثين (٢) .

(ز) وعلى الرغم من توصل العلماء إلى نظام محدد للشكل والنقط منذ ذلك العهد ظل كثير من الكتاب — حتى عهد الصولي (ت ٣٣٥ هـ) يهملونهما ، إلا في مواضع قليلة من كتاباتهم ، يحتمل فيها اللبس (٣) .

---

(١) الطاهر أحمد مكي : دراسة في مصادر الأدب ، ص ٦١ .
(٢) إبراهيم جمعة : نفسه ، ص ٢٧٤ .
(٣) انظر الصولي : أدب الكتاب ص ٥٧ .

ويبدو أن هؤلاء الكتاب كانوا يتحاشون الشكل والنقط حتى لا يقال إنهم يسيئون الظن بالقارىء . فإذا كان التحرج في البداية من شكل القرآن وإعجام حروفه له صفة دينية فإن التحرج أخيراً كان له صفة أدبية معنوية . على أنه فيما يتعلق بنقط المصحف وشكله — بخاصة في العهود المتأخرة — فالرأي العام يوجب التزامهما ، لأن في هذا — كما يقول السيوطي — « صيانة له من اللحن والتحريف » [1] .

ومن كل هذا يتضح لنا أن الحروف الكتابية العربية كانت قد أخذت شكلها منذ الجاهلية الثانية على أقل تقدير ، وأن إعجام بعض هذه الحروف ، للتمييز بين متشابهها ، كان معروفاً ومستخدماً في نطاق ضيق منذ صدر الإسلام ، ثم حدث توسع فيه منذ بداية النصف الثاني من القرن الأول الهجري ، مع إضافة نظام الشكل (الفتحة والكسرة والضمة والتنوين) لضبط اللغة وتحاشي اللحن .

فلئن كانت صورة التدوين هي الكتابة ، وكانت الكتابة حروفاً تتضام وتتفرق في الكلمات ، لقد كانت هذه الأداة — أعني الكتابة — مسعفة على التدوين والاستنساخ منذ وقت مبكر ، ثم صارت أكثر إتقاناً ومواتاة منذ أن استقر لها نظام الشكل والإعجام .

٣ — وتبقى المشكلة الثانية ، وهي مشكلة الوسائل التي يصلح التدوين عليها ؛ فكما يقتضي التدوين المعرفة بوسيلة الكتابة ، فإن الكاتب لا يكتب في الهواء ، بل يحتاج إلى ما يكتب به — كالقلم — وما يكتب عليه — كالورق مثلاً . ولا يمكن أن ينشأ تدوين بغير هذه الوسائل . ومن ثم فإن تعرفنا الآن على مدى توافر هذه الوسائل لدى العرب قديماً يساعدنا على تصور حجم ما دونوه . والحاجة أم الاختراع كما يقولون . ولو لم تكن الحاجة قد مست

---

(١) السيوطي : الإتقان — طبعة محمد توفيق بالقاهرة — ط ٢ سنة ١٩٣٥ جـ ٢ ص ١٧١ .

في إلحاح إلى استنباط هذه الوسائل لما وجدناها تتوافر لديهم . ولكن على أيّ نحو توافرت لديهم ؟ .

طبيعي أن الورق في صورته المعروفة لنا اليوم ، وبأنواعه المختلفة ، لم يكن معروفاً لدى العرب . ويقال إن العرب لم يعرفوا الورق إلا في أواخر القرن الثاني الهجري . وهذا الوقت متأخر نسبياً . فماذا كان العرب يستخدمون قبل ذلك لتدوين ما يريدون ؟ أي المواد ؟ ومن أين ؟ .

أما المواد فإن الأخبار المتعلقة بتدوين الصحابة للوحي تحدثنا عن رقاع الجلد التي كان بعضهم يدون فيها ، على اختلاف أنواع هذا الجلد ، رقة وسمكا ، واختلاف لونه ، بياضا واحمرارا ، كما تحدثنا عن عُسُب النخل ، وعن اللخاف (وهي حجارة بيضاء رقيقة تصلح للكتابة عليها) ، وعن عظام الكتف العريضة ، والأضلاع ، والورق ، والقماش .

وإذا نحن تأملنا في هذه المواد بدا لنا أن بعضها يحتاج إلى تصنيع ، كالجلد والورق والعسب والقماش . وربما هدتنا هذه الحقيقة إلى تلمس المصادر التي كان العرب في الجاهلية يحصلون منها على هذه المواد . وفي اعتقادنا أن العرب كانوا يحصلون على هذه المواد من مصدرين : أحدهما خارجي والآخر داخلي :

(أ) ١ — من المعروف أن الشعب الصيني من أقدم شعوب العالم التي عرفت الورق وصناعته ، وربما كان أقدمها . وعرف الورق الصيني قديماً في بلاد الهند وفارس . فاذا كانت هذه البلاد قد عرفت هذا الورق « فليس ثمة ما يمنع أن يعرفه العرب في جاهليتهم » [1] ، وذلك عن طريق التجارة ؛ فقد كان هذا الورق الصيني « يستورده التجار العرب الذين كانوا على اتصال تجاري قديم ببلاد الشرق الأقصى » . [2] ومع ذلك فالشواهد الجاهلية التي تؤكد هذه

---

(١) ناصر الدين الأسد : مصادر .. ص ٨٩ .

(٢) كوركيس عواد : الورق أو الكاغد ؛ صناعته في العصور الإسلامية — مجلة المجمع العلمي بدمشق — مجلد ٢٣ ص ٤١٧ .

الحقيقة قليلة ، وهذا إن دل فإنما يدل على قلة تداول هذا النوع من الورق لدى العرب في ذلك الزمن .

(أ) ٢ – وقد ذكر شعراء الجاهلية كلمة « المهارق » كثيراً في أشعارهم ، وربما وردت لدى الشاعر منهم – كالحارث بن حِلِّزة – أكثر من مرة . وهو يقول في معلقته :

واذكروا حِلف ذي المَجاز وما
قُدِّم فيه ، العهود والكُفَلاءُ

حذر الجور والتعدي وهل
ينقض ما في المهارق الأهواء

فما هذه المهارق ؟ ومن أين جاءت إلى عرب الجاهلية ؟

تتفق المصادر القديمة على أن المهارق – ومفردها مُهْرَق – قماش من الحرير ، كان يطلى أو يسقى بالصمغ ثم يصقل بالخرزة ، ثم يستخدم في الكتابة عليه . وهم يعزون مصدره إلى بلاد الفرس ؛ فكلمة « مهرق » فارسية الأصل وقد عربت . وهي في الأصل الفارسي « مَهر كرد » ، أي صُقل به . وهكذا يدل الاسم نفسه على المصدر .

والواقع أن الشاعر الجاهلي قد عرف هذا المصدر وقرر هذه الحقيقة من قبل ، فقد قال الحارث بن حلزة كذلك :

لمن الديار عَفَوْن بالحُبُسْ آياتها كمهارق الفرس

فهو يقرر أن المهارق صناعة فارسية ، أو أنها – على أقل تقدير – مستجلبة منهم .

ويبدو من كثرة استخدام الشعراء الجاهليين لهذه الكلمة أن هذا النوع من الورق كان كثيراً ومنتشراً . ويبدو أن إنتاج الفرس منه كان من الوفرة

بحيث إنهم كانوا يصدرونه إلى البلاد المجاورة . فيقال إن الروم كانوا يكتبون في الحرير الأبيض [1] .

ومعنى كل هذا أن العرب قد عرفوا منذ جاهليتهم هذا النوع من القماش المصنّع للكتابة عليه ، وأنهم استجلبوه – كغيرهم من الشعوب المجاورة – من بلاد الفرس ، وأنهم كانوا يكتبون عليه العهود والمواثيق وبنود الأحلاف بين القبائل وغيرها ، كحلف ذي المجاز (كما هو واضح من بيتي الحارث) .

(أ) ٣ – وإلى جانب هذين المصدرين الأجنبيين هناك مصدر ثالث أمد العرب بالورق منذ العصر الجاهلي . فقد وردت كلمتا القرطاس والقراطيس في القرآن الكريم [2] . وقبل ذلك وردت في قول الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد يصف ناقته .

وخدٌ كقرطاس الشآمي ومشفر كسِبْت اليماني قده لم يُجَرَّدِ

فما هذا القرطاس ؟

إن كلمة القرطاس أجنبية معربة . ولم يذكر القدامى أصلها ، ولكن المحدثين أرجعوها إلى لفظة Chartes اليونانية ، ومعناها ما يكتب فيه ، ويقابلها في العربية : ورقة وصحيفة [3] . فهل نفهم من هذا أن القراطيس كانت صناعة يونانية تصدر إلى خارج البلاد ؟ الجواب بالسلب ؛ فإن كلمة القراطيس كانت تطلق في كثير من المراجع العربية القديمة على ورق البردى ؛ وهو الورق الذي كان يصنع في جنوب مصر على نطاق واسع ، ويصدر إلى سائر الأقطار ومنها بلاد الروم [4] . ولعله من هنا أطلق عليه اليونان ثم الرومان

---

(١) نفسه ص ٤١١ .

(٢) جاء في سورة الأنعام ، الآية السابعة : « ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس .. » وجاء فيها أيضاً ، في الآية الحادية والتسعين : « .. تجعلونه قراطيس تبدونها ».. ،

(٣) انظر كوركيس عواد : نفسه ، ص ٤١٤ .

(٤) نفسه .

كلمتهم « كارتيز » التي عربت إلى قرطاس . وكذلك كان يطلق على ورق البردى لفظة الطوامير . مفردها طومار . وهي كثيرة الدوران كذلك في المصادر العربية ، وإن كانت في الحقيقة وصفاً لقَطع ورق البردى فصارت اسماً له .

ومن ثم يتضح لنا معنى وصف طرفة لحدناقته بأنه كقرطاس « الشآمي » ؛ إذ أن هذا يوضح لنا حركة انتقال ورق البردى إلى العرب في الجاهلية . فقد كان الرومان يستوردون هذا الورق من مصر ، وكانت أرض الشام امتداداً لإمبراطوريتهم ، ومن الشام كانت قوافل التجارة العربية تحمله ضمن ما تحمل من أرض الشام من بضاعة .

هذه إذن هي أنواع الورق الثلاثة التي نعتقد أن العرب عرفوها منذ العصر الجاهلي وإن استخدموها في نطاق ضيق نسبياً ، لأنها — فيما يبدو — لم تكن متاحة في كل وقت ، بل رهنا بما يجلبه التجار العرب منها من خارج البلاد .

(ب) ١ — وأول مواد الكتابة التي كانت تُنتج داخلياً الأديم » ، وهو الجلد الأحمر المدبوغ . وقد ورد ذكره في قول الشاعر الجاهلي المرقش الأكبر :

الدار وحْشٌ والرسوم كما رقّشَ في ظهر الأديم قلمْ (١)

وكذلك كانوا في أوائل الإسلام يكتبون على الأدم ، كعهد الحيبريين من اليهود ، وككتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى ، وكما كتبت مصاحف القرآن في جلود الظباء .. (٢)

لقد كان القرآن الكريم مدوناً — قبل جمعه — في جلود وعظام وعُسُب

---

(١) الأغاني ١٢٧/٦ .

(٢) انظر كوركيس عواد : نفسه ص ٤١٦ .

وورق وغيرها ، ولكن بعد جمعه أجمع الصحابة . رضي الله عنهم ، على كتابته في « الرّق » – وهو نوع رقيق من الجلد ، يسوى للكتابة عليه – وذلك ، كما يقول القلقشندي [1] ، لطول بقائه ، أو لأنه الموجود عندهم حينئذ ، وأنه – أي القرآن – بقي في الناس على ذلك إلى أن ولي الرشيد الخلافة .

ونحن نرجح أن هذا النوع من الجلد – أي الأديم – كان ينتج محلياً ؛ فقد ذكر رافع بن حديج حديثاً للرسول عليه السلام ثم قال : « وهو مكتوب عندنا في أديم خَوْلاَنِي». [2] وخولان قبيلة في اليمن، ونسبة الأديم إليها يعني أن صناعة جلود الكتابة كانت معروفة في اليمن منذ العصر الجاهلي . ويبدو أنه كان نوعاً متميزاً من الجلود .

(ب) ٢ – وكذلك الأمر بالنسبة لعسب النخل التي كانت تستخدم للكتابة ؛ فقد استخدمت في مرحلة كتابة الوحي أحياناً ، ولكنها كانت مشهورة ومستخدمة لدى العرب في الجاهلية . وقد وردت الإشارة إليها كثيراً في شعر ذلك العصر ، ولكن يهمنا من ذلك كله قول امرىء القيس :

لمن طلل أبصرتُه فشجاني ... كخط الزبور في العسيب اليماني

فكما نسب الحارث المهارق إلى الفرس ، ينسب امرؤ القيس العسيب إلى اليمن .

ومعنى كل هذا أن اليمن – فيما يبدو – كما كانت لها شهرتها في مجال الثياب (البرود اليمانية) وصناعة السيوف (السيوف اليمانية) – كانت معروفة أيضاً بدباغة الجلود وإعداد عسب النخل وتهيئتها جميعاً لكي يكتب عليها .

---

(١) نفسه ص ٤١٧ .

(٢) انظر ناصر الدين الأسد : نفسه ص ٧٨ .

وإذا كان القرآن الكريم قد ظل يكتب – كما رأينا – على الأديم حتى خلافة الرشيد فإن هذا يدلنا على كمية الجلود التي كانت تصنَّع لهذا الغرض .

* * *

وهكذا عرف العرب قبل الإسلام وفي صدره الأول كثيراً من وسائل الكتابة ، منها ما كان يستجلب من الخارج ومنها ما كان ينتج محلياً .

والحق إنهم لم يجدوا وسيلة تصلح الكتابة عليها إلا استخدموها . وقد كانت بعض آيات الوحي مدونة – قبل جمعه – في « أقتاب » (مفردها قتب ، وهو الإكاف الصغير على قدر سنام البعير .) وكان هذا مألوفاً لدى العرب في الجاهلية . ففي حديث أبي الفرج الأصفهاني أن المرقش الأكبر كتب على رحله الأبيات التي أولها :

يا صاحبيّ تلبثا لا تعجـــــــــلا ۔ إن الرواح رهـــين ألا تفعلا

وذكر بقية الأبيات [1] .

هذا بالإضافة إلى عظام الكتف واللخاف [2] وغيرها ، وكلها وسائل أولية تسمح بها البيئة .

٤ – هذه الوسائل الكتابية التي عرفها العرب منذ العصر الجاهلي وفي الصدر الأول من الإسلام يبدو أنها ظلت هي وسائل الناس للتدوين إلى قرب نهاية القرن الثاني الهجري .

فالإمام الشافعي يحدثنا كيف أنه عندما شرع يدون ما يسمعه من العلماء كان يأخذ العظام والأكتاف فيكتب فيها [3] . ولكن ليس معنى هذا أن

---

(١) الأغاني ١٣٠/١٦ .

(٢) أشار إليها ابن النديم في الفهرست ، ص ٣٧ .

(٣) انظر ناصر الدين الأسد : مصادر .. ص ٨٦ .

الوسائل الأخرى الأيسر في التدوين عليها ، وبخاصة الورق ، لم تكن مستخدمة .

فقد أشرنا من قبل إلى البردية التي ترجع إلى عهد عمر بن الخطاب . والحق إن استخدام ورق البردى للكتابة العربية في مصر بصفة خاصة قد بدأ منذ الفتح العربي لمصر ، وأصبحت مدوناته في القرون الثلاثة الأولى للهجرة وثائق على جانب عظيم الأهمية بالنسبة للحياة المدنية في مصر في هذه الحقبة .

وبعد انتهاء زمن الفتوح ، واستقرار الأمور في الدولة الإسلامية، يصبح تداول السلع بين الأقطار الإسلامية ، ومنها الورق ، أمراً طبيعياً . ويبدو أنه كان من الوفرة بحيث صار في متناول من يحتاج إليه بسعر زهيد . فقد روى ابن سعد (١) أن علي بن أبي طالب قام يخطب في أهل الكوفة فقال : من يشتري علماً بدرهم ؟ فاشترى الحارث الأعور صحفاً بدرهم ، ثم جاء بها علياً فكتب له علماً كثيراً .

فمن أين كان الحارث وغيره يشترون هذا الورق بهذا السعر الزهيد ؟

لا بد أن تجارة الورق في ذلك الوقت قد نشطت ، ويقال « إنه كانت لها أسواق أو متاجر خاصة تباع فيها ، ويقوم على بيعها رجال يختصون بهذا الضرب من التجارة ويعرفون به ، ويلقبون بالوراقين » . (٢) وفي سوق الوراقين كانت تتم كذلك عملية استنساخ القرآن الكريم والكتب المختلفة . ومن هذه الأسواق خرج عدد من أعلام الثقافة العربية ، في مقدمتهم الجاحظ .

وقد ظلت القراطيس المصرية تملأ أسواق العراق إلى منتصف القرن الثاني الهجري . يذكر ابن عبدوس الجهشياري أن الخليفة أبا جعفر المنصور ، باني مدينة بغداد ، « وقف على كثرة القراطيس في خزائنه ، فدعا بصالح ، صاحب المصلى ، فقال له : إني أمرت بإخراج حاصل القراطيس من خزائننا

---

(١) انظر الطبقات الكبرى ١٦/٦ .

(٢) ناصر الدين الأسد : مصادر .. ص ١٣٥ .

فوجدته شيئاً كثيراً جداً ، فتول بيعه . وإن لم تعط بكل طومار [1] إلا دانقا [2] ؛ فإن تحصيل ثمنه أصلح منه . قال صالح : وكان الطومار في ذلك الوقت بدرهم ... [3] » وما كان المنصور ليفكر في بيع هذا الورق بسدس ثمنه إلا لأن المخزون منه لديه وفير ، وأن أسواق الوراقين في بغداد ممتلئة منه .

أما أن ثمن الطومار كان درهماً فهذا يذكرنا بالصحف التي اشتراها الحارث من قبل من الكوفة في زمن علي بن أبي طالب بدرهم كذلك ؛ إذ يبدو أنها كانت طومارا ، وأن سعر الطومار — من ثم — ظل ثابتاً منذ عهد علي إلى عهد المنصور ، أو أنه كان في عهدهما هو نفس السعر .

على أن الورق المستخدم للكتابة في ذلك العهد لم يكن كله — فيما يبدو — من قراطيس مصر ؛ « فابن النديم يذكر أنه رأى أوراقاً يحسبها من ورق الصين بخط يحيى بن يعمر . ويحيى بن يعمر توفي في سنة ٩٠ للهجرة » . [4] . وربما كان هذا الورق الصيني مما درج التجار العرب منذ القدم على استجلابه عن طريق الهند أو عن طريق بلاد فارس .

أما صناعة الورق في العراق وما والاها فالراجح أنها بدأت في مدينة سمرقند ، التي فتحها العرب في سنة ٨٧ هـ . وأما متى بدأت هذه الصناعة فيها فتشير المصادر إلى الواقعة التي جرت بين العرب بقيادة زياد بن صالح وبين أمراء الترك وحلفائهم الصينيين على ضفاف نهر طراز سنة ١٣٤ هـ . وكيف أن زياداً عاد إلى سمرقند بسبي من الصينيين ، كان فيهم من يعرف

---

(١) كان طول الطومار ثلاثين ذراعاً وأكثر في عرض شبر . (انظر كوركيس عواد : نفسه ص ٤١٢) .

(٢) الدانق : سدس الدرهم .

(٣) انظر كوركيس عواد : نفسه ص ٤١٤ .

(٤) ناصر الدين الأسد : نفسه ص ٩٨ .

صنعة الكاغد (الورق) فاتخذها ، ثم كثرت حتى صارت متجراً لأهل سمرقند ، فمنها يحمل إلى سائر البلاد [١] .

وقد أصبح هذا الكاغد (الورق) معروفاً على نطاق واسع في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠ هـ — ١٩٣ هـ) ؛ فقد « أمر أن لا يكتب الناس إلا في الكاغد ؛ لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة فتقبل التزوير ، بخلاف الورق .. » [٢]

ويبدو أن صناعة هذا النوع من الورق (الكاغد) الذي تستخدم في صناعته ألياف الكتان ، كانت قد انتقلت في عهد الرشيد إلى بغداد كذلك ؛ « فالفضل بن يحيى البرمكي ، وهو من أعيان وزراء بني العباس ، كان أنشأ أول معمل لصنع الورق في بغداد » . [٣]

وهكذا ظلت القراطيس المصرية تملأ الأسواق وتستخدم في الكتابة على نطاق واسع منذ عهد معاوية بن أبي سفيان إلى ما بعد عهد المنصور العباسي ، إلى أن حل الكاغد السمرقندي ثم البغدادي محلها — لصفاته الجيدة الخاصة — فغمر إنتاجه الأسواق .

* * *

خاتمة :

من كل ما سبق يتضح لنا أن هناك توازياً ملموساً بين حركة التدوين لدى العرب منذ عصر ما قبل الإسلام ، وحجم المدونات التي أنجزت ، وتوافر الوسائل الصالحة للتدوين فيها . إنها كذلك عناصر متكاملة ، يؤثر غياب عنصر

---

(١) انظر كوركيس عواد : نفسه ص ٤١٨ .
(٢) نفسه ص ٤٢٧ .
(٣) نفسه ص ٤٢٦ .

منها أو النقص فيه على العنصرين الآخرين . ومن ثم يمكننا أن نقول إنها نشأت . وتطورت ، ونمت ، بمعدل واحد ، واستجابة لمطالب الحياة العربية والإسلامية في خطها النامي الصاعد من الجاهلية إلى زمن العباسيين .

ولكن ينبغي لنا — قبل أن نختم هذا التمهيد — أن ننبه إلى حقيقة أن حركة التدوين هذه قد ظلت إلى نهاية القرن الثالث الهجري مصاحبة للرواية الشفوية . ولا شك في أن الاعتماد على الرواية في بادىء الأمر كان أكثر ، ثم نشطت حركة التدوين حتى صارت معادلة للرواية . وهي المرحلة التي برزت فيها ظاهرة « السماع » ، ثم غلب التدوين في المرحلة الثالثة ، وهي المرحلة التي كانت فيها المعارف والعلوم العربية قد تأصلت واتسع نطاقها ونشط التأليف فيهـــا .

أما ظاهرة « السماع » فقد كانت تعني أن يقرأ التلميذ على أستاذه ما دونه من كلامه ، فإن أقره الأستاذ كان من حق التلميذ أن يروي هذا الذي دونه منسوباً إلى الأستاذ . والهدف من هذه العملية هو توثيق المادة أو المعلومات التي دونها .

ويذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى أن خلف بن حيان (ت ١٨٠ هـ) . تلميذ مؤسس مدرسة البصرة أبي عمرو بن العلاء ، كان « أول من أحدث السماع في البصرة ، وقرأ عليه أهل الكوفة أشعارهم » . [١] والحق إنه لم يكن أولاً في هذا التقليد، فإن ظاهرة القراءة سماعاً على الشيخ قد بدأت منذ وقت مبكر ، منذ زمن الصحابة على أقل تقدير . فقد قال بشير بن نهيك : « أتيت أبا هريرة بكتابي الذي كتبته فقرأته عليه ، فقلت : هذا سمعته منك ؟ قال : نعم » . [٢] وهو في هذا يأخذ التصريح له برواية ما هو مدون لديه عن أبي هريرة .

---

(١) الطاهر أحمد مكي : دراسة في مصادر الأدب ، ص ٢٩

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ١٤/٧ .

ومن ثم يمكننا أن نقول إن السماع ، أي التدوين ثم القراءة على الأستاذ ثم الرواية ، كان أسلوباً حرص عليه الآخذون سبيل العلم منذ وقت مبكر . وظلوا ملتزمين به حقبة طويلة من الزمن . وكان الهدف الأساسي من هذه العملية هو إسناد المادة وتوثيقها ؛ لأن مجرد نقل المادة من كتاب إلى كتاب دون هذا التوثيق إنما يعرضها للتحريف والتصحيف . أما الرواية عن طريق السماع فهي الجديرة بأن يوثق فيها . ومن ثم قال ابن سلام : « وليس لأحد ... أن يقبل من صحيفة ولا يروي عن صحفي » . [1]

وابن سلام في هذا الموقف إنما كان يواجه تياراً بين بعض الآخذين في العلم ، كان قد أخذ يتفشى في الحياة الثقافية ، وهو الاكتفاء بتحصيل المعرفة تدويناً دون سماع ، أي دون رواية وإسناد . وهو يشجب هذا الاتجاه . ويحذر من تحصيل المعرفة عن هذا الطريق .

وإذا كان ابن سلام في القرن الثالث الهجري (ت ٢٣١ هـ) ما زال حريصاً على تأكيد أهمية الرواية المسندة فإن هذا يطمئننا إلى قيمة المصادر الأدبية واللغوية التي خلفتها لنا الأجيال المتعاقبة من علماء المسلمين . والتي نحن بصدد التعرف على أهمها في هذا الكتاب .

---

(١) ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء — دار المعارف بمصر — ص ٥ — ٦ .

البـــــاب الأول

فى المصـــــادر الأدبيــــــة

تمهيد :

حين نقول « المصادر الأدبية » فإن هذا يقتضينا الوقوف عند هذه التسمية وقفة قصيرة لكي نرى ما يمكن أن يكون هناك من فوارق بين مصطلح « المصادر » والمصطلح الآخر الذي يكثر استخدامه كذلك ، وهو مصطلح « المراجع » .

فمن الدارسين من يرى أن المصدر « هو كل كتاب تناول موضوعاً وعالجه معالجة شاملة عميقة . أو هو كل كتاب يبحث في علم من العلوم على وجه الشمول والتعمق ، بحيث يصبح أصلا لا يمكن لباحث في ذلك العلم الاستغناء عنه ، كالجامع الصحيح للبخاري ، وصحيح مسلم ، هما أصلان ومصدران في الحديث النبوي ، بينما تعد كتب الأحاديث المختارة . كالأربعين النووية ، من المراجع في ذلك . وككتاب الكامل للمبرد ، وصبح الأعشى للقلقشندي ؛ فهي أصول ومصادر في الأدب ، وغيرها مما أخذ عنها مرجع . ومثل هذا نقول في تاريخ الطبري وسيرة ابن هشام ، كلها أصول ومصادر في بابها ، وما اقتبس أو استمد منها مرجع في بابه » . [1]

ومعنى هذا أن المصدر يحتوي على المادة الأصيلة ، والمرجع هو الكتاب

---

(١) محمد عجاج الخطيب : المكتبة والبحث والمصادر ، ص ١٢٢ .

الذي رجع فيه صاحبه إلى هذه المادة في مصدرها وأفاد منها .

وباحث آخر يؤكد معنى المصدر هذا حين يقول : « فالمصدر أصدق ما يكون حين يطلق على الآثار التي تضم نصوصاً أدبية ، شعراً أو نثراً ، لكاتب واحد أو مجموعة من الكتاب ، لشاعر فرد أو لطبقة من الشعراء ، أو لخليط من كتاب وشعراء وخطباء ، رُويت هذه الآثار شفاها ، أو دونت في كتب ، أو نقشت على الأبنية ، ووصلتنا دون تعليق على النص أو تفسير له ، دون تمهيد له أو تعليق عليه » .[1]

أما المرجع عند هذا الدارس « فهو ما يساعد على فهم النص الأدبي وتوضيحه وتفسيره وتقويمه » .[2]

ومع أن الحدود بين المصدر والمرجع تبدو — على هذا النحو — واضحة وحاسمة فإن هناك حالات يصعب فيها تقرير ما إذا كان الكتاب مصدراً أم مرجعاً .

فكتب الطبقات ومعاجم اللغة تعد — عند علماء المكتبات — من المراجع[3] ، في حين تحتوي هذه الكتب على كثير من المادة الأصيلة . فهل هي مراجع ومصادر في وقت واحد ؟ .

ومن جهة أخرى فإن كتاباً مثل شرح ديوان الحماسة للمرزوقي يتضمن ديوان الحماسة الذي صنفه أبو تمام — وهو مادة أصيلة — وشرح المرزوقي ، وهو بمثابة تفسير لهذه المادة . فهل يعد هذا الكتاب مصدراً أم مرجعاً ، أم مصدراً ومرجعاً معاً ؟ .

---

(١) الطاهر أحمد مكي : دراسة في مصادر الأدب ، ص ١٠٢ .

(٢) نفسه ، ص ١٠٤ .

(٣) انظر عبد المنعم محمد عمر : المدخل للدراسات العربية — نسخة على الآلة الكاتبة ١٩٦٧ ، ص ٣ .

هنا نجد الفصل صعباً بين ما هو مصدر وما هو مرجع . ولعل هذا هو السبب في أن بعض الكتاب لا يفرق بينهما . ولكن هذا تبسيط مخل وتَسَهُّل في الأمور .

ومن جهة أخرى نجد محاولة لحل هذا الإشكال عن طريق استخدام مصطلح إضافي . فبالنسبة للمعاجم ودوائر المعارف وكتب الطبقات وكتب التراجم وما أشبه يطلق عليها مصطلح « المراجع العامة » ، في مقابل المراجع الخاصة التي يتصل كل منها بفرع بعينه من المعرفة ، أو بموضوع بعينه لا يعدوه إلى سواه . ومن ثم يعد كتاب ككتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني مرجعاً عاماً ، في حين يعد كتاب ككتاب « شعر الغناء في المدينة » للدكتور شوقي ضيف مرجعاً خاصاً .

وهناك أيضاً « المراجع الأصيلة » ، ويقصد بها تلك المؤلفات التي كتبت حول مصدر من المصادر في الزمن الذي صُنف فيه هذا المصدر أو في زمن قريب منه . ومن ثم يصبح شرح المرزوقي لحماسة أبي تمام ، أو شرح الأنباري لمفضليات الضبي ، مرجعاً أصيلاً لفهم هذه الأشعار ، وهذا في مقابل ما يسمى بالمرجع المساعد ، وهو المرجع الذي لا يتصل أصلا بمادة المصدر ولكنه يمكن الإفادة منه بطريقة غير مباشرة في إلقاء الضوء عليها .

وقد تصنف المراجع تصنيفاً آخر وفقاً لقدمها وحداثتها ، فيقال مرجع قديم ومرجع حديث . والمرجع الحديث يفيد غالباً من المرجع القديم . فكتاب « الكامل » للمبرد مرجع قديم في أدب الخوارج وغيره ، في حين أن كتاب « أدب الخوارج » للدكتورة سهير القلماوي مرجع حديث .

أما بالنسبة للمصادر فإنها تصنف كذلك في نوعين متمايزين ، دون أي اعتبار للقدم والحداثة ، هما المصادر الأساسية والمصادر المساعدة .

فالمصادر الأساسية « هي التي استهدف بها أصحابها الجانب الأدبي بدءاً » . وأما المصادر المساعدة فهي التي « تتمثل في نصوص أدبية وهامة ، مبثوثة في

مظانّ غير أدبية ، من المعاجم وكتب النحو واللغة أو الجغرافيا والتاريخ »[1].

وهكذا نحصل أخيراً على المصطلحات التالية : المراجع العامة — المراجع الخاصة — المراجع الأصيلة — المراجع المساعدة — المراجع القديمة — المراجع الحديثة ، ثم المصادر الأساسية والمصادر المساعدة .

ولكن هل حلت هذه المصطلحات الإشكال ؟

كلا ، فإن كتب المعاجم — مثلا — التي عدت في مرة « مراجع عامة » قد عدت من زاوية أخرى « مصادر مساعدة » . ولا يستقيم أن يكون هناك « مصطلحان » مترادفان .

وفي رأيي أن كل دارس يستطيع أن يحدد مصادره ومراجعه في كل حالة وفقاً لطبيعة دراسته ولمنهجه في هذه الدراسة . وعند هذا يصبح كل كتاب يمده بالمادة الأولية — أي مادة الدراسة — « مصدراً » ، وكل كتاب يلقي أضواء على هذه المادة ، أو يقول فيها رأياً ، فهو — بالنسبة إليه — « مرجع » .

ولنضرب مثالاً لهذا . فالدارس الذي يريد أن يدرس شعر ابن الرومي — مثلاً — يكون ديوان الشاعر وما اتصل بحياته من أخبار « مصدرا » له ، في حين يكون كتاب ككتاب « ابن الرومي ، حياته من شعره » للأستاذ عباس محمود العقاد « مرجعاً » . ولكن هب أن موضوع هذه الدراسة هو « الدراسات الأدبية في كتابات العقاد » فإن كتاب « ابن الرومي ، حياته من شعره » يصبح « مصدراً » من مصادر هذه الدراسة ، وتصبح هذه الدراسة نفسها — فيما بعد — « مرجعاً » .

وعلى هذا الأساس تكون تسميتنا للكتب التي سنعرض لها في هذا الكتاب بالمصادر لها ما يبررها .

---

(١) الطاهر أحمد مكي : نفسه ص ١٠٣ .

الفصل الأول

ديوان الشعر العربى

« ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله،

ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير »

أبو عمرو بن العلاء

تمهيـــد :

١ ـ اتصال رواية الشعر من الجاهلية إلى أوائل القرن الثاني الهجري :

(أ) أدرك العرب منذ العصر الجاهلي ، وفي إطار النظام القبلي ، قيمة الشعر والشاعر في حياتهم ، ومن ثم كان احتفالهم بنبوغ شاعر منهم ، وحرصهم على حفظ شعره وروايته جيلاً بعد جيل ، لا يملون من هذا ولا يسأمون .

ومن الامثلة على هذا ما ذكر في شأن بني تغلب من أنهم كانوا شديدي الولع برائعة شاعرهم عمرو بن كلثوم التي أدرجت فيما بعد ضمن المعلقات ، فكانوا جميعاً يحفظونها ويتغنون بها جيلاً بعد آخر ، يستوي في هذا صغارهم وكبارهم . وقد سجل أحد شعراء بكر بن وائل هذه الظاهرة وهو بصدد هجاء بني تغلب حين قال :

ألْهَى بني تغلبٍ عن كـــل مكرمة
قصيدةٌ قالها عمرو بـــن كُلثـومِ
يروونها أبداً مـــذ كان أولُهــــم
يا لَلرِّجال لشعر غيـــر مسئـوم ! [1] ..

---

(١) انظر الأغاني ٥٤/١١ .

(ب) ومع عناية القبيلة كلها بشعر شاعرها كان لكل شاعر راوية خاص. وهو تقليد ظل مستمراً إلى عهد جرير والفرزدق في العصر الأموي. وهذا الراوي إما أن يكون مجرد راوٍ وإما أن يكون راوياً وشاعراً في الوقت نفسه. وقد اتصلت حلقات سلسلة الرواة الشعراء من الجاهلية إلى عصر بني أمية.

كان زهير بن أبي سلمى راوية أوس بن حجر، وهما جاهليان. وكان الحطيئة – وهو شاعر مخضرم – راوية زهير، وكان هدبة بن خشرم راوية الحطيئة، وكان جميل راوية هدبة، وكُثَيِّر راوية جميل، والسائب السدوسي راوية كثير ...

(ج) وكانت معرفة الشعراء في العصر الأموي بتراث الشعراء الجاهليين والمخضرمين واسعة، كالطِّرِمَّاح بن حكيم، والكُمَيْت بن زيد، ورؤبة بن العجاج، وذي الرمة، وجرير، والفرزدق. والروايات التي تتصل بأخبار هؤلاء الشعراء تؤكد أنهم كانوا يحفظون قدراً كبيراً من هذه الأشعار القديمة. وقد ذكر الفرزدق في قصيدة له عدداً كبيراً من قدامى الشعراء الذين يدين لهم بالفضل، والذين كانت أشعارهم معروفة له، ومنها قوله:

وهب القصائد لي النوابغُ إذ مضـوا
وأبو يزيـــد وذو القـروح وجَرْوَل

فهو في هذا البيت وحده يشير إلى النوابغ الثلاثة: النابغة الذبياني، والنابغة الجعدي، والنابغة الشيباني، كما يذكر المُخَبَّل السعدي (أبو يزيد) وامرأ القيس (ذو القروح) والحطيئة (جرول).

وعن هؤلاء الشعراء الرواة في العصر الأموي أخذت الطبقتان الأولى والثانية من رواة الشعر العلماء كثيراً من الأشعار الجاهلية والمخضرمة.

(د) وحين نقول إن هؤلاء الرواة أخذوا عن هؤلاء الشعراء كثيراً من الشعر الجاهلي والمخضرم نتذكر كذلك أنهم كانوا يجمعون الشعر من مصدر

آخر هو البادية . فقد درجوا على الخروج إلى البادية وملاقاة الأعراب . وسماع ما يرويه هؤلاء من أخبار وأشعار . وفي كثير من الحالات كان الأعراب أنفسهم يفدون على البصرة أو الكوفة فيتلقفهم هؤلاء الرواة العلماء ، يسألونهم عن شعر شاعر أو نسبة قصيدة من القصائد أو معنى كلمة .

(هـ) ونتيجة هذا كله تكونت لدى هؤلاء الرواة العلماء خبرة واسعة بالشعر القديم ،، سواء في هذا شعر الشعراء الأفراد أو شعر القبائل ،وبلغ محفوظهم من هذا الشعر — وفقاً لما تقوله الروايات القديمة — حداً مذهلاً .

كان الوليد بن يزيد قد طلب من واليه على الكوفة أن يرسل إليه حمادا الراوية فأنفذه إليه ، فسأله الوليد : أنت حماد الراوية ؟ فأجابه بقوله : إن الناس ليقولون ذلك . قال : فما بلغ من روايتك ؟ فأجاب حماد : أروي سبعمائة قصيدة ، أول كل منها : بانت سعاد . فقال الوليد : إنها لرواية ! (١)

وفي مرة أخرى سأل الوليد حماداً : لم سميت الراوية ؟ .وما بلغ من حفظك حتى استحققت هذا الاسم ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين ، إن كلام العرب يجري على ثمانية وعشرين حرفاً ، أنا أنشدك على كل حرف منها مائة قصيدة . فقال : إن هذا لحفظ ! هات ! فاندفع ينشده حتى مل الوليد ، ثم استخلف على الاستماع منه خليفة حتى وفاه ما قال ، فأحسن الوليد صلته وصرفه (٢) .

وقال الأصمعي : كل شيء في أيدينا من شعر امرىء القيس فهو عن حماد الراوية ، إلا نتفا سمعتها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء (٣) .

---

(١) انظر الأغاني ٩٢/٦ .

(٢) نفسه ٩٢/٦ .

(٣) نقل الخبر ناصر الدين الأسد : نفسه ص ٤٤٠ .

والأصمعي نفسه كان كثير الحفظ [1] ، كثير الرواية . ويذكر ابن عبد ربه أن أبا ضمضم الراوية كان يروي أشعاراً لمائة شاعر كل منهم اسمه عمرو [2] . وينقل جورجي زيدان خبراً يقول إن أبا تمام الشاعر كان يحفظ من أشعار العرب الجاهلية أربعة عشر ألف أرجوزة [3]

ومعنى كل هذا — على الرغم مما قد يبدو لنا من مبالغة في حجم هذه المرويات — أن قدراً هائلاً من الشعر في الجاهلية وصدر الإسلام قد اتصلت به حلقات الرواية حتى صبت في معين أولئك الرواة العلماء . ومع هذا فإن أبا عمرو بن العلاء — شيخ هؤلاء الرواة بلا منازع — يقرر أنه ما انتهى إليهم حينذاك من الشعر إلا أقله ، على الرغم من الجهود المضنية التي بذلوها في جمع ذلك الشعر وتدوينه .

٢ — صناعة دواوين القبائل ودواوين الشعراء القدامى .

بعد عملية جمع الشعر الواسعة النطاق ، التي قام بها الجيل الأول من الرواة العلماء وتلاميذهم المباشرون ، اتجهت عملية تصنيف هذا الشعر في ثلاثة اتجاهات . وكانت هذه الاتجاهات متعاصرة منذ البداية ، وكانت في الوقت نفسه يكمل بعضها بعضاً . وتتمثل هذه الاتجاهات على النحو التالي :

١ — صناعة دواوين الشعراء من الجاهليين والإسلاميين .

٢ — صناعة دواوين القبائل .

---

(١) روى عنه عمر بن شبة أنه قال : أحفظ ست عشرة ألف أرجوزة (انظر الأصمعيات ، ط ٢ ، دار المعارف ص ١١) .

(٢) العقد الفريد ١٣٥/٣ .

(٣) انظر : تاريخ التمدن الإسلامي ٢٩/٣ .

٣ ـ اختيار أروع ما تضمنه هذا الشعر من القصائد والمقطعات .

ولتفصل الحديث في هذا بعض التفصيل .

(أ) إن اتصال رواية الشعر من العصر الجاهلي إلى عهد بني أمية عن طريق الشعراء الرواة قد هيأ للرواة العلماء في أواخر هذا العهد وفي الصدر الأول للعصر العباسي الوقوف على معظم ما أنشده كبار الشعراء في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام . هذا بالإضافة إلى ما استقوه من أعراب البادية الرواة وبخاصة المعمّرين منهم ، ثم ما كان بين أيديهم من مدونات مفرقة أو مجموعة من هذا الشعر .

وعن هذه المصادر جميعاً تجمع لديهم شعر امرىء القيس وزهير بن أبي سلمى وطرفة والنابغة الذبياني وعبيد بن الأبرص ودريد بن الصمة ولبيد وعلقمة الفحل وعنترة وحسان بن ثابت والحطيئة وكعب بن زهير وأضرابهم . ومن هذا الشعر صنفوا دواوين هؤلاء الشعراء . ولما كان هؤلاء الرواة العلماء موزعين على مدرستي الكوفة والبصرة فقد كان طبيعياً أن يظهر بعض الاختلاف فيما يصنفه كل فريق من شعر الشاعر في ديوانه . وهو آخر الأمر اختلاف يسير ، مرجعه إلى اختلاف المصادر التي استقوا منها هذه الأشعار . وقد استطاعت الأجيال اللاحقة من علماء الشعر ، الذين كونوا مدرسة بغداد ، والذين أخذوا عن المدرستين السابقتين على السواء ، أن يمحصوا هذه الروايات ، وأن يصنفوا ديوان كل شاعر تصنيفاً موثقاً ودقيقاً. وأبرز من نهض منهم بهذا العبء هو ـ بلا منازع ـ أبو سعيد السكري (ت ٢٧٥ هـ) . ولا ينتهي القرن الخامس الهجري حتى تكون هذه الدواوين أو أغلبيتها قد شرحت ، وفي بعض الأحيان أكثر من شرح .

(ب) أما فيما يتعلق بدواوين القبائل فقد كانت الروافد التي رفدت الجيل الأول من الرواة العلماء بأشعار أفراد الشعراء هي نفسها التي وفرت بين أيديهم أشعار القبائل . وربما كان تفكيرهم في جمع أشعار كل قبيلة على حدة قد

وجههم إليه ما كان شائعاً ومتداولاً باسم كتاب القبيلة . فقد عرفنا من قبل أن كل قبيلة كان لها منذ العصر الجاهلي كتاب تئول إليه ، يضم أخبارها ووقائعها ومبدعات شعرائها ، وهو رصيدها عند التباهي والتفاخر . ومن ثم عرف هؤلاء الرواة العلماء هذا الإطار من التصنيف ، أعني جمع أشعار كل قبيلة على حدة في كتاب . ولا شك في أن هذا الطراز من التصنيف كانت له فائدة علمية خاصة من الناحية اللغوية الصرف ، حيث تتضح من خلاله سمات اللغة لدى كل قبيلة ، وآثار لهجتها الخاصة ، وهو الأمر الذي اهتم له علماء اللغة في المحل الأول .

وإلى جانب كتب القبائل هذه كانت هناك محاولات تدوين الشعر العربي جملة ، كالذي سبق أن أشرنا إليه من تكليف الوليد بن يزيد حمادا الراوية بإنجاز هذه المهمة . وهذا كله بالإضافة إلى الروايات الشفوية التي استوعبها الجيل الأول من هؤلاء الرواة العلماء عن طريق أعراب البادية الرواة ، والتي كانوا يوثقون بها ما بين أيديهم من روايات .

ولقد كثرت الأخبار عن المجاميع الشعرية التي صنف فيها هؤلاء الرواة العلماء أشعار كل قبيلة على حدة ، أو أشعار عدد من القبائل مجتمعة . وربما كان أبرز من نهضوا بهذا العبء أبو عمرو الشيباني وأبو سعيد السكري . فابن النديم يروي أن أبا عمرو جمع أشعار نيف وثمانين قبيلة ، وجعل لكل قبيلة مجموعاً مستقلا . وكذلك ذكر ابن النديم أسماء خمسة وعشرين ديواناً من دواوين القبائل ، من صنعة أبي سعيد السكري [1] .

ومع أن هذه الدواوين لم تستوعب كل ما قاله شعراء كل قبيلة فإنها بالتأكيد قد استوعبت قدراً كبيراً منه . ولكن الشيء الذي يؤسف له حقاً أنه لم يصلنا من هذه الدواوين جميعاً سوى ديوان واحد ، هو ديوان هذيل .

---

(١) الفهرست ص ٢٣٢ .

وهو يضم ما يقرب من ثلاثة آلاف بيت من الشعر مما قاله الشعراء الهُذليون . فإذا عرفنا أن شعراء هذه القبيلة المعروفين قد قاربوا الأربعين اتضح لنا أن هذا المجموع الشعري لا يمثل كل ما قاله أولئك الشعراء ، وأنه لا يعدو أن يكون نماذج من أشعارهم .

ونلاحظ هنا أن عالماً مثل السكري كان يصنع دواوين القبائل كما كان يصنع دواوين أفراد الشعراء سواء بسواء . وهو في كل ما يصنع يؤلف بين روايات الجيل الأول ، جيل المفضل والأصمعي وأبي عمرو الشيباني وابن الأعرابي ، عبر شيوخه المباشرين أمثال ابن حبيب والرياشي ومحمد بن الحسن الأحول . ومن ثم كانت رواياته موثوقاً بها ، لاتصال الإسناد فيها إلى شيوخ الأدب الأوائل .

٣ ــ الأشعار المختارة :

إلى جانب دواوين الشعراء ودواوين القبائل ظهر نوع من تصنيف الشعر يختلف من حيث المنهج والغاية عن هذه الدواوين جميعاً ، ونعني به الأشعار المختارة . فإذا كان ديوان الشاعر يقتضي تقصي كل أشعاره ،وكان ديوان القبيلة يقتضي جمع ما قاله شعراؤها ، فإن الأشعار المختارة لا ترتبط بهذا التقصي لشعر شاعر أو شعر قبيلة ، إذ يصدر فيها جامعها ومختارها عن مبدأ اساسي هو أن تكون قصائدها ــ من وجهة نظره على أقل تقدير ــ طرازاً عالياً من الشعر ، أو مصورة للمثل الأعلى الشعري في بابها . وكذلك لم تكن الغاية منها جمع الشعر وحصره ، بل كانت ــ في الغالب ــ تنتخب مما هو مجموع ومدون . ولما كان هذا المجموع المدون منذ البداية هو أشعار الجاهليين والإسلاميين كان طبيعياً أن تكون تلك المختارات محددة بهذا الإطار .

(أ) وفي وسعنا أن نعد « المعلقات » أول محاولة في هذا الصدد . وهي

مجموعة من القصائد الجاهلية تتراوح بين سبع وعشر .

ولكن من أين جاءت هذه التسمية ؟ ومنذا الذي اختار هذه القصائد ؟

أما التسمية فلعلها لم ترد لأول مرة الا في جمهرة أشعار العرب(١) لأبي زيد القرشي (حوالي منتصف القرن الثالث الهجري) . ثم وردت الإشارة إليها بعد ذلك بحوالي قرن عندما حاول ابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ) أن يقدم شرحاً لهذه التسمية فذهب إلى أن العرب في الجاهلية قد عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها وكتبتها بماء الذهب وعلقتها في أستار الكعبة (٢) . ومن ثم كانت هذه القصائد تسمى كذلك بالمُذْهبات ، إشارة إلى كتابتها بماء الذهب . ولكن أبا جعفر ابن النحاس (ت ٣٣٨ هـ) أنكر أن يكون سبب تسميتها بالمعلقات أنها كانت معلقة بأستار الكعبة . وهو لذلك يسميها بالسبع الطوال ، ويذكر أن حمادا الراوية هو الذي جمعها (٣) .

ونحن أميل إلى الأخذ برأي أبي جعفر في أن حمادا هو الذي اختارها وألف بينها ، وأنه سماها بالطوال إشارة إلى الأساس الذي تم عليه الاختيار ، وهو أن هذه القصائد أطول ما قالته العرب في الجاهلية . فالطول إذن — مع الجودة بلا شك — كان مدار هذا الاختيار . أما تسميتها بالمعلقات ، التي ظهرت عند أبي زيد القرشي لأول مرة ، فتسمية فنية — على نحو ما سنرى — لا علاقة لها بأمر التعليق على أستار الكعبة . وهي تسمية من اجتهاده ، مثلما اجتهد في تسمية غيرها من مجاميع القصائد التي ضمتها جمهرته .

ومن جهة أخرى فإن المتفق عليه أن حمادا لم يختر سوى خمس قصائد .

---

(١) سندرس هذه المجموعة فيما بعد .

(٢) انظر العقد الفريد ١١٦/٣ .

(٣) انظر ياقوت : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب — ط القاهرة بتحقيق مرجليوث — جـ ٤ ص ١٤٠ .

هي قصائد امرىء القيس وطرفة وزهير ولبيد وعمرو بن كلثوم ، ثم أضيفت إليها قصيدتا عنترة العبسي والحارث بن حلِّزة . أما المفضل الضبي فقد جعل مكان هاتين القصيدتين قصيدتين أخرين للنابغة والأعشى ، لكن قصيدتيهما ما لبثتا أن صارتا ترويان مع السبع السابقة فصارت جميعاً تسع قصائد . وأخيراً أضيف إليها قصيدة لعبيد بن الأبرص فصارت عشرا .

ومن هذا الاختلاف في عدد القصائد ، وتصاعد عددها من خمس إلى عشر ، يمكننا أن نخرج بالحقيقة التالية ، وهي أن اختيار هذه القصائد لم يتم في العصر الجاهلي ، وأن الذي بدأ عملية الاختيار هذه — على الأرجح — هو حماد الراوية .

وفي عهد الشروح ، ابتداء من القرن الرابع الهجري ، وهو العهد الذي كانت المادة الأصلية فيه قد دونت وصنفت جميعاً ، ظفرت المعلقات بعناية كبيرة من الشراح . ولعل أبرز من شرحوا المعلقات أبو بكر بن الأنباري (ت٣٢٨ هـ) وابن النحاس (ت٣٣٨هـ) والحسين بن أحمد الزوزني(ت ٤٨٦ هـ) وأبو زكريا يحيى بن علي التبريزي (ت ٥٠٢ هـ) . وشرحا الأخيرين أكثر تداولا بيننا اليوم ، وفيهما كثير من المادة اللغوية والمادة التاريخية المتعلقة بأخبار العرب وأيامها في الجاهلية .

(ب) وإذا كانت هناك آراء مختلفة حول قصة المعلقات فلا خلاف هناك حول المجاميع الشعرية التي تمثل اختيارات خاصة من الشعرين الجاهلي والاسلامي ، والتي بدأت بالمجموعة التي تنسب إلى المفضل الضبي (١١٠ — ١٧٨ هـ) وتعرف باسم « المفضليات » .

ومنذ ذلك الزمن ، وإلى وقتنا الراهن ، ظلت عملية الاختيار تشغل الأدباء والشعراء ، فظهر نتيجة لهذا عدد كبير من المجاميع الشعرية المختارة تحت أسماء مختلفة . وتكتسب هذه المختارات أهميتها من حيث إنها تضع بين أيدي شداة الشعر أروع ما قاله الشعراء القدامى — على الأقل من وجهة نظر هؤلاء الجامعين .

ومن هنا فإنها تعكس لنا ذوق كل منهم ، وإلى حد ما ذوق عصره . ولكن المجاميع المختارة المتقدمة في الزمن تكتسب أهمية خاصة من حيث إنها كانت – في كثير من الحالات – مصادر أصيلة فيما تضمنت من أشعار .

ولم تنحُ هذه المختارات نحواً واحداً في منهج جمعها وفي أسلوب تصنيفها ، حقاً إن بعضها قد يتفق في هذا مع بعض أحياناً ، ولكن حتى بين هذه المجاميع المتفقة بعامة في أسلوب تصنيفها يظل هنالك بعض مظاهر الاختلاف . وفي وسعنا أن نقسم هذه المجاميع من حيث منهجها وأسلوب تصنيفها قسمين رئيسيين : قسماً يعتمد الجودة للاختيار دون الالتزام بأي تصنيف موضوعي ، وقسماً يلتزم منهجاً بعينه في التصنيف ، ويتخذ من الموضوع الشعري دليلاً إلى هذا التصنيف .

وفيما يلي عرض لأشهر المصنفات في هذين القسمين .

القســـم الأول

مختارات بلا تصنيف

١ – المفضليات

(أ) تنسب هذه المختارات إلى المفضل بن محمد بن يَعْلَى بن عامر بن سالم الضبي . وتاريخ ميلاده غير معروف ، وإن كان المرجح أن يكون ميلاده في أواخر العقد الأول من القرن الثاني . أما تاريخ وفاته ففيه خلاف ، إذ تجعله بعض الروايات عام ١٦٨ هـ ، في حين يرجح محققا الكتاب – من استقراء بعض الشواهد – أن وفاته كانت عام ١٧٨ هـ .[1]

والمفضل الضبي من جيل الرواة العلماء الأول . وهو رأس مدرسة الكوفة ، ولكنه ورد كذلك على البصرة فأخذ عنه علماؤها . قال ابن سلام الجُمَحي : « وأعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة المفضل بن محمد الضبي الكوفي » .[2] وكذلك وفد الضبي إلى بغداد في زمن الخليفة العباسي المنصور .

كان راوية عالماً بأخبار العرب وأيامها وأشعارها ولغاتها . وقد أخذ عنه كثيرون من علماء الطبقة الثانية ، وفي مقدمتهم الفرّاء والكسائي وابن الأعرابي ، وإليه ينتهي إسناد كثير من الروايات الشعرية لدواوين الشعراء ودواوين القبائل على السواء .

---

(١) انظر مقدمتهما للمفضليات ، ط ٤ دار المعارف بمصر ، ص ٢٦ .

(٢) طبقات الشعراء ، ط مصر ، ص ١٦ .

(ب) أما كيف اختار المفضل القصائد التي تضمها هذه المجموعة فلذلك قصة .

فقد كان إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب قد خرج في البصرة على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ، وخرج معه كثير من العلماء ، منهم المفضل . ولكن المنصور ظفر بإبراهيم أخيراً ونكل به وبأهله . وكان إبراهيم يتخفى ذات مرة عند المفضل ، وكان المفضل يتركه ويخرج . وفي إحدى المرات كان عليه أن يخرج إلى ضيعة له لبضع أيام فقال له إبراهيم : إنك إذا خرجت ضاق صدري . فأخرج إليّ شيئاً من كتبك أتفرج به . فأخرج المفضل إليه كتباً في الشعر والأخبار يقال إنها كانت ملء قمطرين . فلما عاد وجده قد علّم على سبعين قصيدة اختارها . وكان له ذوق حسن في الشعر . ويبدو أن المفضل استخرج هذه القصائد السبعين ثم زاد عليها عشرا فيما بعد . فإنه عندما ظفر المنصور بإبراهيم ظفر كذلك بالمفضل . ولكنه عفا عنه ، وألزمه ابنه وولي عهده المهدي يؤدبه . وقد قدم المفضل لتلميذه القصائد الثمانين فقرأها هذا عليه ، ثم قرئت هذه القصائد نفسها على المفضل بعد ذلك ونسبت إليه وعرفت باسمه . ثم قرئت هذه القصائد على الأصمعي « فأقرها وزادها قصائد . وزاد في بعض قصائدها أبياتاً . واختار قصائد أُخر . ثم جاء مَنْ بعد الأصمعي وزادوا في القصائد – أصلها ومزيدها – أبياتاً دخلت في روايتي المفضل والأصمعي . حتى اختلطت . فلم يكن ميسوراً أن يجزم جازم بما كان أصلاً وما كان مزيداً . إلا قليلا » . (٣)

(ج) وتضم النشرة العلمية للمفضليات ، التي صدرت طبعتها الأولى عن دار المعـــارف بمصر سنة ١٩٤٢ بتحقيق الأستاذين أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون – تضم مائة وثلاثين قصيدة . وقد كان المعروف منها إلى

(٣) المفضليات – مقدمة المحققين ، ص ١٣ .

عهد ابن النديم ١٢٨ قصيدة ، قد تزيد وقد تنقص [١] . ومعظم شعراء هذه المجموعة جاهليون ، وقليل منهم مخضرمون ، وأقل منهم إسلاميون . وهناك ستة وعشرون شاعراً لا تضم المجموعة لكل منهم سوى قصيدة واحدة ، وثمانية وعشرون شاعراً وردت لكل منهم قصيدتان،وتسعه شعراء وردت لكل منهم ثلاث قصائد ، وشاعر واحد وردت له أربع قصائد ، هو ربيعة بن مقروم الضبي ، وشاعر واحد وردت له خمس قصائد ، هو المرقش الأصغر ، وشاعر واحد وردت له اثنتا عشرة قصيدة ، هو المرقش الأكبر.

وتضم هذه المجموعة أربعين مقطوعة لا يزيد عدد أبيات كل منها عن عشرة ، وثلاثا وأربعين قصيدة يتراوح عدد أبيات كل منها بين ١١ ، ٢٠ بيتاً ، وإحدى وعشرين قصيدة تتراوح بين ٢١ ، ٣٠ بيتاً ، وعشر قصائد تتراوح بين ٣١ ، ٤٠ بيتاً ، وسبع قصائد تتراوح بين ٤١ ، ٥٠ بيتاً ، وثماني قصائد مطولات ، تتراوح بين ٥١ ، ١٠٨ بيتاً . وأطول قصيدة في هذه المجموعة هي قصيدة سُوَيْد بن أبي كاهل ، وعدتها مائة وثمانية أبيات ، ومطلعها :

بسطتْ رابعــةُ الحبــلَ لنـا فوَصلْنا الحبل منها ما اتّسَعْ

وأقصر مقطعة في هذه المجموعة تقع في بيتين ، وهي للمرقش الأكبر ، وفيها يقول :

أبَأْتُ بثعلبــةَ بــنِ الحُشَا م عمرو بنَ عوف فزال الوهلْ
دماً بدم ، وتعفّــى الكلــومُ ولا ينفع الأوّليــن المَهَلْ

---

(١) انظر الفهرست ص ١٠٢ ونحن نقرأ في طبعة دار المعارف بعد القصيدة السادسة والعشرين بعد المائة : تمت المفضليات وما أدخل خلالها من الزيادات برواية الأنباري الكبير أبي محمد القاسم بن محمد بن بشار ، عن شيوخه أبي عكرمة عامر بن عمران الضبي وغيره . ثم هذه أربع قصائد ملحقات بها وجدت في بعض نسخ المفضليات . (ط ٤ ص ٤٢٩) .

يذكر فيهما أخذه بالثأر لابن عمه ثعلبة الذي قتله المهلهل التغلبي بقتله عمرو بن عوف من بني تغلب .

(د) ومن الواضح أن هذه المجموعة تضم العدد الأكثر من القصائد الكاملة ، بل لعل القصائد الكاملة هو هدفها الأول ، وأن ما ورد فيها من مقطعات لم يكن نتيجة اجتزاء المفضل أجزاء من قصائد كاملة ، فربما كانت المقطعة نفسها هي كل ما قاله الشاعر نفسه في مناسبته ، كما يظهر لنا من بيتي المرقش الأكبر .

وإلى جانب عمد المفضل إلى اختيار القصائد لا نجده يورد للشاعر الواحد أكثر من ثلاث قصائد إلا في النادر . وهذا معناه أنه لم يقيد نفسه بعدد ثابت مما يختاره من كل شاعر ، بل كان يتحرك في شعره بحرية فيختار أفضل ما عنده .

وكذلك لم يحدد المفضل اختياره بالأشعار التي قيلت في موضوع أو مواضيع بعينها ، بل كان طليقاً في هذا الاختيار .

أما ترتيب هذه القصائد في الكتاب فليس في وسعنا أن نستدل عليه على النحو الذي وضعه المفضل ؛ فبعد أن تناولت أيدي الرواة القصائد الثمانين التي كان المفضل قد اختارها بالزيادة فيها والإضافة إليها — على نحو ما صنع الأصمعي بها — أصبح من الصعب القطع بأي القصائد الثمانين هي تلك التي اختارها المفضل . ومحققا الكتاب يقطعان بأنها وإن كانت متضمنة فيه فإنها قطعاً لا ترد في صدره ، ولا ترد مجتمعة (١) . ومن هنا لا يتمثل أمامنا ترتيب بعينه لقصائد الكتاب (٢) ، وربما لم يفكر المفضل نفسه — وقد عرفنا الطريقة التي تم بها

(١) انظر المفضليات ، دار المعارف بمصر ؛ ط ٤ ص ١٤ من مقدمة التحقيق .
(٢) واختلاف الترتيب واضح كذلك في شروح المفضليات . قارن شرح المرزوقي وشرح الأنباري مثلاً .

اختيار هذه القصائد – في شيء من أمر هذا الترتيب .

(هـ) ومع كل هذا فللمفضليات قيمة تاريخية وأدبية كبيرة . ولم يكن رواجها بين الناس في عصر المفضل وفي العصور التالية إلا نتيجة لاستشعار الناس هذه القيمة .

أما من الناحية التاريخية فإنه أول كتاب كبير يضم مختارات من عيون الشعر القديم ، الجاهلي والمخضرم والإسلامي بروايات موثوق بها .

وأما من الناحية الأدبية فإنه تضمن قصائد كاملة كانت تعد أروع ما في الشعر القديم من قصائد ، أي أنها تعكس لنا المثل الشعري الأعلى في التصور والذوق العربي ، إذا جاز لنا أن نعد ذوق المفضل وتصوره ممثلين لذوق وتصور عامين .

على أن تفصيلات هذا التصور ومقومات هذا الذوق قد غابت جميعاً عنا ، حيث اكتفى المفضل ومن أكمل المجموعة على غراره بإثبات المختارات دون تقديم الأسباب التي جعلتهم يفضلون ما فضلوا ، بل دون أدنى تعليق . وكان يكون من كمال هذا العمل لو أن كل قصيدة أتبعت بحكم مفصل يبين وجه تفضيلها واختيارها .

وعلى كل حال فقد كانت هذه المجموعة المختارةفاتحةلمجاميع أخرى تسير على نفس الدرب ، سنعرض لها بعد قليل .

(و) وللأهمية التي بلغتها المفضليات ظفرت في عصر الشروح باهتمام كثير من الشراح . وأول من شرحها أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنباري (ت ٣٠٥ هـ) . وقد حقق هذا الشرح ونشره المستشرق شارل ليال ، وأصدرته مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت سنة ١٩٢٠ على نفقة جامعة أكسفورد . وهناك بعض الإشارات القديمة التي تنسب هذا الشرح إلى ابنه أبي بكر بن الأنباري ، وهو خطأ ؛ فلم تكن وظيفة الابن سوى تحرير ما

صنفه أبوه ، وإضافة بعض الاشارات في بعض الأحيان [1] .

ويلي شرح الأنباري هذا للمفضليات شرح أبي جعفر بن النحاس (ت ٣٣٨ هـ) ثم شرح أبي علي المرزوقي (ت ٤٢١ هـ) . والمرزوقي قليلاً ما يشير إلى من سبقه إلى شرح المفضليات ، ولكن لا مجال للشك في أنه اطلع على شرح الأنباري ، الذي كان قد وضع قبل شرحه بقرن من الزمان [2] .

ويلي هذا الشرح شرحان آخران ، أحدهما لأبي زكريا يحيى التبريزي (ت ٥٠٢) وأبي الفضل الميداني (ت ٥١٨) .

(ز) وقد طبعت المفضليات ست طبعات :

١ ــ طبع الجزء الأول منها لأول مرة في ليبتسج سنة ١٨٨٥ ، وقد أخرجه المستشرق توربكه .

٢ ــ طبعت طبعة تجارية مصر سنة ١٩٠٦ .

٣ ــ طبعت في مصر كاملة في جزئين سنة ١٣٣٤ هـ ــ ١٩١٥ م مع تعليق يسير عليها من أبي بكر بن عمر داغستاني المدني .

٤ ــ طبعة المستشرق ليال ، وقد سبقت الإشارة إليها .

٥ ــ طبعت في مصر كاملة سنة ١٩٤٥ هـ مع شرح موجز لحسن السندوبي .

٦ ــ طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٢ مع تحقيق وشرح موجز للأستاذين أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون .

وقد ذكر الدكتور عمر الدقاق [3] أن الدكتور فخر الدين قباوة الأستاذ بجامعة حلب قد عمد إلى تحقيق شرح المفضليات للخطيب التبريزي معتمداً على نسخة كتبها المؤلف بخطه ، وما يزال هذا التحقيق مخطوطاً .

---

(١) انظر مقدمة ليال لشرح الأنباري للمفضليات ، ص ١٤ .

(٢) انظر مقدمة ليال لشرح الأنباري ، ص ١٦ .

(٣) انظر مصادر التراث العربي ص ٤٥ الهامش .

٢ - الأصمعيات

(أ) الأصمعيات هو الكتاب الذي ينسب إلى الأصمعي أبي سعيد عبد الملك ابن قُرَيب .

وقد ولد الأصمعي في سنة ١٢٢ أو ١٢٣ هـ ، وتوفي بالبصرة ، وقيل بمرو ، في سنة ٢١٦ هـ على الأرجح .

وهو من الرعيل الأول من الرواة العلماء بالبصرة ، غزير المحفوظ والرواية ، عالم بالشعر لا يشق له غبار . وقد سمع من أبي عمرو بن العلاء وحماد الراوية وحماد بن زيد وغيرهم من الرواة العلماء ، كما سمع من الأعراب ومن الشعراء [1] مباشرة . وكذلك روى عنه ابن أخيه عبد الرحمن بن عبدالله بن قريب ، وأبو عُبيد القاسم بن سلاّم ، وأبو الفضل الرياشي ، وأبو حاتم السجستاني وغيرهم . وقد كان من الطبقة الأولى من الرواة العلماء الذين ينتهي عندهم الإسناد في كثير من الأحيان .

والمؤلفات التي تروى للأصمعي — سوى الأصمعيات — كثيرة [2] . وقد طبع منها : كتاب خلق الإنسان ، كتاب خلق الإبل ، كتاب الخيل ، كتاب الشاء . كتاب الوحوش . كتاب الأضداد ، كتاب القلب والإبدال ،

---

(١) راجع « الأصمعيات » دار المعارف ط ٣ ص ٣٢ .

(٢) ذكرها ابن النديم في الفهرست ، ص ٨٨ .

كتاب النبات ، كتاب الدارات ، كتاب النخل والكروم ، كتاب فحولة الشعراء .

(ب) والأصمعيات كتاب على نسق المفضليات ، يضم مختارات من الشعر الجاهلي والمخضرم والإسلامي ، تبلغ اثنين وتسعين قصيدة ومقطعة ، لواحد وسبعين شاعراً ، منهم أربعة وأربعون شاعراً جاهلياً ، وهم الأغلبية ، وأربعة عشر شاعراً مخضرماً ، وستة شعراء إسلاميين وسبعة مجهولون . ومن مجموع هؤلاء الشعراء أربعة وخمسون شاعراً أورد الأصمعي لكل منهم نموذجاً واحداً ، وأربعة عشر شاعراً أورد لكل منهم نموذجين ، وشاعران أورد لكل منهما ثلاث قصائد ، هما عبد الله بن عنمة وعمرو بن معد يكرب ، وشاعر واحد أورد له أربع قصائد هو خُفَاف بن نُدْبة .

ومن القصائد والمقطعات الاثنتين وتسعين التي تضمها الأصمعيات اثنتان وأربعون مقطعة تتراوح الأبيات فيها بين بيتين وعشرة ، وعشرون قصيدة تتراوح الأبيات فيها بين ١١ ، ٢٠ بيتا ، وثماني عشرة قصيدة تتراوح الأبيات فيها بين ٢١ ، ٣٠ بيتاً ، وعشر قصائد تتراوح بين ٣١ ، ٤٠ بيتاً ، وقصيدتان اثنتان إحداهما ٤٣ بيتاً والأخرى ٤٤ بيتاً . ومجموع أبيات الأصمعيات ١٤٤٢ بيتاً ، وهي تزيد قليلاً عن نصف عدد أبيات المفضليات .

وبتحليل هذه الأرقام جميعاً يتضح لنا أن الأصمعي سار على نهج المفضل في الاهتمام بالشعر الجاهلي ، ولكن نسبة عدد المقطعات عنده كبيرة ، هذا فضلا عن أن أطول قصائد الأصمعي لم تتجاوز أربعة وأربعين بيتاً ، في حين نيفت بعض قصائد المفضليات على مائة بيت ، وتجاوز عدد لا بأس به منها خمسين بيتاً .

ولعل هذا كله ما جعل ابن النديم [1] يصف الأصمعيات بأنها ليست

---

(١) الفهرست ، ص ٨٩ .

بالمَرْضية عند العلماء ، معللا ذلك بقلة ما فيها من الغريب ، وباختصار روايتها ..

(ج) وأمام التداخل الكبير بين المفضليات والأصمعيات ، ولأن النسخة الخطية التي طبعت عنها الطبعة الأوربية من الأصمعيات ، وكذلك المخطوطة التي طبعت عنها طبعة دار المعارف بمصر ، ليس بهما إسناد يوضح طريق روايتهما عن الأصمعي — فليس هناك ما يدل على أن الأصمعي قد قصد قصداً إلى تصنيف مجموعة من القصائد يختارها على غرار ما صنع المفضل ، وأنه ما قصد إلا التوسع في مجموعة المفضل .

وأيا كانت الحقيقة فإن الأصمعيات لم تبلغ شهرة المفضليات ، ولم تظفر — في عهد الشروح — باهتمام الشراح مثلما حدث بالنسبة للمفضليات .

على أن الأصمعيات تشترك مع المفضليات في خلوها من أي إشارة إلى أسباب الاختيار ووجه التفضيل لما تضمنت من أشعار .

(د) وقد صدرت للأصمعيات طبعتان : الطبعة الأوربية ، وقد صدرت في مدينة لايبتسج بألمانيا في سنة ١٩٠٢ . بعناية المستشرق الألماني فلهلم ألفارد ، ضمن الجزء الأول من مجموعته الشعرية المسماة « مجموع أشعار العرب » . وقد أُخذت على هذه الطبعة مآخذ تتعلق بأمانة المحقق فيما سمح به لنفسه من تغيير في ترتيب القصائد وحذف بعضها على أساس أنه مكرر في المفضليات .

أما الطبعة الثانية فقد صدرت عن مخطوطة في دار الكتب المصرية ؛ حققها الشيخ أحمد محمد شاكر والأستاذ عبد السلام محمد هارون . وصدرت عن دار المعارف بمصر في سنة ١٩٥٥ . وقد ترجم المحققان لكل شاعر في هذه المجموعة ترجمة موجزة ، وخرّجا شعره ، وشرحا الغريب فيه ، ثم ألحقا بالكتاب عدداً من الفهارس المفيدة ، بخاصة في الطبعة الثانية التي صدرت في سنة ١٩٦٣ .

٣ – جمهرة أشعار العرب

(أ) ينسب هذا الكتاب إلى أبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي . والمعلومات عن هذا الرجل ضئيلة للغاية ؛ فلم يترجم له واحد من كتب الطبقات والرجال ، وأول إشارة إليه إنما وردت في كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣ هـ) .

وقد حاول الدارسون المحدثون أن يستنبطوا ما يحدد الحقبة الزمنية التي عاش فيها ، لكنهم اختلفوا في هذا اختلافاً بيناً . ذكره سليمان البستاني في مقدمة الإلياذة ، وجعل وفاته نحو سنة ١٧٠ هـ [١] . وفي نفس الاتجاه سار بطرس البستاني في كتابه « أدباء العرب في الأعصر العباسية » ، إذ جعله من أهل العصر العباسي الأول [٢] . وكذلك ذهب الدكتور أحمد أمين في كتابه « ضحى الإسلام » [٣] . ويرجح الدكتور عمر الدقاق أن أبا زيد من رجال القرن الثالث [٤] . وقبله كان الدكتور ناصر الدين الأسد قد انتهى – بعد

(١) انظر جمهرة أشعار العرب – دار صادر ببيروت ١٩٦٣ – مقدمة الطبعة ص٥ .

(٢) نفسه .

(٣) انظر عمر الدقاق : مصادر التراث العربي ، ص ١٨٥ .

(٤) نفسه ، وقد ذكر في معجمه للمؤلفين الملحق بالكتاب أن وفاته في سنة ٢٣٠ هـ ولكن بتردد . ومعنى هذا أن يكون القرشي قد توفي قبل ابن الأعرابي بعام ، في حين أنه لم يرو عنه مباشرة .

تحقيقات كثيرة — إلى أن أبا زيد من رجال القرن الرابع [1] .

وكان من الممكن حسم هذا الخلاف من خلال التعرف على سلاسل الرواة الذين أخذ عنهم القرشي ، لكن ذلك غير ميسور في الكتاب على نحو كاف . فكثيراً ما نقرأ فيه : « قال أبو عبيدة ... » و « قال المفضل ... » [2] أو نقرأ قوله : « وذُكر عن أبي عبيدة .. » [3] أو « وذكر ابن دأب أن .. » [4] . فهو يسقط — على هذا النحو — حلقات الرواية ، ويسند القول إلى قائله مباشرة . ومع ذلك ففي وسعنا أن نتوقف عند ثلاث حالات قد يكون لها شيء من الدلالة . فقد قال في مرة : « حدثنا سنيد عن حزام بن أرطاة عن أبي عبيدة » [5] . وقال في مرة أخرى : « حدثنا سنيد بن محمد الأزدي عن ابن الأعرابي » . [6] وفي مرة ثالثة قال : « عن المقنع عن أبيه عن الأصمعي .. » [7]

ومعنى هذا أن بينه وبين أبي عبيدة (ت ٢٠٩ هـ) راويين . وكذلك هناك راويان بينه وبين الأصمعي (ت ٢١٦ هـ) . وبينه وبين ابن الأعرابي (٢٣١هـ) راو واحد . ولأن ابن الأعرابي تأخر عن صاحبيه فربما كان هذا هو السبب في أن القرشي لم يكن بينه وبينه سوى راو واحد ، في حين احتاج الأمر إلى راويين بين القرشي وبين كلا أبي عبيدة والأصمعي . وينتهي بنا هذا إلى أن القرشي ربما عاش في النصف الثاني من القرن الثالث وشهد طرفاً من القرن الرابع .

---

(١) انظر مصادر الشعر الجاهلي . ص ٥٨٧ .
(٢) انظر الجمهرة . ص ٨٠ .
(٣) نفسه ص ٨٢ .
(٤) نفسه ص ٦٧ .
(٥) نفسه ص ٤٥ .
(٦) نفسه ص ٣٠ .
(٧) نفسه ص ٣٦ .

(ب) وكتاب جمهرة أشعار العرب يتفق مع المفضليات والأصمعيات في

[illegible] وكان [illegible]

[illegible] ، يسمعون منهم القرآن ويأخذونه عنهم .

كان أهل الكوفة [illegible] ابن مسعود ، [illegible] أبي موسى

الأشعري [illegible] هذه الأقسام

[illegible] بعض الآيات . فالقسم الأول

[illegible] (١) القسم السابع فيختص

بالطبقة [illegible]

[illegible] قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف

اليهود [illegible] (٢) [illegible] حفصة أن

[illegible] . فما إن استقرت

عنده حتى دعا بزيد بن ثابت مرة أخرى ، ومعه عبدالله بن الزبير ، وسعيد بن
الطبقة الثانية : أصحاب المجمهرات (٢) . وهم عنترة بن شداد ، وعبيد
العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وأمرهم أن ينسخوا تلك
بن الأبرص ، وعدي بن زيد ، وبشر بن أبي خازم ، وأمية بن أبي الصلت ،
الصحف ، وأن يستعينوا في ضبط القراءة بما حفظه القراء . وكان زيد يقود
وخداش بن زهير ، والنمر بن تولب . وقد ورد اسم عنترة مع الطبقة
المجموعة في هذا العمل الجليل ولكن ماذا لو اختلفوا أو اختلف بعضهم
الأولى (في آخرها) فصارت الطبقة الأولى بهذا ثمانية شعراء والثانية ستة .
معه في قراءة ؟ لقد وضع لهم عثمان المعيار الحاسم ، فقال : إذا اختلفتم أنتم
ويبدو أن هذا من خطأ النساخ ؛ فقد جرى القرشي في تصنيفه على النظام
وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما أنزل بلسانهم (٣) .
السباعي .

وعلى أيدي هذه الجماعة تمت عملية تدوين القرآن في صورة نهائية . ومنذ
الطبقة الثالثة : أصحاب المنتقيات ، وهم المسيب بن علس ، والمرقش
ذلك الوقت صارت هذه النسخة هي النسخة الأم . وقد أمر عثمان بكتابة ست
الأصغر ، والمتلمس ، وعروة بن الورد ، والمهلهل بن ربيعة ، ودريد بن
نسخ منها ، واحتفظ لنفسه منها بواحدة ، وجعل واحدة لأهل المدينة ، ووزع
الصمة ، والمتنخل بن عويمر الهذلي
النسخ الأربع الباقية على مكة والبصرة والكوفة والشام (٤) .

الطبقة الرابعة : أصحاب المذهبات . وهم حسان بن ثابت . وعبدالله

---

(١) جورجي زيدان : نفسه ، ج ٣ ص ٦٥ .

(٢) نفسه المحكمة السبك . يقال للناقة « المجمهرة » . أي المتداخلة الخلق كأنها كتلة من

(٣) ابن النديم : الفهرست — المكتبة التجارية بمصر — ص ٤٣ .

(٤) جورجي زيدان : نفسه ، ج ٣ ص ٦٥ .

والحق إن تدوين القرآن على هذا النحو يعد أضخم وأدق عملية تدوين تمت في الصدر الأول للإسلام. وما أسرع ما انتشرت النسخ المأخوذة عن هذه النسخة الأم، وما أكثر ما صار في أيدي الناس من هذه النسخ، حتى إنه ليقال إن عسكر معاوية في وقعة صفين حين رفعوا المصاحف كان معهم ما يقرب من خمسمائة نسخة. وهذا دليل — من جهة أخرى — على أن عملية النسخ، أي الكتابة، كانت قد صارت ميسورة، وعلى كثرة النساخ.

(ب) ولم يقتصر الأمر في صدر الإسلام الأول على تدوين القرآن الكريم، بل مست الحاجة إلى الكتابة في بعض الأمور المتعلقة بالدعوة الجديدة. فمنذ البداية اقتضى الأمر كتابة بعض المعاهدات، كالمعاهدة التي أمر الرسول عليه السلام بكتابتها على أثر هجرته إلى المدينة، لتنظيم العلاقات بين المهاجرين والأنصار واليهود. وإلى جانب المعاهدات نجد الرسائل التي بعث بها الرسول إلى القبائل المختلفة، سواء لعقد حلف معهم ضد قريش عند بدء الدعوة، أو لدعوتهم إلى الإسلام، وتعليمهم. كل هذا في داخل شبه الجزيرة، أما في خارجها فقد بعث الرسول بالرسائل إلى ملوك الدول المجاورة، كالمنذر بن ساوي، والمقوقس في مصر، والنجاشي في الحبشة (٣).

(٣) ذكر المسعودي في «التنبيه والإشراف» أن زيد بن ثابت كان يكتب إلى الملوك ويجيب بحضرة النبي. وكان يترجم للنبي بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية، وتعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسن. وذكر عدد من المؤرخين أن النبي عليه السلام قال لزيد:

بن رواحة، ومالك بن العجلان، وقيس بن الخطيم، وأحيحة بن الجلاح، وأبو قيس بن الأسلت، وعمرو بن امرئ القيس.

الطبقة الخامسة: أصحاب المراثي(١)، وهم أبو ذؤيب الهذلي، ومحمد بن كعب الغنوي، وأعشى باهلة، وعلقمة ذو جدن الحميري، وأبو زبيد الطائي، ومتمم بن نويرة اليربوعي، ومالك بن الريب التميمي.

الطبقة السادسة: أصحاب المشوبات(١)، وهم نابغة بني جعدة، وكعب بن زهير بن أبي سلمى، والقطامي، والحطيئة، والشماخ بن ضرار، وعمرو بن أحمر، وتميم بن مقبل العامري.

الطبقة السابعة: أصحاب الملحمات(٢)، وهم الفرزدق، وجرير بن بلال، والأخطل التغلبي، وعبيد الراعي، وذو الرمة، والكميت بن زيد الأسدي، والطرماح بن حكيم الطائي.

ويلاحظ أن القرشي قد سمى الطبقة الخامسة أصحاب المراثي ... تسمية سائر الطبقات: لأنه يختار قصائد هذه الطبقة على أساس من الموضوع الشعري وهو الرثاء، في حين أنه في سائر الطبقات كان إنما يختار القصائد على أساس المستوى الفني بصفة عامة، ودون تقيد بالموضوع الشعري.

(ب) ٢ — قدم القرشي لمجموعته بمقدمة ضافية يقول في مستهلها: «هذا كتاب جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، الذين نزل القرآن بألسنتهم، واشتقت العربية من ألفاظهم، واتخذت الشواهد في معاني القرآن وغريب الحديث من أشعارهم، وأسندت الحكمة والآداب إليهم، تأليف أبي زيد

(٢) هم الشعراء الذين شاب أشعارهم الكفر والإسلام، أي الذين عاش أصحابها في الجاهلية والإسلام، وهم المخضرمون.

(٣) أي الملتحمة في نظمها.

محمد بن أبي الخطاب القرشي . وذلك أنه لما لم يوجد أحد من الشعراء بعدهم إلا مضطراً إلى الاختلاس من محاسن ألفاظهم ، وهم إذ ذاك مكتفون عن سواهم بمعرفتهم ، وبعد فهم فحول الشعراء الذين خاضوا بحره ، وبَعُد فيه شأوهم ، واتخذوا له ديواناً كثرت فيه الفوائد عنهم ، ولولا أن الكلام مشترك لكانوا قد حازوه دون غيرهم ، فأخذنا من أشعارهم ، إذ كانوا هم الأصل ، غُرَراً هي العيون من أشعارهم ، وزمام ديوانهم .

ونحن ذاكرون في كتابنا هذا ما جاءت به الأخبار ، والأشعار المحفوظة عنهم ، وما وافق القرآن من ألفاظهم ، وما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في الشعر والشعراء ، وما جاء عن أصحابه والتابعين من بعدهم ، وما وصف به كل واحد منهم ، وأول من قال الشعر ، وما حفظ عن الجن ، وما توفيقي إلا بالله .. » (١)

وهو في هذا الاستهلال يبين لنا سبب اقتصاره في الاختيار على الشعر القديم ، وهو أن هذا الشعر هو الأصل ، وأن من جاءوا بعد من الشعراء كانوا مضطرين إلى الاختلاس من محاسنه . ولعله في هذا كان ما يزال متأثراً بما أورده في صلب المقدمة من أن أبا عبيدة قال : فتح الشعر بامرىء القيس وختم بذي الرمة (٢) — رواه أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء .

وهو في الفقرة الثانية يشير إلى بعض الموضوعات التي عالجها في صلب المقدمة .

(ب) ٣ — وقد قيد القرشي نفسه باختيار قصيدة واحدة لكل شاعر من الطبقات السبع ، فكان مجموع المختارات تسعاً وأربعين قصيدة لتسعة وأربعين شاعراً . وهو في هذا يختلف عن المفضل الضبي وعن الأصمعي

---

(١) جمهرة أشعار العرب ، طبعة دار صادر ودار بيروت ١٩٦٣ ، ص ٩ .

(٢) نفسه ص ٨٢ .

اللذين كانا كثيراً ما يختاران للشاعر الواحد أكثر من اختيار . ولعل مجموعة الطبقة الأولى ، وهي مجموعة « المعلقات » . هي التي فرضت عليه — دون مبرر موضوعي — أن يختار سبع قصائد لسبع شعراء في كلٍّ من المجموعات الأخرى ، وإلا فما مبرر أن تتألف كل منها من سبع قصائد فحسب ؟ !

على أننا نظلم القرشي إذا نحن عزونا إليه هذا النظام السباعي ؛ فهو في مقدمة الكتاب — بعد أن أورد حديث المفضل عن « السبعة الطوال التي تسميها العرب السموط » (أي المعلقات) — يقول : « وقد أدركنا أكثر أهل العلم يقولون : إن بعدهن سبعاً ما هُنَّ بدونهن ، ولقد تلا أصحابهن أصحاب الأوائل فما قصروا ، وهن المجمهرات » . (١) فمن الواضح أن قصائد المجموعة الثانية كانت محددة كذلك بسبع قصائد ، شأنها في هذا شأن المعلقات ، ولم تكن كذلك من اختيار القرشي ابتداء . ومن يدري ، فربما كانت كل هذه المجاميع الشعرية السباعية العدد قد حددت وسميت وتدوولت بين علماء الأدب قبل القرشي ، وأنه إنما جمع بينها في كتاب واحد .

ويؤكد هذا الذي نذهب إليه ما نقله القرشي من قول شيخه المفضل المجبري بعد أن ذكر تلك المجموعات السبع بأسمائها : « فهذه التسع والأربعون قصيدة عيون أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ، ونَفَس شعر كل شاعر منهم » . (٢)

وتلفتنا هنا عبارة المفضل الأخيرة ، إذ أنها تتضمن تفسيراً للاقتصار على اختيار قصيدة واحدة لكل شاعر . فالمراد من هذا أن تكون القصيدة ممثلة لشعر الشاعر كله ، أو — كما لا نزال نقول — ممثلة لنَفَسه الشعري . والقصيدة التي هذا شأنها هي ما اجتمعت لها كل المشخصات الفنية التي تميز شاعراً ، وتكشف عن طاقاته الإبداعية .

---

(١) الجمهرة ص ٨٠ .

(٢) نفسه ص ٨١ .

من أجل هذا عد تفسير الطبري هذا أبرز نموذج لما عرف في المصطلح بالتفسير بالمأثور. على الرغم مما تمتاز به جمهرة القرشي من احتوائها على تسع وأربعين

قصيدة ... على التفسير والقرآن ... الجاهلي ... التأليف الإسلامي المتروع ... البدائية ... ثم ما لبث أن انفصل ... فيها وفقاً ... كتب المغازي والتطير ... الرغم من المقدمة

النقدية التاريخية التي قدم بها القرشي هذه الجمهرة — على الرغم من هذا كله ما يزال هناك مجال للمراجعة والمؤاخذة.
بعد كان مما وصف به الرسول عليه السلام القرآن قوله : « كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ... »[1] والحق إن القرآن الكريم قد تضمن إشارات كثيرة إلى أحداث أو شخوص ... التيمية ... آدم ... السلام والبقية ... الشعراء ... عام الفيل ... البعثة المحمدية ... تتبع الرسول ... والكرامة ... الرسول الكريم والحكاية ... غزواته والوقائع الحربية التي خاضها ضد المشركين ... هذه المواطن من القرآن ... المفسرون الأوائل ... السبع ... مطالبين بتفصيل الحديث فيها (ج) ٢ — ولأنه جعل المراثي مجموعة قائمة بذاتها ، وجعلها الخامسة في الترتيب

وقد كان لعروة بن الزبير ... عناية بالتاريخ القديم ... والمغازي ... يخضع أكثر الروايات القديمة التي تشير إلى ما كان يكتبه ... في تفصيل ... هذه في المراثي الوقائع ... إجابة عن أسئلة يرسل بها إليه عبد الملك بن مروان . ومن ثم عد عروة أول من ... في ... [2] وشك المجاميع السبع أن تكون من مستوى شعري متقارب ... وقد اشتهر في هذا المجال كثيرون ... أبان بن عثمان بن عفان ... الدقة والرهافة ، ووهب بن منبه ، وعاصم بن عمر ، وابن شهاب الزهري ، وموسى بن عقبة ... القرشي ... قصيدة من قصائد المجاميع السبعة بأي تعليق يبين وجه تفضيلها واختيارها ، أو كيف أنها تمثل (ب) ونحن حين نتصفح مقدمة السيرة التي رواها ابن هشام عن ابن إسحق نجده يقول فيها : « وأنا إن شاء الله مبتدىء هذا الكتاب بذكر إسماعيل ابن إبراهيم ... القرشي ... ممن ذكرهم ، فروي عن كل منهم بعض ما قيل في تفضيله . وكلها أقوال

(١) ... الكشاف ... جـ ٢ ص ... إن الفرزدق قال :
(٢) ... جـ ... ص ٤٠٩ النابغة أشعر الناس ؛ وقال الأخطل :
الأعشى أشعر الناس ؛ وقال ابن أحمر : زهير أشعر الناس ؛ وقال ذو الرمة :

٢٢

لبيد أشعر الناس .. »[1]. وهكذا يمضي في رواية هذه الأحكام الكلية المطلقة

[illegible] تعليقمن إسماعيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وما [illegible] كل [illegible] إسماعيل [illegible]

[illegible] الله [illegible] عليه وسلم [illegible][1]

[illegible] السلام لشاعر ،

الشعر [illegible] النسب

[illegible] أبو

[illegible]

[illegible]

[illegible][2] بدأ

التدوين في هذا المجال [illegible] كل مجموعة من

[illegible] الإسلام [illegible] في

الصحف[4] . ثم يلي هذا ابن شهاب الزهري ، فهناك إشارة إلى أنه أخذ في
لقد نقل في مقدمته خبراً عن عيسى بن عمر أنه قال : « لله در عمرو (بن)
تدوين نسب مضر استجابة لطلب خالد بن عبدالله القسري وإن لم يتم الكتاب .
كلثوم ! أي حلس شعر ، ووعاء علم ، لو أنه رغب فيما رغب فيه أصحابه
ولعل من أقدم كتب النسب الكاملة كتاب «نسب قريش» لأبي عبدالله
من الشعراء ، وإن واحدته لأجود سبعهم » — يعني أجود السبع الطوال ،
المصعب بن عبدالله بن المصعب الزبيري (ت ٢٣٦ هـ) . ثم كثرت بعد ذلك
لأن عمرو بن كلثوم من شعراء المعلقات .
المصنفات في الأنساب .

هذا هو حكم عيسى بن عمر وقد كان في وسع القرشي حينذاك أن
وكل الشواهد السابقة تشير إلى أن عملية التدوين قد بدأت في حياة العرب
يفصل القول في تفوق هذه القصيدة على أخواتها — إذا كان رأيه موافقاً لرأي
منذ وقت مبكر ، وأنها أخذت تنمو وتتطور حتى اكتمل تدوين المعارف
ابن عمر فيها . وكان في وسعه أن يبدي وجهة نظره الخاصة إذا كان مخالفاً له
العربية والإسلامية في النصف الأول من القرن الثالث الهجري . وسنحاول
وعلى كل كان حكم ابن عمر خليقاً أن يلفته إلى عقد موازنة فنية بين قصائد

كل مجموعة على حدة . ولكنه لم يفعل .

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ١ ص ٣

(٢) [illegible] العقد الفريد ٢/٥١ .

(٣) [illegible] البيان والتبيين ١/٣٠٣ .

(٤) [illegible] الدين الأسد : مصادر .. ص ١٦٠ .

(٥) انظر الأغاني ١٩/٥٦ .

(د) ويظل للجمهرة — على ما هي عليه — وجوه ينتفع بها فيها . فهي إلى تضمنها تلك القصائد التسع والأربعين كاملة تضمنت مقدمتها أموراً تسعف الباحث في عدة مجالات :

أولاً : فيما يتعلق باستخدام القرآن الكريم ألفاظاً وتراكيب استخدمها الشعراء من قبل . ومثال ذلك قول الربيع بن زياد العبسي :

فإن طبتمُ نفساً بمقتل مالك
فنفسي : لعمري : لا تطيب بذلكا

فأوقع لفظ الجمع على الواحد . وقال تعالى : « فإن طِبْنَ لكم عن شيء منه نَفْساً فكلُوهُ » .

ثانياً : فيما يتعلق بتصور القدامى لأولية الشعر العربي وما صحب ذلك من روايات شعرية مختلفة وأحاديث ملفقة .

ثالثاً : فيما يتعلق بالروايات التي تصور موقف الرسول عليه السلام من الشعر .

رابعاً : فيما يتعلق بتصور العرب القديم لشياطين الشعراء ، وما يتصل بذلك من أقاصيص .

خامساً : فيما يتعلق بأنواع الأحكام النقدية على الشعر في المراحل الأولى وحتى الجيل الأول من الرواة العلماء ، مع أطراف من الأخبار المتعلقة بحياة شعراء المعلقات بخاصة .

(هـ) وقد طبعت جمهرة أشعار العرب لأول مرة في مطبعة بولاق بمصر في سنة ١٣١١ هـ ، ثم تلتها مجموعة من الطبعات التجارية في مصر ، وكلها مأخوذة عن أصل واحد ، ثم طبعتها دار صادر ودار بيروت في سنة ١٩٦٣ ، وكانت آخر طبعاتها في سنة ١٩٦٧ بتحقيق علي محمد البجاوي .

القســـم الثانى

المختارات المصنفة موضوعيا

الحماسات

٢ – وينتهي عهد الراشدين ويبدأ العهد الأول من دولة بني أمية بخلافة معاوية بن أبي سفيان . وفي عهده تبرز كتب جديدة ، وفي الوقت نفسه يتسع نطاق الكتب المتاحة للناس . وفيما يلي إشارات لبعض النماذج .

(أ) – ولنبدأ بالإشارة إلى كتب الصحابي الجليل عبدالله بن عباس ، المتوفى سنة ٦٨ هـ . فابن سعد يذكر لنا [١] أن كُريبًا وضع عند موسى بن عقبة حمل بعير من كتب ابن عباس . وكريب هذا ممن أخذوا عن ابن عباس . والخبر نفسه يدلنا على أن هذه الكتب التي كانت لابن عباس ، والتي بلغت حمل بعير ، لم تكن هي كل كتبه . وكذلك كانت هذه الكتبُ تنتسخ ؛ ففي بقية الخبر أن علي بن عبدالله بن عباس كان إذا أراد كتاباً من هذه الكتب كتب إلى موسى بن عقبة يستعيره منه فينسخه ثم يرده .

(ب) وكذلك يروي ابن سعد عن هشام بن عروة بن الزبير أنه قال : أحرق أبي يوم الحَرَّة كتب فقه كانت له ، فكان يقول بعد ذلك : لأن تكون عندي أحب إلي من أن يكون لي مثل أهلي ومالي [٢] . وقد سبقت الإشارة إلى أن مجال اهتمام عروة قد امتد إلى التاريخ والمغازي ، حتى عد أول من كتب المغازي . فهل كان ما أحرقه في يوم الحرة من كتبه في الفقه غير ما دونه في هذا المجال ، أم أن ابنه هشاماً إنما أطلق عبارة « كتب فقه » على كل كتبه ؟

(جـ) وقد كان معاوية بن أبي سفيان مولعاً بمعرفة أخبار الملوك وسيرهم وسياساتهم ، فكانت لديه دفاتر فيها سير الملوك وأخبارها ، وأخبار الحروب والمكايد . وإنه ليقعد في كل يوم فيحضر له غلمانه هذه الدفاتر ، « فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون قد وكلوا بحفظها وقراءتها » . [٣]

---

(١) الطبقات الكبرى ٥/٢١٦ .

(٢) نفسه ٥/١٣٣ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب – بيروت ١٩٧٠ – جـ ٣ ص ٢٢٢ .

وربما تضمنت هذه الدفاتر أحاديث عبيد بن شَرية الجرهمي ؛ فابن النديم يذكر (١) أن عبيداً وفد على معاوية ، فسأله معاوية عن أخبار العرب ووقائعهم ، وعن سير الملوك من عرب وعجم ، وعن تبلبل الألسنة وتفرق الناس ، وغير ذلك من الأخبار ، فكان عبيد يجيبه عن كل ما سأل عنه . وفي الوقت نفسه طلب معاوية من كتابه في الديوان أن يدونوا هذه الأحاديث في الصحف ، وأن ينسبوها إلى صاحبها .

(د) وفي عهد معاوية كذلك ألف عبيد بن شرية كتاباً في الأمثال . وقد ذكر ابن النديم (٢) أنه رأى هذا الكتاب ، وأنه كان نحو خمسين ورقة . وهذا معناه أن هذا الكتاب كان يتداول حتى عصر ابن النديم ، أي في أواخر القرن الرابع الهجري .

وقد ذكر ابن النديم (٣) كتاباً آخر في الأمثال كذلك ، ألفه صُحار بن عياش العبدي ، أي في أيام معاوية .

(هـ) ونحن نسمع في أوائل النصف الثاني من القرن الأول الهجري لعله الأول من نوعه في المجتمع الإسلامي ؛ إذ يقال إن عبد الحكم بن عمرو بن عبدالله بن صفوان الجمحي قد اتخذ بيتاً فجعل فيه شطرنجات ونردات وقرقات ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل في الجدار أوتاداً ، فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ، ثم جر دفتراً فقرأه ، أو بعض ما يلعب به فلعب به مع بعضهم (٤) .

---

(١) الفهرست ١٣٨ .

(٢) نفسه .

(٣) الفهرست ١٣٨ .

(٤) الأغاني ٤/٢٥٣ .

(ب) وكما ارتبطت مفضليات الضبي بقصة تشرح سبب تصنيفها كذلك ارتبطت حماسة أبي تمام بقصة مشابهة . فقد ذكر التبريزي [1] — أحد شراح الحماسة — أن الدافع الذي حدا بأبي تمام إلى وضع هذا المصنف هو أنه كان قد قصد عبدالله بن طاهر في خراسان فمدحه ، ولكن عبدالله لم يكن يمنح شاعراً ما لم يقرر أبو العَمَيْثَل وأبو سعيد الضرير رضاء هما عنه . ومن ثم فقد قصدهما أبو تمام وأخذ ينشدهما قصيدته التي مطلعها :

أهُنَّ عَوَادِي يوسف وصواحبُهْ
فَعَزْماً فَقِدْماً أدرك السُّؤْلَ طالبهْ

واستثقل أبو العميثل وأبو سعيد هذا المطلع ، وكادا ينصرفان عنه ، فاستمهلهما ، حتى بلغا قوله :

ورَكْبٍ كأطراف الأسِنَّةِ عرَّسُوا
على مِثْلِها والليل تَسْطو غياهبه
لأمر عليهم أن تتم صدورُه
وليس عليهم أن تتم عواقبه

فاستحسناه ، وعرضا القصيدة على عبدالله وقدرا جائزتها بألف دينار . ثم قفل أبو تمام راجعاً من خراسان يريد العراق . فلما كان في همذان استضافه أبو الوفاء بن سَلَمَة وأكرمه ، ولكنه قبل أن يشد رحاله نزل ثلج غزير قطع الطريق دون رحيله ، فاضطر إلى البقاء عند أبي الوفاء . ولكي لا يضجر من مقامه أحضر له مضيفه خزانة كتبه وجعلها بين يديه . وأخذ أبو تمام يطالع ما فيها من شعر وينتخب ما يروقه منه ويدون ما يختار ، فاجتمع له من ذلك خمسة كتب ، كان كتاب الحماسة أحدها .

(جـ) ولكن كيف كان أبو تمام يختار ما يختار ؟

---

(١) انظر شرحه للحماسة — المقدمة ص ٣ — ٤ .

يقول المرزوقي — شارح الحماسة كذلك — إنه « لم يعمد من الشعراء إلى المشتهرين منهم دون الأغفال . ولا من الشعر إلى المتردد في الأفواه ، المجيب لكل داع . فكان أمره أقرب — بل اعتسف في دواوين الشعراء ، جاهليِّهم ومخضرمهم وإسلاميِّهم ومُوَلَّدهم ، واختطف منها الأرواح دون الأشباح ، واخترف الأثمار دون الأكمام ، وجمع ما يوافق نظمه ويخالفه ؛ لأن ضروب الاختيار لم تخف عليه ، وطرق الإحسان والاستحسان لم تستتر عنه ، حتى إنك تراه ينتهي إلى البيت الجيد فيه لفظة تشينه ، فيجبر نقيصته من عنده ، ويبدل الكلمة بأختها في نقده » . (١)

ومعنى هذا أن أبا تمام كان يختار الشعر الذي يروقه دونما اعتبار لمدى شهرة صاحبه ، وأنه لم يشأ أن يعرض على الناس ما هو مشهور ومتداول بينهم ، بل شاء أن يضع بين أيديهم نماذج جديدة من الشعر الرائع ، لم يلتفتوا إليها من قبل . ولأنه شاعر ذواقة مرهف العقل « الحس ، كان يعرف كيف يستخرج من القصيدة أروع ما فيها ، فإذا اصطدم حسه بلفظة قلقة استبدل بها غيرها ، حتى يستوفي الكلام عناصر الحسن اللائقة به .

وقد نتج عن كل هذا أن كانت مختارات الحماسة مقطعات لا قصائد كاملة كما كان الشأن في المفضليات وما سار على نهجها من المختارات . فأطول مختارة في الحماسة لا تزيد على اثنين وعشرين بيتاً ، وأغلب المختارات يتراوح بين ستة أبيات وتسعة ، على أنها قد تكون في بعض الأحيان بيتاً واحداً .

ونتج عن هذا أيضاً ورود كثير من المختارات في الحماسة لشعراء مغمورين ، بل يحدث كذلك أن ترد النماذج المختارة دون تعيين قائليها ، كأنما كانت غاية وكد أبي تمام أن يدل على الشعر من حيث هو ، أي بالنظر إلى قيمته الفنية الصرف .

---

(١) مقدمته لشرح الحماسة ، ص ١٣ — ١٤ .

ثم نتج عن هذا أخيراً ما زعمه المرزوقي من تدخل أبي تمام في النص إذا اقتضى [illegible] في النص [illegible] مطبوعة نظراً لأنه [illegible] المعروفات أنها على [illegible]

المعارف التي [illegible] شيئاً [illegible] تلك الحقبة [illegible] بما يؤكد نمو حركة التدوين واتساع نطاقها في خلال القرن الأول الهجري وبدايات القرن الثاني . [illegible] عن أحد ، بل

جمعها بنفسه مما كان مدوناً من أشعار في خزانة أبي الوفاء وكذلك لم يروها أحد عنه ، [illegible] أن يقودنا [illegible] الحكم على دعوى [illegible] القرن الأول

[illegible] دون [illegible] شيئاً [illegible] بأنها دعوى [illegible] متأصلة [illegible]

تفتقر [illegible] بين [illegible] في [illegible] الروايات [illegible] تحدثنا عن

[illegible] على نطاق واسع ، حتى إن المرزوقي (١)

يذكر أنه [illegible] ونود الآن [illegible] ما بدا لنا من أمر التدوين الذي [illegible] منذ العصر الجاهلي من زاوية أخرى [illegible] أريد أن أقول إن ما ارتآه المرزوقي من تدخل أبي تمام في النص أحياناً ، واستبداله كلمة بكلمة ، ربما كان من أثر النساخين أنفسهم .

فالتدوين — [illegible] — يقتضي بالضرورة توافر عنصرين لا غنى عنهما ، هما [illegible] معرفة [illegible] بالكتابة ، وتوافر وسائل التدوين [illegible] بخاصة إذا كان [illegible] الأشعار تصنيفاً موضوعياً [illegible] التدوين على [illegible] وإذا تجاوز الأمر مجرد التدوين إلى [illegible] المدونات [illegible] فنون الشعر [illegible] منذ وقت مبكر [illegible] تدوين القرآن الكريم [illegible] الحماسة . ٢ — باب المراثي . ٣ — باب الأدب ٤ — باب النسيب [illegible] أما بالنسبة لمعرفة العرب بالكتابة منذ أواخر العصر الجاهلي — وبخاصة في الحواضر — على نطاق معقول نسبياً ، ثم نمو هذه المعرفة مع مضي الزمن — فقد تحدثنا عنه في [illegible] الفقرات الأولى [illegible] ويمكن [illegible] حركة التدوين [illegible] القرن الهجري الأول ، ويبقى إذن أن نتحدث عن وسائل التدوين [illegible] تلك الحقبة من الزمن [illegible] الكتب والدواوين التي بين يديه [illegible] ولكن الكتابة باللغة العربية لها مشكلة خاصة : تتعلق بالخط العربي نفسه ، في نشأته وتطوره — ومن ثم يصبح أمامنا في هذه الفقرة مشكلتان : الأولى مشكلة الخط العربي بوصفه وسيلة التدوين الكتابية ، والثانية مشكلة الوسائل التي يصلح التدوين عليها .

١ ــ تختلف آراء الباحثين حول نشأة الخط العربي وحول أصوله ومصادره
[illegible]
[illegible]
عثر عليها في أماكن متعددة من شبه الجزيرة العربية .

(أ) [illegible] بنظرية التوقيف [illegible] ابن النديم في بيانه أولية الخط العربي : اختلف الناس في أول من وضع الخط العربي ، فقال هشام الكلبي : أول من صنع ذلك قوم من العرب العاربة ، نزلوا في عدنان ابن أد ، وأسماؤهم : أبو جاد ، هواز ، حطي ، كلمون ، صعفص ، قريسات .. وضعوا الكتاب على أسمائهم ، ثم وجدوا بعد ذلك حروفاً ليست من أسمائهم ، وهي الثاء والخاء والذال والظاء والشين والغين فسموها الروادف [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] للمتوفى . ولكنه أفرد للرثاء باباً مستقلاً ، وجمع بين الفخر والمديح
[illegible]
[illegible]
[illegible] من السير الطويل مبلغه . وتسمية هذا الباب تدل على اجتهاد خاص من أبي تمام وكذلك الأمر فيما سماه أبو تمام باب الصفات ؛ فقد قصد به وصف [illegible] ، وكان في هذا مجتهداً كذلك .

(ب) وقيل كذلك إن أول من كتب بالعربية إسماعيل عليه السلام ، وأن « نفيساً » و « نصرا » و « تيما » و « دومة » أبناءه وضعوا كتاباً واحداً ، وجعلوه سطراً واحداً ، موصول الحروف كلها ، غير متفرق ، ثم فرقه

(د) ٢ ـ أما فيما يتعلق بتسمية الديوان كله [illegible] الحماسة فيبدو أن أبا تمام [illegible] شرح المرزوقي للديوان « يظهر [illegible] في أن يسمى [illegible] ، حتى في تسمية القرآن ؛ فسميت سورة البقرة لآية فيها [illegible] سورة الأنعام كذلك ،

وسورة النمل كذلك ؛ ثم فشت عادة تسمية الشيء بأوله ؛ فسمى العين (١) للخليل لأن أول أبوابه باب العين ، وسمى أبو تمام ديوانه بالحماسة كذلك »(٢) ، أي باسم الباب الأول فيه .

(ﻫ) ولم تكن المختارات قبل أبي تمام تتجاوز الشعراء الإسلاميين ، ولكنه في حماسته كسر هذا التقليد ووسع من دائرة اختياره ؛ فهو لم يختر لشعراء مغمورين فحسب — كما سبقت الإشارة — بل تجاوز الشعر الإسلامي إلى شعر مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، كأبي حَيَّةَ النميري والحسين بن مطير الأسدي ، وإلى الشعراء العباسيين ، كمسلم بن الوليد وأبي العتاهية وأبي نواس ودِعْبِل الخُزَاعي .

حقاً إن معظم مقطعات الحماسة تظل مختارة من الشعر الجاهلي والمخضرم والإسلامي (٣) ، ولكن أبا تمام فتح الباب بما اختاره من الشعر الحديث آنذاك أمام من جاءوا بعده لكي يولوا هذا الشعر مزيداً من الاهتمام .

ومن الظواهر الجديدة كذلك في ديوان الحماسة أن أبا تمام اختار بعض نماذجه من أشعار النساء فكان أولا في هذا الاختيار حتى زمانه .

على أننا نلاحظ أن أبواب ديوان الحماسة ليست متناسقة أو متوازنة . فالديوان في مجموعه يضم ثمانمائة وإحدى وثمانين مقطعة ، لكنها غير موزعة على الأبواب العشرة فيه توزيعاً متساوياً أو حتى متقارباً . فعلى حين أورد أبو تمام في باب الحماسة وحده مائتين وإحدى وستين مقطعة — أي ما يزيد كثيراً

---

(١) هو كتاب « العين » للخليل بن أحمد الفراهيدي ، وسيرد الحديث عنه فيما بعد في فصل المعاجم .

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، ص ٣ من المقدمة .

(٣) يلاحظ أنه كان لشعراء طيء ، قبيلة أبي تمام ، نصيب وافٍ منها . (انظر : عمر الدقاق — مصادر التراث العربي ، ص ٦٠) .

على ربع الديوان – إذا به في باب الصفات لا يورد سوى ثلاث مقطعات ، الأولى في وصف الهاجرة ، والثانية في وصف أرقم ، والثالثة في وصف البرق والمطر . فهل كان السبب في اختلال هذا التوازن أهمية لشعر الحماسة تعلو كثيراً – من وجهة نظر أبي تمام – على أهمية شعر الوصف أو غيره من الفنون التي ذكرها ؟ ربما . ولأمر ما أبدع أبو تمام نفسه في مطولته البائية الحماسية في فتح عمورية على يد الخليفة العباسي المعتصم . وربما كانت مادة الشعر القديم الذي كان بين يديه عند الاختيار هي التي أثرت في تحديد مقدار ما اختار في أبواب حماسته العشرة .

(هـ) وأياً كان الأمر فإن منهج أبي تمام في تصنيف أشعار هذه الحماسة قد جذب إليه كثيرين من الشعراء وعلماء الأدب واللغة فصنفوا حماسات على غرارها . ومنهم من اعترف اعترافاً صريحاً بتأثره والاقتداء به . قال أبو الحجاج جمال الدين يوسف بن محمد بن إبراهيم البياسي الأنصاري الأندلسي (٥٧٣ – ٦٥٣ هـ) صاحب « الحماسة المغربية » : « فلم أجد أقرب توبيب (كذا !) ولا أحسن ترتيب مما بوبه ورتبه أبو تمام حبيب بن أوس رحمه الله تعالى ، في كتابه المعروف بكتاب الحماسة . وحسن الاقتداء والتوخي بمذهبه لتقدمه في هذه الصناعة ... فاتبعت في ذلك مذهبه . ونزعت منزعه .. » [1]

وهذه « الحماسة المغربية » تأتي تالية لحماسة البحتري * ، وحماسة الخالديين ، وحماسة احمد بن فارس . وحماسة الزوزني وحماسة أبي العلاء المعري ، وحماسة الأعلم الشنتمري ، وحماسة ابن الشجري * . وحماسة أبي عامر الشاطبي الأندلسي ، والحماسة البصرية * . وحماسة العبيدي * .

وكما جذبت حماسة أبي تمام هذه الطائفة وغيرهم من المصنفين إلى محاكاتها

---

(١) الحماسة الشجرية – ط دمشق ١٩٧٠ بتحقيق عبد المعين الملوحي وأسماء الحمصي – مقدمة التحقيق ص (ك ح – ك ط) .

(*) سيرد الحديث عن هذه الحماسة وشيكا .

كذلك اجتذبت طائفة أخرى من الشراح قاموا على شرحها .

فمن علماء القرن الرابع الهجري تصدى لشرحها أبو بكر الصولي والحسن بن بشر الآمدي وأبو الفتح ابن جنّي (١) وأبو هلال العسكري . ومن علماء القرنين الرابع والخامس شرحها أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي وأبو العلاء المعري . وشرحها من علماء القرن الخامس أبو الحسن علي بن سيده وأبو الفضل الميكالي والخطيب التبريزي ، ومن علماء القرن السادس أبو الفضل علي الطبرسي والبيهقي والعكبري . وقد بلغ من فرط عناية التبريزي بهذه الحماسة أن شرحها في ثلاثة شروح : أحدها مطول ، والثاني مختصر ، والثالث وسيط . وهذا الشرح الأخير هو المتداول .

وأكثر هذه الشروح تداولاً بين الناس هما شرحا التبريزي هذا والمرزوقي . ولكلا الشرحين مميزاته الخاصة ، وإن كان الميل إلى تفضيل شرح المرزوقي . فشرح المرزوقي – وإن كان أقدم وأسبق – هو أوفى الشروح ، وفيه يتصدى المرزوقي باقتدار لبيان المعاني واستقصائها ، معتمداً في هذا على ذوقه الأدبي المدرب ، وخبرته الواسعة بالشعر العربي . هذا في حين يغلب على شرح التبريزي طابع التحليل اللغوي ، والاهتمام بمسائل الاشتقاق والتصريف ، مع العناية بالخلفيات التاريخية التي تشرح مناسبة النص الشعري . ويبقى بعد كل هذا لشرح المرزوقي فضيلة المقدمة النقدية الرائدة التي تتصدره ، والتي ناقش فيها المرزوقي كثيراً من قضايا الأدب ، وحدد – للمرة الأولى – مفهوم « عمود الشعر » وفصل القول في عناصره .

هذا وقد نشأ طراز من التأليف حول حماسة أبي تمام يتضمن شرحاً لها وإن لم يكن شرحاً بالمعنى المألوف . فقد كان شداة الأدب يحفظون أول م

---

(٢) لابن جني كذلك كتاب المبهج في اشتقاق أسماء شعراء الحماسة . (انظر الحماسة الشجرية ص ٣ م) .

يحفظون ديوان الحماسة . حتى متعلمو النثر قد نصحهم علماء الأدب بأن ينثروا الحماسة مع محافظتهم على المعاني ، وأوصوهم أن ينسوه إذا نثروه ، حتى تبقى معانيه في ضمائرهم ، يستمدون منها عند الضرورة . ومن ثم ألف أبو سعيد علي بن محمد الكاتب المتوفى سنة ٤١٤ هـ نثراً كاملاً للديوان [١] .

(و) وقد طبع كتاب الحماسة بشرح التبريزي عدة طبعات ، كانت أولاها في مدينة بون بألمانيا في سنة ١٨٧٨ م بتحقيق المستشرق الألماني «فرايتاج» مع ترجمة إلى اللاتينية . ثم طبع بمطبعة بولاق في مصر في سنة ١٢٩٦ هـ في أربعة أجزاء بعناية الشيخ محمد قاسم . ثم طبع في مطبعة السعادة بالقاهرة في سنة ١٩١٣ في جزئين . وكانت آخر طبعاته في مصر بتحقيق الشيخ محيي الدين عبد الحميد في سنة ١٩٣٨ ، وتقع في أربعة أجزاء ، ولها فهارس مفيدة .

وهكذا ظل شرح التبريزي هو المتداول إلى أن قام الدكتور أحمد أمين والأستاذ عبد السلام محمد هارون بتحقيق شرح المرزوقي فصدر عن لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة في أربعة أجزاء بين عامي ١٩٥١ و ١٩٥٣ ، ثم صدرت طبعته الثانية عن نفس اللجنة في سنة ١٩٦٧ .

*

(١) انظر شرح ديوان الحماسة للمرزوقي – مقدمة التحقيق ص ٤ .

٢- حماسة البحتري

(أ) البحتري هو الشاعر العباسي الكبير أبو عُبَادة الوليد بن عُبَيْد البحتري (٢٠٦ — ٢٨٤ هـ) . وهو تلميذ أبي تمام وإن اختلف عنه في منحاه الشعري . وعلى الرغم من هذا الاختلاف ظل البحتري يدين لأبي تمام بالفضل ، وكان يقول : والله ما أكلت الخبز إلا به .

ويبدو أن تأثر البحتري بأبي تمام كان أقوى في مجال آخر غير مجال الإبداع الشعري ، فقد حذا حذوه في تصنيف حماسة خاصة به . ويقال إنه صنفها للوزير الفتح بن خاقان ، في عهد الخليفة المتوكل .

وقد عاش البحتري أكثر من خمسين عاماً بعد وفاة أبي تمام . وقد عرفنا أن أبا تمام بعد أن صنف مختاراته تركها مدونة عند أبي الوفاء بن سلمة ، وأنها ظلت عند آل سلمة زمناً لا يكادون يطلعون عليها أحداً ، حتى تغيرت بهم الأحوال ، واستطاع رجل من أهل دينور أن يحصل عليها ، ومذ ذاك أخذت في الانتشار . ونحن نتذكر هذا لكي نحدد ما إذا كان البحتري قد تأثر بحماسة أستاذه فجاراه بحماسة مماثلة . ونحن نرجح أن يكون البحتري قد اطلع على حماسة أبي تمام في وقت متأخر من حياته ، ولكنه — كما صنع في مذهبه الشعري الخاص — لم يشأ أن يكون مقلداً لأبي تمام ، فاختط لنفسه منهجاً خاصاً في تصنيف حماسته .

وقد أثير الشك في نسبة هذه الحماسة إلى البحتري ، حين ذكر عبد القادر البغدادي في خزانته أنه لم يسمع أن للبحتري حماسة . ومن جهة أخرى بدا منهج البحتري في تصنيفه حماسته متقدماً على روح التصنيف في زمانه [1] ولكن عدم سماع البغدادي بحماسة البحتري لا ينهض دليلاً على أنها ليست له ، بل هو دليل في الواقع على عدم ذيوع شهرة هذه الحماسة بنفس الدرجة التي ذاعت بها حماسة أبي تمام . أما إحكام البحتري لمنهجه في تصنيف حماسته فأمر يلفت النظر حقاً ، ولكن لا ننسى أنه كان مدفوعاً إلى تجويد هذا الكتاب بدافع المنافسة الشريفة بينه وبين أستاذه . وقد ألمح إلى هذا راوي الكتاب أبو العباس أحمد بن محمد المعروف بابن أبي خالد الأحول حين قال في ختامه : « تم كتاب الحماسة الذي اختاره أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري من أشعار العرب للفتح بن خاقان معارضة بكتاب الحماسة الذي صنفه أبو تمام .. » ففكرة المعارضة إذن واردة ، ومن شأن المعارِض أن يصنع ما يَبَزّ به المعارَض .

(ب) وإذا كان أبو تمام قد قسم حماسته إلى عشرة أبواب فقد قسم البحتري حماسته إلى مائة واربعة وسبعين باباً . ولكن تسمية البحتري لأبوابه أبواباً فيه كثير من التجوز ؛ إذ أن كل مجموعة من هذه الأبواب يمكن أن تندرج تحت باب واحد من أبواب حماسة أبي تمام . فالأبواب السبعة والعشرون الأولى عنده تمثل – مجتمعة – باب الحماسة عند أبي تمام .

والحق إن البحتري أخذ المعاني الحماسية المختلفة وجعل كل معنى منها باباً قائماً بذاته ، ومن ثم كثرت الأبواب لديه .

على أن البحتري لم يلتزم بكل أبواب حماسة أبي تمام العشرة . ولو شئنا أن نجمل أبوابه المائة والأربعة وسبعين في أبواب رئيسية كأبواب أبي تمام لانتهت إلى أربعة أبواب فحسب ، هي : باب الحماسة ، باب

---

(١) انظر الدكتور عمر الدقاق : مصادر التراث العربي ، ص ٧٠ .

الشباب والمشيب ، باب الأدب ، باب الرثاء في أشعار النساء . وبهذا يكون البحتري قد أسقط في حماسته كل أبواب حماسة أبي تمام ، عدا بابي الحماسة والأدب . والغريب أنه يكون بهذا قد أسقط فنوناً رئيسية في الشعر العربي منذ القدم ، كالنسيب والفخر والمدح والهجاء والوصف .

ويبدو أن إسقاط هذه الأبواب الرئيسية جميعاً كان لحساب أبوابه التي تقابل باب الأدب عند أبي تمام ؛ إذ تمثل هذه الأبواب القدر الأعظم من حماسته . فباب الحماسة يقابله عنده ٢٧ باباً ، والشباب والمشيب يشغلان عنده ثمانية أبواب ، والمراثي في شعر النساء باب واحد . فهذه إذن ستة وثلاثون باباً من مجموع الأبواب البالغ ١٧٤ باباً . وإذن فأبواب الأدب عنده تشغل مائة وستة وثلاثين باباً . وهذا إن دل فإنما يدل على مدى التفتيت المعنوي الذي صنعه البحتري لباب الأدب حتى حله إلى هذا العدد الضخم من الأبواب .

والحق إن أبواب الأدب في حماسة البحتري (وإن لم يستخدم هو نفسه هذا الاسم بطبيعة الحال) تمثل قدرة فائقة لديه على تقصي المعاني الشعرية المتعلقة بألوان السلوك الإنساني المختلفة ، والتمييز بين هذه المعاني . لقد صار كل باب عنده يمثل معنى شعرياً أكثر منه موضوعاً . وهذا هو الفارق الجوهري بين حماسته وحماسة أبي تمام . والحق إنها ديوان لمعاني الشعر العربي بأصدق ما تدل عليه العبارة .

وقد يقال في هذا الصنيع إن البحتري « يورد من الشعر في نسق مفصل ما أورده سلفه أبو تمام في شكل مجمل » [(١)] . ولكن هذا إن صح نسبياً في موضوعات باب الحماسة فإنه لا يصح بالنسبة لأبواب حماسة أبي تمام الأخرى ، حيث لم يشترك معه البحتري إلا في موضوعات باب واحد آخر هو باب الأدب — كما رأينا . وحتى بالنسبة لهذا الباب يكون من غير الإنصاف أن

---

(١) الدقاق : نفسه ص ٦٩ .

ندعي أن المعاني البالغة ١٣٦ معنى ، والمتصلة بموضوع الأدب عند البحتري ، قد ألم بها أبو تمام في باب الأدب من حماسته .

(ج) وجميع أبواب حماسة البحتري متناسقة تماماً مع أساس منهجه في التصنيف ، وهو الأساس المعنوي ، إلا الباب الأخير منها ، أي الباب الرابع والسبعون بعد المائة ، وهو « فيما قيل في مختار أشعار لجماعة من النساء في المراثي » . فهذا الباب يقوم على أساس موضوعي لا معنوي ، لأنه يعتمد الفن الشعري أساساً للاختيار ، وهو فن المراثي . ومع ذلك فهو لم يبلغ أن يكون مثل باب المراثي عند أبي تمام ، حيث قصره البحتري على المراثي التي قالتها النساء دون الرجال ، بل التي قالها بعضهن . ولو شاء البحتري أن يكون متناسقاً مع نفسه ، أو أن تكون حماسته متجانسة في منهجها ، لكان عليه أن يبوب معاني الرثاء ، ويورد النماذج التي يختارها مصورة لكل معنى منها على حدة ، من أشعار النساء والرجال جميعاً .

ولأن البحتري لم يصنع هذا ، واكتفى بإيراد النماذج التي يختارها لبعض الشاعرات في الرثاء – كان هذا الباب متضمناً لقصائد كاملة ، في حين غلبت على سائر أبواب حماسته المقطعات الصغيرة ، التي لا تتجاوز الواحدة منها أربعة أبيات إلا بنسبة لا تزيد على ربع مجموعها .

وقد بلغ مجموع ما تضمنته هذه الحماسة من مقطعات ١٤٥٤ مقطعة لنحو خمسمائة وعشرين شاعراً .وهو عدد ضخم ، يقل قليلاً عن ضعف ما ورد في حماسة أبي تمام من مقطعات .

وعلى حين فتح أبو تمام الباب للاختيار من شعر المحدثين والمعاصرين لم يجرؤ البحتري حتى على مجاراته في حدود ما صنع ، فضلا عن أن يوغل في هذا الباب . ومن ثم اقتصر في مختاراته على الشعر الجاهلي والمخضرم والإسلامي . أما بعد هذا فلم يختر سوى لعدد محدود جداً من مخضرمي الدولتين الأموية

والعباسية ، ولم يختر لأحد من كبار الشعراء في عصره فضلاً عن أستاذه أبي تمام .

على أن بعض الشعراء قد استأثروا باهتمامه حتى إنه اختار لكل منهم عشرة نماذج فأكثر ، وهم : الأحوص بن محمد الأنصاري ، وأبو الأسود الدؤلي ، وأعشى قيس ، وحسان بن ثابت ، وأبو زبيد الطائي ، وزهير بن أبي سلمى ، وصالح بن عبد القدوس ، وطريح بن إسماعيل الثقفي ، وعبد الرحمن بن حسان ، وعبدالله بن معاوية بن عبدالله (عبدالله الجعفري) ، وعدي بن زيد ، وعمرو بن معد يكرب ، والفرزدق ، وكثير بن عبد الرحمن ، ولبيد بن ربيعة ، والنابغة الذبياني ، وهدبة بن خشرم ، ويحيى بن زياد الحارثي ، ويزيد بن عبد الحكم الثقفي . ولا شك في أن إكثار البحتري من الاختيار لهؤلاء كانت توجهه القيم المعنوية والسلوكية التي شغل نفسه بها في معظم الحماسة . ولكنه في الوقت نفسه — وبطريقة غير مباشرة — سجل قدراً كافياً من النماذج التي يمكن أن يستدل منها على نَفَس كل شاعر منهم ، بخاصة من لم نعرف لهم دواوين خاصة .

(د) ولأن البحتري مضى في تفتيت المعاني واستقصائها إلى أبعد مدى يطيقه فقد كان طبيعياً أن تتفاوت الأبواب في حماسته طولا وقصراً ، وفقاً لكمية الشواهد التي يستطيع أن يختارها لكل معنى . ومن ثم وجدنا عنده الباب الذي يضم سبعة نماذج ، أو حماسيات ، مجموع أبياتها ثلاثة عشر بيتاً ، كالباب الثاني عشر بعد المائة ، وهو مخصص لما قيل في اتهام من قارب العدو وباعد الصديق في المودة . ولكن هناك أبواباً أخرى أكثر ضآلة من هذا . والباب التاسع والثلاثون بعد المائة ، وكذلك الباب الحادي والأربعون بعد المائة يصلحان مثالاً على هذا . وفيما يلي هذان البابان :

الباب التاسع والثلاثون والمائة [1]

فيما قيل في قرب ما يأتي وبعد ما مضى

١٢٣٢ قال كعبُ بن سعدٍ الغَنَوِيُّ (طويل) :

لَعَمْرُكُمَا إن البعيدَ لَمَا مضى
وإن الذي يأتي غـدا لقريـبُ

١٢٣٣ وقال عبد الله بن عبد الأعلى (مجزوء الرمل) :

ليس آتٍ ببعيـدٍ بل قريبٌ مـا سيأتي

١٢٣٤ وقال صالح بن عبد القدوس (سريع) :

مـا أقربَ النازلَ بي في غـدٍ وإن تراخت دارُهُ عن لِقَا

١٢٣٥ وقال أيضاً (طويل) :

ولا بد من إتيان ما حُمَّ في غـد وإن قريبا كل ما هو آتِ

الباب الحادي والأربعون والمائة

فيما قيل في التكلم بالحق والصواب وترك الصمت

١٢٤٨ قال هُبَيْرَةُ بنُ طارقٍ اليَرْبُوعيُّ (طويل) :

لا تَتْرُكَنَّ الصمتَ حُكْماً إذا بَدَا
لك الرُّشْدُ، وانْطِقْ فيه غَيْرَ مُجمْجِمِ
ولكن إذا ما الصمتُ كان حَزَامةً
وخِفْتَ وَبَالَ القول ، فالصمتَ فَالْزَمِ .

(١) حماسة البحتري — دار الكتاب العربي ببيروت — ص ٢٢٨ — ٩ .

١٢٤٩ وقال أيضاً (طويل) :

إذا كنتَ ذا علم فلا تـك صامتـا
عن القول بالأمر الذي أنت خَابِرُهْ
فإن سكوت المرء عِيٌّ يَشينُـــــهُ
كما نُطْقُهُ عِيٌّ إذا جاش خاطره

فالباب الأول منهما يتكون من أربع حماسيات ، كل حماسية بيت واحد ، والباب الثاني يتكون من حماسيتين ، كل منهما في بيتين اثنين . وهذا إمعان في تقصي المعاني الجزئية المفردة ، يدل على خبرة حقيقية بآفاق الشعر العربي القديم ، ويكلف صاحبه كثيراً من العناء . ولو شاء دارس محدث أن يصنف معاني الشعر العربي القديم لأنفق في هذا سني حياته ما لم يسترشد بحماسة البحتري . ومع ذلك فمن غير المحتمل أن يضيف إليها كثيراً .

(هـ) ومع كل ما لحماسة البحتري من قيمة ، لم يقدر لها أن تلقى الرواج قديماً ، وأن تصادف من يعنى بها في عهد الشراح القدامى رواية وتحقيقاً وشرحاً . وقد كان من الممكن أن تفقد نهائياً كما فقد غيرها من الذخائر ، لولا أن الحظ أسعد المستشرق الهولندي ڤارنر L. Varner في منتصف القرن السابع عشر في العثور على نسخة منها في القسطنطينية، فنقلها ضمن عدد آخر من المخطوطات إلى جامعة ليدن ، وعنها أخذ الأب لويس شيخو اليسوعي النسخة التي نشرها في بيروت للمرة الأولى في سنة ١٩١٠ ، ثم طبعت طبعة أخرى في مصر في سنة ١٩٢٩ بتحقيق كمال مصطفى ، فيها نقص عن الطبعة السابقة ، ثم صدرت أخيراً الطبعة الثانية لطبعة لويس شيخو عن دار الكتاب العربي في بيروت في سنة ١٩٦٧ وقد نقحت وزيد بها فهارس للشعراء وتعليقات ، وإن كانت ما تزال تفتقر إلى الشرح .

٣ - الحماسة الشجرية

(أ) الحماسة الشجرية هي الحماسة المنسوبة إلى الشريف ضياء الدين أبي السعادات هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة بن علي بن عبدالله بن أبي الحسن. وينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وهو يعرف بابن الشجري البغدادي ، ومن ثم سميت حماسته . وقد ولد أبو السعادات في منتصف القرن الخامس الهجري تماماً (سنة ٤٥٠ هـ) وتوفي قبيل منتصف القرن السادس (٥٤٢ هـ) .

كان يقول الشعر ، ولكنه كان إلى الشعراء النظامين أقرب منه إلى الشعراء المبدعين .

قرأ الحديث والمغازي ، وأخذ اللغة والنحو عن شيوخهما في عصره ، حتى صار إماماً في النحو واللغة والمعرفة بالشعر . وقد أثنى عليه من ترجموا له من القدماء .

وله من المؤلفات كتاب الأمالي (١) ، وكتاب الانتصار ، وشرح التصريف الملوكي ، وشرح اللُّمَع في النحو ، وكتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه ،

---

(١) سيرد الحديث عنه في الفصل التالي .

ثم ديوان مختارات أشعار العرب [1] ، وأخيراً الحماسة .

(ب) ولا شك في ان ابن الشجري وضع أمامه أول نموذجين من نماذج الحماسة ، وهما حماسة أبي تمام وحماسة البحتري ، وأنه شاء أن يجمع في حماسته ما فيهما من فضائل .

وبيان ذلك أنه سار في تصنيف حماسته وفقاً لتصنيف أبي تمام، من حيث تقسيمها إلى أبواب، يضم كل باب منها ما قيل في فن من فنون الشعر العربي.

---

(١) في مجال تصنيف الشعر يضع ابن الشجري رجلا مع جماعة المفضل الضبي وأخرى مع جماعة أبي تمام ، وكتاب ديوان مختارات أشعار العرب مصنف في الشعر على غرار المفضليات ؛ فهو يضم قصائد كاملة ، بلغ عددها خمسا وخمسين قصيدة ، سوى ما يتخللها من مقطعات . وقد قسمت إلى أقسام ثلاثة، في الأول منها اثنتا عشرة قصيدة: واحدة للقيط بن يعمر الإيادي ، وواحدة لقعنب بن أم صاحب ، وواحدة لأعشى باهلة ، وواحدة للنمر بن تولب ، وواحدة للشنفرى ، وواحدة لكعب بن سعد الغنوي ، واثنتان للمتلمس،واثنتان لطرفة . وفي القسم الثاني خمس وعشرون قصيدة: سبع منها لزهير ، وست لبشر بن أبي خازم ، واثنتا عشرة لعبيد بن الأبرص . وفي القسم الثالث والأخير ثلاث عشرة قصيدة كلها للحطيئة ، سوى المقطعات. وواضح أن ابن الشجري قد قصر هذه المختارات على الشعر الجاهلي ، سوى ما كان من أمر الحطيئة ؛ فهو شاعر مخضرم . وبهذا يبلغ عدد الشعراء الذين اختار لهم ثلاثة عشر شاعراً جاهلياً وشاعراً واحداً مخضرماً . ولم تخضع هذه المختارات لأي نظام بعينه أو أي تبويب ، شأنها في هذا شأن المفضليات . وهي في الوقت نفسه محدودة الحجم ، محدودة المجال . ولا أساس للاختيار فيها سوى الاستحسان الذوقي الصرف . وكل ما يمكن أن تتميز به على المفضليات وما دار في فلكها هو تلك المقدمات التي قدمها الشجري بين يدي القصائد ، والتي ذكر فيها أطرافاً من أخبار أصحابها والمناسبات التي قيلت فيها .

وقد طبعت هذه المختارات في مصر في سنة ١٣٠٦ هـ ولكنها طبعة رديئة . ثم طبعت في مطبعة الاعتماد في القاهرة في سنة ١٩٢٥ طبعة جيدة ، عني فيها محمود حسن زناتي بضبطها وشرحها

ولكنه مع ذلك خالفه في عدد هذه الأبواب ، فكانت عنده تسعة في حين كانت عند أبي تمام عشرة ؛ ذلك أن الشجري أسقط في حماسته باب السير والنعاس .

ومن جهة أخرى نجد في حماسة أبي تمام باب مذمة النساء ، ولا نظير له في الحماسة الشجرية ، وإنما يحل محله باب آخر هو باب اللوم والعتاب .

ومن جهة ثالثة يستهل أبو تمام حماسته بباب الحماسة . وهو — على نحو ما عرفنا — أضخم الأبواب فيها . أما ابن الشجري فلا يستخدم هذه التسمية لأول وأضخم أبواب حماسته ، بل يسميه باب الشدة والشجاعة . وكذلك يسمي أبو تمام بابه السابع باب الصفات . ويقابله الباب الثامن في حماسة الشجري ويحمل اسم باب الصفات والتشبيهات .

أما تأثره بحماسة البحتري فقد تمثل على نحو جزئي . ويمكننا أن نلاحظ أنه — مثل البحتري — لم يُسَمّ بابا باسم باب الحماسة . وتسمية مختاراته جميعاً باسم الحماسة لا تتعلق بالباب الأول منها . كما كان الشأن في تسمية حماسة أبي تمام . بل هي تسمية تشي بمجرد المجاراة لأبي تمام في هذا الطراز من الاختيار والتصنيف الشعري . وهذا ما تمثل كذلك بالنسبة لتسمية مختارات البحتري بالحماسة . ولكن أهم من هذا محاولة ابن الشجري تفتيت بعض أبواب حماسته — وعلى التحديد باب النسيب وباب الصفات والتشبيهات — إلى أقسام معنوية جزئية .

(ج) وقد اختار ابن الشجري في حماسته لثلاثمائة وخمسة وستين شاعراً ذكر أسماءهم . سوى من لم يذكر أسماءهم . وبالنظر في التوزيع التاريخي لهذه الأسماء يتبين لنا أن ابن الشجري حذا حذو أبي تمام في الامتداد بمختاراته إلى المحدثين . ولأنه عاش ما يقرب من نصف عمره في القرن السادس الهجري فقد امتد في هذا الاختيار إلى بعض معاصريه . ومن ثم يمكننا أحصاء ما لا يقل عن ثلاثين شاعراً عباسياً في حماسته . وكذلك تضمنت مختاراته كثيراً من

أشعار النساء في الرثاء والمدح والغزل . أما النماذج المختارة فقد بلغ مجموعها أربعة وأربعين وتسعمائة نموذج .

ويغلب على هذه النماذج صفة المقطعات ، شأن الحماسات السابقة ، ولكنها في مجملها ضئيلة الحجم ، وكثيراً ما تكون المقطعة بيتاً واحداً — على نحو ما سنرى .

(ج) ١ — وقد استغل ابن الشجري معرفته بالأخبار ومناسبات الأشعار وكان كثيراً ما يقدم بين يدي الحماسية بما يشير إلى مناسبتها . وفي بعض الأحيان كان يسرد ما يشبه القصة عن طريق النماذج الشعرية المختارة ، المتعلقة بواقعة واحدة .

فهو مثلاً ينقل عن أبي الفرج الأصفهاني قوله : « ذكروا أن عمرو بن معديكرب خرج في خيل من زبيد يريد غطفان، فبينما هو يسير وقد انفرد ن أصحابه في ليلة باردة إذ سمع رجلا يقول :

أما من فتى لا يخاف العَطَبْ ... يُبَلِّغ عمرَو بن َمَعْديكرب(١)
بأنا مَنوطون في مازن ... بأرجُلنا مثل نَوْطِ القِرب
فإن هو لم يأتنا مُصْرِخاً ... فيكشفَ عنا ظلام الكُرَب
وإلا استغثنا بعبد المَدَان ... وعبد المدان لها إن طُلب

ثم نادى : يا عمراه ! فعلم عمرو أنه أسير في بني مازن بن صعصعة ، فقال لأصحابه : مكانكم ! واقتحم على القوم وحده ؛ فإذا هم يصطلون ، فقال : أنا أبو ثور . فبادر إليه القوم يقاتلونه ، فلم يزل يقاتلهم حتى استعفَوْه، وقالوا : إنا لله . والله إننا نعلم أنك لم تأتنا وحدك ، فلك الأسرى واكفف عنا خيلك ! ففعل ، ثم قال للأسرى : هل علمتم موضعي حين أنشد منشدكم ما

(١) الحماسية رقم ٢٤ .

سمعت ؟ قالوا : لا والله . وما أمسينا منذ أسرنا أشد يأساً من الحياة ، وإيقاناً بالهلاك ، منا الليلة .

وفي ذلك يقول عمرو :

ألم تر لمّا ضمنـا البلدُ القفـرُ
سمعت نداء يصدع القلب: يا عمرُو ![1]
أجِرْنـا فإنـا عصبة مَذْحِجِيّة
نُنَاطُ على وفْرٍ وليس لنا وفر
تكلفنا — يا عمرو — ما ليسَ عندنا
هَوَازِنُ ، فانظر ما الذي صنع الدهر
فقلت لخيلي أنظـروني فإنـني
سريع إليكم حين ينصدع الفجر
وأقحمت نفسي حين صادفت غِرّةً
من القوم، حتى قلت: قد عُقِر المُهْر
فأنجيت أسرى مذحج من هـوازن
ولم يُنْجِهم إلا السكينة والصبر».[2]

وهكذا تصبح الحماسية الأولى مقدمة وتفسيراً للحماسية الثانية .

ولكن ابن الشجري يطيل أحياناً في ذكر إحدى القصص التي يتخللها الشعر، فيعد كل نموذج منه حماسية، إلى أن يصل إلى الحماسية الختامية . ومثال ذلك قوله :

« روى ابن دريد قال : أخبرنا الرياشي عن الأصمعي قال : حدثني

---

(١) الحماسية رقم ٢٥ .
(٢) الحماسة الشجرية ١/٤٠ — ٤٣ .

مُنْتَجِع بن نَبْهان قال : أخبرني رجل من بني الصيداء من أهل الصريم قال : كنت أهوى جارية من باهلة فأخافني قومها وأخذوا عليّ المسالك ، فخرجت ذات يوم فإذا حمامات يسجعن في أفنان أيكات متناوحات في سرارة وادٍ ، فاستفزني الشوق ، فركبت وأنا أقول :

دَعَتْ فوق أغصان من الأيْك غُدْوةً
مُطَوَّقةٌ ورقاءُ في إثر آلِفِ (١)

فهاجت عقابيلَ الهوى إذ ترنمت
وشبت ضرامَ الشوق بين الشراسف

بكت بجفون دمعها غير ذارف
فأغرت جفوني بالدموع الذوارف

ثم سرت فأتيت أرضها فآواني الليل إلى حي فخفت أن يكونوا من قومها فبت في القفر . فلما هدأت الرجل ورنّقت في عيني سِنَة ، إذا قائل يقول :

تمتع من شميم عَرَارِ نجد
فما بعد العشية من عرارِ (٢)

فتفاءلت — علم الله — ثم غلبتني عيناي فإذا آخر يقول :

ولا منّي بعد اليوم إلا تَعِلّةً
من الطيف، أو تَلْقَى لها منزلا قفراً(٣)

فزادني ذلك قلقاً فنمت . فإذا ثالث يقول :

---

(١) الحماسية رقم ٤٣٧ .
(٢) الحماسية رقم ٤٣٨ .
(٣) الحماسية رقم ٤٣٩ .

لن يبيث القرنـــاء أن يتفرقـــوا
ليل يكُـرُّ عليهـــم ونهـــــارُ [(١)]

فقمت وركبت ناقتي متنكباً الطريق . فلما برق الفجر إذا راع مع الشروق قد سرح غنماً وهو يتمثل :

كفى بالليـــالي مخلفاتٍ لجِـــدّةٍ
وبالموتِ قطّاعا حبال القرائنِ [(٢)]

فأظلمت عليّ الأرض ، فتأملته فعرفته ، فقلت : فلان ؟ فقال : فلان . قلت ما وراءك ؟ قال : ضاجعتْ والله رَمْلَةُ الثرى . فما تمالكت أن سقطت عن بعيري فما أفقت حتى حميت عليّ الشمس ، فاستيقظت وقد عقل الغلام ناقتي ومضى ، فكررت وأنا أقول :

يا راعي الضأن قد أبقيت لي كمـــداً
يبقى ويقلقني يا راعي الضان [(٣)]
نَعَيْتُ نفسي إلى نفسي فكيف إذن
أبقى ونفسيَ في أثناء أكفان ؟ ! » [(٤)]

ففي هذه القصة ترد أربع حماسيات كل واحدة منها بيت واحد . وقد روى ابن الشجري هذه القصة في باب النسيب من حماسته . وفي تقديرنا أن بعض الحماسيات الواردة في هذه القصة لا تمت إلى باب النسيب بصلة . ويبدو لنا أن طابع « الأمالي » كان يغلب على ابن الشجري في مثل هذه الحالات وهو ــ كما عرفنا ــ واحد من مؤلفي الأمالي .

---

(١) الحماسية رقم ٤٤٠ .
(٢) الحماسية رقم ٤٤١ .
(٣) الحماسية رقم ٤٤٢ .
(٤) الحماسة الشجرية ١/٥١٢ ــ ٥١٥ .

(ج) ٢ — ويبدو أن ابن الشجري — لتأخره — كان قد تأثر بالأفكار البلاغية والنقدية التي اسساس الحديث فيها في القرن الرابع الهجري وبعده . وقد ظهر هذا الأثر واضحاً فيما سماه باب الصفات والتشبيهات في حماسته . فهو يعني بالصفات هنا صفات النساء ، حيث يورد في الفصول الأولى من هذا الباب ما قيل عن « طيب النكهة وعذوبة الريق » ؛ وعن « طيب الريح » ، وعن « وصف العين والنظر » ، وعن « حسن الحديث وطيبه » ... ولكنه يعني بها كذلك وصف الطبيعة ، فيورد ما قيل في « وصف النار » وفي « صفات التنائف والوحش والإبل والركب وأخبية السفر » . ثم يعود فيمزج الصفات بالتشبيهات ، فيورد نماذج من الصفات والتشبيهات في الليل والنجوم والمجرة والهلال والصبح والرياض والمياه والنبات والسحاب والغيث والبرق . ثم ينتقل من الطبيعة إلى صفات آلة الحرب وتشبيهاتها .. الخ .

ويمثل هذا الباب الذي هو أضخم الأبواب في حماسة ابن الشجري أساساً جديداً في الاختيار . إنه يضيف إلى التفريع المعنوي الذي رأيناه في حماسة البحتري عناية خاصة بالتشبيهات الفنية الرائعة في كل الأغراض الرئيسية والمعاني الفرعية . وهذا كله من أثر ذيوع الأفكار البلاغية .

وكذلك نلاحظ أن ابن الشجري كان في حماسته متأثراً كذلك ببعض الأفكار النقدية التي كان الحديث قد استفاض عنها قبل عصره . ومن ذلك قضية السرقات الشعرية . فهو في بعض الأحيان يورد الحماسية ثم يتبعها بأخرى أخذت عنها وينص على هذا الأخذ . ومن أمثلة ذلك قوله :

« وقال القاسم بن أمية بن أبي الصلت الثقفي :

ولقد بلوت الناس ثم خبرتهم	فوجدت أكرمهم بني الديّانِ
قوم إذا نزل الغريب بدارهم	جعلوه ربَّ صواهل وقيان
وإذا دعوتهمُ ليوم كريهة	سدوا شعاع الشمس بالمرّان

لا ينكتون الأرض عند سؤالهم — لِتَطَلُّبِ العِلاَّت — بالعيدان
بل يبسطون وجوههم فترى لها عند اللقاء كأحسن الألــوان

اتبعه سَلْمُ الخاسر في قوله لا ينكتون الأرض ... فقال :

إذا نزل الفضل بن يحيى ببلــدة رأيت بها عشب المكارم ينبت
وليس بِسَعّالٍ إذا سِيلَ حاجة ولا بمكب في ثرى الأرض ينكت» [1]

ومن أمثلته كذلك قوله :

« وقال بشار :

إذا ادخر المال البخيل فإنمــــا ذخائرهم خَطّيّــةٌ ودروعُ
وبيض بها مسك لِمَسٍّ أكفهم على أنها ريحَ الدماء تضــوع

أخذه ابن المعتز فقال :

ملوك إذا خاضوا الوغى فسيوفهــم
مقابضها مسك وسائرها دَمْ » [2]

وواضح من هذا أن ابن الشجري كان يصنع صنيع نقاد الشعر في رصدهم للسرقات الشعرية . وهذا المنهج يخالف منهج الحماسة وفكرة الاختيار ، وإن كان مفيداً في قضية السرقات وفي رصد تطور المعاني الأدبية .

(د) وقد طبعت الحماسة الشجرية طبعتين ، الأولى بعناية المستشرق الألماني فريتس كرنكو عن أصول خطية لها في المتحف البريطاني ولندن وباريس . وقد صدرت عن مجلس دائرة المعارف العثمانية في حيدر أباد في الهند في سنة ١٣٤٥ هـ . وهي طبعة خالية من الشرح ، والشكل فيها قليل . أما الطبعة الثانية

---

(١) الحماسة الشجرية ١/٣٧٥ — ٣٧٧ .
(٢) الحماسة الشجرية ١/٣٩٤ — ٣٩٥ .

فقد صدرت في دمشق ضمن منشورات وزارة الثقافة بتحقيق عبد المعين الملوحي وأسماء الحمصي في سنة ١٩٧٠ عن مخطوطة بدار الكتب الوطنية الظاهرية ، مستأنسين بمخطوطة المتحف البريطاني وبطبعة كرنكو . وقد اشتملت هذه الطبعة على تخريج للشعر وضبط له مع شرح الغريب ، كما ألحقت بها فهارس متنوعة ومفيدة .

٤ - الحماسة البصرية

(أ) تنسب هذه الحماسة إلى مصنفها صدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري الأصل ، (الواسطي المنشأ[1]) . وتاريخ مولده غير معروف ، أما وفاته فالمعتقد أنه كان واحداً من العلماء والأدباء الذين قتلوا مع الملك الناصر وحشمه حين هجم هولاكو على مدينة حلب في سنة ٦٥٩ هـ ، والغريب حقاً أن تخلو كتب معاصريه ومن جاءوا بعده من الترجمة له ، مع أن هناك من الشواهد ما يؤكد أنه لم يكن مغموراً حتى يهمل ، بل على العكس ، كانت مكانته لدى السلاطين وبين علماء عصره مشهودة . وهذا هو ابن العديم (ت ٦٦٠ هـ) صاحب كتاب « بغية الطلب في تاريخ حلب » الذي يقع في الأربعين مجلداً ، وكان معاصراً للبصري ، يقول في تقريظه حماسة البصري : « مؤلفها الشيخ الأجل الكبير ، الفاضل العالم الكامل ، جامع أشتات الفضائل ، المتميز بنعم العلوم الجلائل ، صدر الدين بهاء الإسلام والمسلمين ، جليس الملوك والسلاطين ، لسان الأدب وحجة العرب ، الراقي في مدارج العلوم إلى أعلى الرتب .. »[2] ولم يكن ابن العديم وحده الذي قرظ هذه الحماسة وأثنى على صاحبها ، بل قرظها وأثنى على صاحبها معه أحد

(١) من تقريظ فخر الدين الواسطي — انظر خاتمة الحماسة البصرية ، ص ١٩ .
(٢) خاتمة الحماسة البصرية ، ص ٤ .

عشر رجلا لهم وزنهم ، كابن القفطي وابن مالك النحوي وفخر الدين الواسيطي النحوي — دون أن نذكر الآخرين . ومع كل هذا تظل حياة صاحب هذه الحماسة مجهولة ، سوى ما ينسب إليه من تأليف كتاب آخر ما يزال مخطوطاً في المكتبة الأهلية بباريس عنوانه « المناقب العباسية والمفاخر المستنصرية » ، وهو مختصر في تاريخ الدولة العباسية .

ويبدو أن البصري قد صنف هذه الحماسة للملك الناصر نفسه ؛ فقد « قضى أمداً بعيداً في ملازمة صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن الملك العزيز ابن الملك الظاهر (٦٢٧ — ٦٥٩ هـ) أمير حلب ، وهذا هو الزمن الذيّ رتبت فيه — كما يقول حاجي خليفة — الحماسة البصرية » . [١] ويؤكد هذا أن البصري نفسه في مقدمة حماسته يقول : « .. لما كانت المجاميع الشعرية صقال الأذهان ، ولأنواع المعاني كالترجمان ، وكان مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين ، ناصر الإسلام والمسلمين ، أبو المظفر يوسف بن الملك العزيز بن الملك الظاهر ، لا زال نافذ الأوامر ، في كل نجد وغائر ، لَهِجاً بأشعار العرب التي هي ديوان الأدب ، توخيت في تحرير مجموع محتو على قلائد أشعارهم ، وغرر أخبارهم ... » [٢]

(ب) وقد صنف البصري حماسته في اثني عشر بابا هي : باب الحماسة ، باب المديح والتقريظ ، باب الرثاء والتأبين ، باب الأدب ، باب النسيب والغزل ، باب الأضياف ، باب الهجاء ، باب مذمة النساء ، باب الصفات والنعوت ، باب السير والنعاس ، باب الملح والمجون ، باب ما جاء في أكاذيبهم وخرافاتهم ، باب ملح الترقيص ، وأخيراً باب الإنابة والزهد .

وقد بلغ مجموع المختارات في هذه الأبواب ألفا ومائة وإحدى وستين

---

(٣) الحماسة البصرية — مقدمة التحقيق ، ص ٢٣

(٤) مقدمة الحماسة البصرية ، ص ١ — ٢

حماسية ، خلافاً لما ذكره آخرون [1] وأكثر هذه الأبواب عدد مختارات هو باب النسيب والغزل ، إذ ورد به ثلاثمائة وثمانية وأربعون نموذجاً ، ويليه باب الحماسة (٢٤٣ نموذجاً) ، وأقل هذه الأبواب هما بابا « ما جاء في أكاذيبهم وخرافاتهم » و « ملح الترقيص » ، حيث اشتمل الأول على عشرة نماذج ، والثاني على تسعة . وهذان البابان ، ومعهما باب الإنابة والزهد ، من الأبواب التي لم نعهدها في الحماسات السابقة : أو على الأقل لم تُفرد لها أبواب مستقلة .

(ج) والمتأمل في هذه الحماسة يدرك أن صاحبها قد تأثر كثيراً بحماسة أبي تمام ؛ فهو يفرد للسير والنعاس بابا مثله . لكن الأمر يتجاوز التأثر الشكلي ؛ إذ استمد البصري كثيراً من حماسياته من حماسة أبي تمام ، بخاصة في الباب الأول . وأيضاً فقد أفاد البصري كثيراً من حماسة الخالديين بصفة خاصة ، ومن حماسة البحتري والحماسة الشجرية ، وكتب الأدب ، كزهر الآداب للحصري ، وديوان المعاني لأبي هلال العسكري ، وغيرها ، بصفة عامة . وعلى الرغم من أن أبا تمام كان قد فتح الباب للاختيار من أشعار المحدثين ، وأن ابن الشجري جاراه في هذا الصدد فوسع من هذا الباب — لم يتأثر بهما البصري من هذه الجهة ، فلم يتجاوز شعراء القرن الثاني إلى القرن الثالث إلا قليلاً ، وظل القدر الأكبر والأعظم من مختاراته من الشعر القديم . أما شعراء القرن الرابع والخامس والسادس حتى منتصف السابع (أنجز البصري حماسته في صورتها الأولية في سنة ٦٤٧ هـ قبل أن يتناولها بالمراجعة والصقل والإضافة) فلا ذكر لهم . والغريب بعد كل هذا أن العلماء من معاصري البصري ، الذين

(١) جعلها عبدالله الجبوري ١٦٦١ قصيدة ومقطعة . (انظر مقدمته للتذكرة السعدية — المكتبة الأهلية في بغداد ١٩٧٢ — ص ١٣) وجعلها الدكتور مصطفى الشكعة ١٦٤٨ (انظر كتابه « مناهج التأليف عند العلماء العرب — دار العلم للملايين في بيروت ١٩٧٣ « ص ٥٢٢) .

قرظوا حماسته وأثنوا عليها ، لم يمتهم أن يوازنوا بينها وبين الحماسات السابقة ، ولكن ليفضلوها على هذه الحماسات جميعاً .

يقول ابن العديم مثلاً : « .. لو قارب عصره ابن قريب (يعني عبد الملك بن قريب الأصمعي صاحب الأصمعيات) لأقر لاختياره بالنقص والعيب ، ولو عرفه المفضل لاعترف أنه على كتابه المفضل ، ولو ناظره حبيب (يعني أبا تمام) لنظر إلى أنه في حماسته غير مصيب ، ولو شاهده أبو عبادة (يعني البحتري) لشهد له بالتقدم والإجادة » . [1]

وفي هذه الأحكام كثير من المبالغة ، إن لم تكن مجافية للعدالة .

ويبدو أن البصري نفسه لم يكن ينقصه عيب الادعاء ؛ فهو في مقدمة حماسته يشير إلى أن الخالديين في حماستهما « قد نسبا فيها أشياء إلى غير قائلها » . [2] وقد تتبعه محقق حماسته فأثبت له قدراً كبيراً من الأخطاء في نسبة الأشعار إلى غير قائليها ، وفي أسماء الشعراء أنفسهم ، وفي إدخاله أبيات شاعر في شعر آخر ، ثم في نسبة الشاعر إلى غير عصره الذي عاش فيه .

ومن جهة أخرى يمكننا أن نلاحظ في حماسة البصري أن فكرة الاختيار لم تتحقق دائماً بمعناها الأول ، وهو أن تكون النماذج المختارة ممثلة لمستوى فني رفيع . ذلك أننا كثيراً ما نصطدم في مختارات البصري بنماذج غثة من الشعر ، أو من مستوى لا يدل على الاقتدار والإبداع والأصالة . مثال ذلك الحماسية رقم ٢٥٤ من باب النسيب والغزل ، وهي مجهولة المؤلف . يقول صاحبها :

ليل المحبين مَطْويٌّ جوانحــه ... مُشْـمَّرُ الذيل منسوب إلى القِصرِ
ما ذاك إلا لأن الصبح يحسدهــم ... فأطْلَعَ الشمس من غيظ على القمر

(١) انظر التقاريظ الملحقة بالحماسة البصرية ، ص ٥

(٢) مقدمته للحماسة ، ص ٢

أو قول شاعر آخر مجهول (الحماسية رقم ٥٣ من باب السير والنعاس) :

أتيت مهاجريــن فعلموني ثلاثــة أسطر متتابعــاتِ
كتاب الله في رَقٍّ جديــد وآيات القُــرآنِ مفصلات
وخطُّوا لي أبا جاد وقالــوا تعلم سَعْفَصــاً وقُرَيْشَات
فما لي والكتابــة والتهجي وما حظ البنين من البنـات

وغير ذلك من الشعر الهابط كثير . ومن الطريف أن معظم ما في الحماسة من شعر لم يذكر قائله هو من هذا المستوى . وقد نستدل من هذا على ذوق البصري نفسه ، وعندئذ يظهر البون الشاسع بينه وبين أبي تمام والبحتري والخالديين وابن الشجري ، وقبلهم الأصمعي والمفضل الضبي . ولكننا نستدل كذلك على سبب تضخم حماسة البصري ، إذ هي بحق أضخم من كل ما سبقها من اختيارات وحماسات .

أضف إلى كل هذا أن البصري كان أحياناً يورد في الحماسية بيتاً مفرداً صحيح أننا نجد هذا في بعض الحماسات السابقة — وإن كان قليلاً نسبياً — لكن الملاحظ أن هذه الأبيات المفردة كانت في تلك الحماسات تؤدي شيئاً ، في حين أنها عند البصري تكون مجرد تأهب من الشاعر للدخول إلى موضوعه ، أو بلورة المعنى الذي يريده . ومثال ذلك الحماسية رقم ٥٩ من باب الصفات والنعوت ، حيث يقول : وقال الشماخ يصف دمنة :

أمِن دِمْنَتَيْنِ عرّج الركبُ فيهما
بحقل الرخامى قــد عفا طللاهمــا

فليس في هذا البيت سوى أن الدمنتين قد عفا طللاهما . ولا معنى لجعل هذا البيت حماسية مختارة في ذلك الباب .

وكذلك قوله في مستهل باب الهجاء :

« ١ — قال الحطيئة جرول العبسي يهجو الزبرقان بن بدر :

لمّا بدا ليَ منكم عيبُ أنفسكم ... ولم يكن بجراحي منكمُ آسِي

٢ — وقال أيضاً :

يأيها الملك الذي أمست لــه ... بُصْرَى وغزة سهلها والاجرعُ »

ففي البيت الأول بدأ الشاعر الهجاء ولما يكد ، بل إن الكلام نفسه ما زال مغلقاً . أما البيت الثاني فلا يظهر فيه أي ظل للهجاء . والبيتان — بعد — ليسا مما يتميز من القول فيختار .

(د) وبعد كل هذا لا تخلو هذه الحماسة من فضائل . فقد قدم لها البصري بمقدمة قصيرة حدد فيها معاني الفنون الشعرية المختلفة . كالحماسة والمدح والفخر والرثاء والأدب .. الخ . وإن كان الاجتهاد فيها يسيراً . ولكنه كان يجتهد أحياناً في محاولة نسبة الشعر نسبة صحيحة إلى قائله ، كأن يقول مثلاً في تقديمه للحماسية رقم ٢٥٤ من باب النسيب والغزل : « وقال أبو العوام بن كعب بن زهير بن أبي سلمى ، ومنهم من ينسبها للحسين بن مطير ، وبعضها لكثيِّر ، والأول أصح » . فإذا لم يكن عارفاً بالنسبة الصحيحة سكت عن الترجيح . مثال هذا قوله في تقديم الحماسية رقم ١٦ من باب الأضياف : « وقال مُضَرِّس بن ربعي بن لقيط الأسدي ، ومنهم من ينسبها إلى شبيب بن البرصاء ، وقيل إنها لعوف بن الأحوص الكلابي ، وفيها اختلاف روايات » .

وكذلك يلاحظ أن البصري كان متأثراً في بعض الأحيان بروح منهج البحتري في حماسته ، حيث يحاول في داخل الباب الواحد إيراد عدد من النماذج الشعرية التي تصور معنى جزئياً من المعاني التي تتصل بهذا الباب . ومثال هذا ما أورده في الحماسيات الثانية والثالثة والرابعة من باب الأدب ، حيث يقول :

٢ — وقال الأعور الشنّي (أموي الشعر)

وهوّنْ عليك فإن الأمور بكف الإله مقاديرها

فليس بآتيك مَنْهِيُّها ولا قاصر عنك مأمورها

٣ ـ وقال آخر :

لا تيأسَنَّ وإن طالت مطالبة إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

٤ ـ وقال أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم :

لا تيأسَنَّ ، إذا ما ضقت ، من فرج
يأتي به الله في الروحات والدّلَجِ
فما تجرع كأس الصبر معتصم
بالله إلا أتاه الله بالفرج

فهذه النماذج الثلاثة المتتالية في باب الأدب تدور حول معنى واحد ، أفرد له البحتري بابا في حماسته هو الباب الخامس والثلاثون بعد المائة ، باسم « ما قيل في الرخاء بعد الشدة » . (١)

ومعنى هذا أن البصري كان يحاول أحياناً أن يراعي نوعاً من التوافق المعنوي بين بعض المختارات ، فجمع المتوافق منها بعضه إلى بعض .

(٨) وإذا كان مصنف الحماسة لم يظفر باهتمام أصحاب التراجم والتواريخ فإن حماسته كذلك لم تظفر بعناية واحد من الشراح . وقد صدرت طبعتها الأولى في سنة ١٩٦٤ في السلسلة الجديدة من مطبوعات دائرة المعارف العثمانية في حيدر اباد الدكن بالهند ، بعناية الدكتور مختار الدين أحمد الهندي . وجهده في التحقيق ملحوظ ، ولكن لغته العربية سقيمة وفي بعض الأحيان غير مبينة ، فضلاً عن أن الشعر في هذه الطبعة غير مشكول وغير مشروح . وهذا عيب جوهري ، تخلو منه التحقيقات العلمية الحديثة .

---

(١) انظر حماسة البحتري ، ص ٢٢٣ .

٥ - حماسة العبيدي*

(التذكرة السعدية في الأشعار العربية)

(أ) إذا كانت المعلومات المتاحة عن مصنف الحماسة البصرية ضئيلة فأضأل منها كثيراً ما هو متاح من معلومات عن مصنف هذه الحماسة المعروفة باسم « التذكرة السعدية في الأشعار العربية » . وهذه المعلومات نفسها إنما تستمد من الحماسة ذاتها ، إذ لم يشر إلى هذه الحماسة وصاحبها واحد من علماء الأدب أو المؤرخين القدامى . ومن ثم دلنا مصنف هذه الحماسة في نهايتها على اسمه فإذا هو محمد بن عبد الرحمن بن عبد المجيد العبيدي . ولولا هذه الإشارة لما اهتدى أحد إليه . وهو يدلنا كذلك في هذا الموضع نفسه على تاريخ انتهائه من تصنيف هذه المختارات حيث يقول : تم الكتاب على يد مؤلفه أضعف عباد الله تعالى وأحوجهم إلى عفو ربه الحميد ، محمد بن عبد الرحمن بن عبد المجيد العبيدي ، أصلح الله شأنه وصانه عما شانه ، بحق محمد وآله أجمعين ، في شوال سنة اثنتين وسبعمائة .

(*) هذه التسمية من عندنا ، ونراها أنسب في الدلالة على الكتاب ، وأيسر في التداول . أما التذكرة السعدية فنسبة إلى الوزير الذي صنفت المختارات في عهده ، والذي لا نعرف عنه كثيراً .

(ب) فإذا كررنا من الخاتمة إلى المقدمة رجدنا العبيدي يشرح لنا قصة تصنيفه هذه المختارات ، حيث يقول : سبق مني جمع كتاب مشتمل على لطايف أشعار المحدثين من النسيب ، محتو على نخب ما سمح خواطرهم من الغزل والتشبيب ، وسميته : (النزهة السعدية في الأشعار العربية) ... فأقبلت الجماعة على حفظه ودرايته ، وبحثه وقراءته . فالتمسوا مني أن أجمع مجموعة متضمنة لطائف شعر المتقدمين ، وطرائف قريض الجاهليين والمخضرمين ، في فنون شتى ، فرأيت التماس ما اقترحوا عليّ أولى وأحرى ، فأقدمت على اختيار ما هو نفيس المعنى ، بارع اللفظ والفحوى ، مختار السبك ، مستقيم الرصف ، جميل المطلع ، حسن المقطع ، مادة للمترسل والشاعر ، متكفل بشحذ الذهن وجلاء الخاطر ، من الحماسات الثلاثة (كذا) التي وقعت إليّ : حماسة أبي تمام حبيب بن أوس الطائي ، وحماسة أبي هلال الحسن بن عبدالله بن سهل ، وحماسة الشيخ أحمد بن فارس ، رحمهم الله ، مضيفاً إليها لطائف أشعار المحدثين ، وطرائف قريض المتأخرين . في آخر كل باب ، سالكاً طريق الاختصار دون الإطناب . وأضم أيضاً إليها أبواباً أخر في أصناف الشعر : لما يحتاج إليها في المكاتبات والمراسلات والمحاورات ، وليست في هذه الحماسات ... وسميتها (التذكرة السعدية في الأشعار العربية) .

وهكذا بدأت عملية الاختيار في نطاق محدود بحدود لطائف أشعار المحدثين في الغزل والنسيب ، ثم اتسعت لكي تأخذ شكل الحماسة بأبوابها المختلفة .

وفي نص العبيدي على مصادره يبرز وجهاً من وجوه أهمية هذه المختارات ، فقد أفاد في هذا المصنف من حماستين — سوى حماسة أبي تمام — هما في حكم المفقود اليوم . وهما حماسة ابن فارس ، وتسمى بالحماسة المحدثة ، وحماسة أبي هلال العسكري . المعروفة بالحماسة العسكرية .

ثم تبرز أهمية أخرى لهذه المختارات التي تمت في مطلع القرن الثامن

الهجري ، حيث تضم « لطائف أشعار المحدثين ، وطرائف قريض المتأخرين» ، فتمثل بهذا مرحلة تطور ونمو لفكرة المختارات الحماسية .

ثم هنالك الإضافة الطريفة التي أفرد لها أبواباً جديدة ، تحرى فيها أن تكون مادة مفيدة لمن يشتغلون من المتأدبين بالمكاتبات والمراسلات ، ومعينة على خوض المحاورات والتبريز فيها .

وفي كل هذا يبدو العبيدي كمن يكمل ما بدأه السابقون . ومن ثم تستمد مختاراته قيمتها التاريخية .

(ج) وقد رتب العبيدي مختاراته في أربعة عشر باباً على النحو التالي :

الأول في الحماسة والافتخار . والثاني في الأدب والحكم والأمثال ، والثالث في النسيب ، والرابع في المدح والاستجداء والاستعطاف والتقاضي ، والخامس في المراثي ، والسادس في الهجاء ، والسابع في الإخوانيات ، والثامن في التهاني ، والتاسع في الاعتذار . والعاشر في الصفات ، والحادي عشر في المعاتبات والشكاية من حوادث الزمان والصبر عليها ، والثاني عشر في الملح . والثالث عشر في الأشياء المتفرقة ، والرابع عشر في الدعاء .

وواضح أن أبواب الحماسة الأساسية مستوعبة فيها ، كالحماسة والفخر والأدب والنسيب والمدح والرثاء والهجاء والوصف (الصفات) والملح ، ولكننا نصادف أبواباً جديدة ، كباب الإخوانيات ، وباب التهاني ، وباب الدعاء . والمتأمل في هذه الأبواب الجديدة يدرك أنها إنما بوبت لكي تستوعب الأغراض الشعرية التي استحدثت في العصر العباسي .

ولا عجب بعد هذا أن تتضخم مختارات العبيدي هذه فتتجاوز كل ما سبقها من مختارات . لقد كان المظنون قبل ظهورها ونشرها أن الحماسة البصرية هي أضخم الحماسات ، حيث ضمت ١١٦١ قصيدة ومقطعة ، ولكن تبين أن حماسة العبيدي تفوقها في هذا الصدد كثيراً ، حيث تنطوي على ما يقرب من

١٧١٠ قصيدة ومقطعة . بعضها يتميز بالطول النسبي . أما شعراؤها فقد نيفوا على ١١٧٥ شاعراً ، معظمهم مشهورون ، وقليل منهم مقلون أو مغمورون ، ونسبة ضئيلة منهم مجهولون .

(د) ولهذه المختارات الشعرية عدد من المزايا نجملها فيما يلي :

١ — أنها تضمنت أشعاراً من حماستين مفقودتين — على نحو ما ذكرنا .

٢ — أنها تضمنت أشعاراً نادرة لعدد من علماء اللغة والأدب وغيرهم ، كأبي عثمان المازني [١] ، والمبرد [٢] وثعلب [٣] والأصمعي [٤] وأبي هلال العسكري [٥] وأبي بكر الخوارزمي [٦] ... وهي أشعار لم يلتفت إليها أحد من أصحاب الحماسات السابقة .

٣ — يرد فيها للشاعر الواحد أحياناً عدد لا بأس به من المختارات في الباب الواحد متتابعة . ففي باب النسيب مثلا يرد لأبي نواس اثنتان وثلاثون قصيدة ومقطعة [٧] متتابعة . وقد ترد المختارات للشاعر الواحد في الباب الواحد مفرقة ؛ ففي باب النسيب نفسه ترد لابن الدُّمَيْنة ثماني مقطعات [٨] تفاريق .

هذا في الباب الواحد ، فإذا جمعت مختارات كل شاعر من كل الأبواب أمكن تكوين ما يشبه الدواوين الصغيرة لكل منهم ، بخاصة المقلين منهم ،

---

(١) التذكرة السعدية ٣٣٧/١ .
(٢) التذكرة ٥١٦/١ .
(٣) التذكرة ٥٢٠/١ .
(٤) نفسه ٣٧٢/١ .
(٥) نفسه ٣٢٧/١ .
(٦) نفسه ٢٤٤/١ .
(٧) نفسه ٥٧٢/١ — ٥٩٠ .
(٨) انظر في باب النسيب المختارات ١ ، ٣ ، ١٣ ، ٤٠ ، ٤٩ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٢١٦ .

أمثال يزيد بن معاوية ، ونصر بن سيّار ، وأبي إسحق الصابي ، وأبي الفرج الببغاء ، والقاضي التنوخي ، وأضرابهم .

٤ ـ احتفظت بنماذج من الشعر لبعض الشعراء ليس لها ذكر في دواوينهم التي نشرت حديثاً ، كالكميت بن زيد ونصيب بن رباح .

٥ ـ أنها تضم أكبر قدر من أشعار المحدثين إلى القرن السابع الهجري .

(هـ) ومن الغريب ألا نجد لهذه المجموعة أي صدى في كتابات المتقدمين ، فضلا عن أن يعنى بها واحد من الشراح . ومن الغريب أيضاً ـ ولكن لحسن الحظ ـ أن النسخة الوحيدة التي كتبها العبيدي بنفسه ، والتي فرغ منها في سنة ٧٠٢ هـ ، هي نفسها النسخة التي عثر عليها منها ، والتي تضمها مجموعة مكتبة أيا صوفيا . وقد أشار إليها مختار الدين أحمد في مقدمته للحماسة البصرية (ص ١٣) التي صدرت في سنة ١٩٦٤ .

وقد قام عبدالله الجبوري بتحقيق هذه النسخة وتخريج أشعارها والترجمة في إيجاز لشعرائها . وجهده في هذا مشكور ، لولا أن قدراً من النصوص الشعرية ذاتها يحتاج إلى مراجعة . وقد صدرت طبعتها الأولى في بغداد في سنة ١٩٧٢ بمساعدة المجمع العلمي العراقي .

الفصل الثانى

مصـــــادر التراث الأدبـــى

مدخل :

تعرفنا في الفصل السابق على عدد من المختارات والمصنفات الشعرية . وتبينا – من خلال العرض – الدوافع الى هذا اللون من الاختيار والتصنيف . والتطور الذي تمثل فيه من الناحية المنهجية . وإن كان – بحكم طبيعة الاختيار الشعري وتصنيفه – تطورا محدودا .

ونود في هذا الفصل أن نعرض لحركة التصنيف والتأليف الأدبي من خلال التعرف على أمهات المصادر الأدبية ، التي جمعت بين دفتيها قدرا هائلا من المعارف العربية ، في حدود ما كان مفهوما من الأدب من أنه « الأخذ من كل شيء بطرف » . ذلك أن هذه المصنفات قد جمعت بين الأخبار والسير والتراجم والقصص والخطب والحكم والأمثال . وكل ما هو من قبيل الثقافة اللغوية ، من نحو وفقه لغة ، وما أشبه . ومن ثم كانت هذه المصنفات أشبه شيء بموسوعات في الثقافة الأدبية العربية بذلك المعنى الموسع .

حقا إن بعض هذه المصنفات قد يغلب عليه الاهتمام بفرع بعينه من فروع هذه الثقافة ، وفقا للاهتمام الشخصي للمصنف نفسه ، ولكن يظل الطابع العام في هذه المصنفات هو خضوعها لمبدأ «الأخذ من كل شيء بطرف» . فالكلام على قاعدة نحوية مثلا يستتبع ذكر الشواهد المختلفة من الشعر القديم أو من القرآن أو من الحديث الشريف أو من الخطب التي تؤكد القاعدة . ثم يكون ذكر الشاهد طريقا إلى

استقصاء الظروف التي قيل فيها ، فتحكى عند ئذ القصة ، طالت أم قصرت ؛ وكذلك يكون الشاهد مستتبعا التعريف بصاحبه إن كان شاعرا أو خطيبا . وربما جر هذا الى إصدار حكم على الشاعر أو الخطيب ، أو الموازنة بينه وبين غيره ممن يدور في نفس الفلك .. وهكذا . وليس هناك مدخل واحد لذكر هذا كله ؛ فإن أي عنصر من هذه العناصر قد يؤدي الحديث فيه إلى العناصر الأخرى . ومن ثم لم يكن غريبا أن نقرأ في كتاب ككتاب « الأغاني » مثـلا ، لأبي الفرج الأصفهاني كثيرا عن أيام العرب وحروبها في الجاهلية ، وأن تكون نقطة البداية للحديث عن هذه الحروب أبياتا قليلة كانت قد وضعت في لحن وصارت من التراث الغنائي .

ولكن إلى جانب هذه الكتب ذات الطابع الموسوعي في مجال الأدب ظهرت مصنفات أخرى لها طابع متميز ، ولها — إلى حد بعيد — منهج واضح وهدف محدد . ومن ذلك كتب الطبقات ، التي صنف فيها الشعراء منذ الجاهلية تصنيفاً قيمياً وتاريخيا في الوقت نفسه ، أو صنف فيها الأدباء الكتاب ، سواء منهم من اشتغل بالأدب بمعناه الواسع القديم ، أو من تخصص في فرع بعينه من فروع العلوم العربية .

ومن هنا فقد قسمنا هذا الفصل إلى قسمين ، نضمن القسم الأول الحديث عن تلك الكتب الأمهات ذات الطابع الأدبي بمعناه الموسع ، وتضمن القسم الثاني نموذجا لكل لون من ألوان التصنيف ذات الطابع المتميز والمنهج المحدد والهدف الواضح ؛ فأخذنا « طبقات الشعراء » لابن سلام نموذجا لكتب طبقات الشعراء ، و « أمالي » القالي نموذجا لكتب الأمالي . وهكذا . وقد حاولنا من خلال العرض أن نتلمس خط التطور في كل هذه المصنفات .

(أ) القســـم الأول
أمهات المصادر الأدبية

١ - البيـــان والتبيـــين

لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

(أ) مؤلفه أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ، الذي عرف بالجاحظ بسبب جحوظ في عينيه . وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا من تاريخ مولده ، فإنهم اتفقوا على أنه توفى عام ٢٥٥ هـ . كما اتفقوا على أنه عُمِّر نحو ٩٦ عاما . ومعنى هذا أنه ولد على وجه التقريب عام ١٥٩ هـ ،أي في عصر المهدي . وامتد به العمر فشهد ما وصل إليه المعتزلة من مجد سياسي وثقافي في عصر المأمون . فلما دالت دولتهم في عصر المتوكل كان الجاحظ ما يزال كاتبا غزير الإنتاج . ثم مرض الجاحظ بالفالج والنقرس في عصر المنتصر والمستعين الله ، وتوفى في خلافة المهتدي بالله .

(أ) — ١ ولد الجاحظ بالبصرة حيث كان الصراع على أشده بين أخلاط من الناس ينتمون إلى أجناس متعددة ، وإلى عقائد متباينة متضاربة . فهذا اليهودي يجلس إلى جانب المسيحي ، وهذان يجلسان إلى جانب المجوسي أو الدهري . فإذا جلس كل هؤلاء إلى المسلم ، فقد يكون هذا المسلم شيعيا زيديا معتدلا ، أو شيعيا من الغلاة ، أو يكون من المحدِّثين الذين يقفون عند حدود النص في الكتاب والسنة ، وهكذا . وفي هذه البيئة الثقافية المعقدة ، التي سيطر عليها عامة الناس لا السادة ، نما المذهب الاعتزالي وازدهر ، بفضل ما تسلح به أصحابه من أسلحة ثقافية متنوعة ، كانت تمكنهم من إفحام خصومهم الذين ينتمون إلى ملل ونحل مختلفة . وقد شق الجاحظ طريقه في هذه البيئة الثقافية التي كانت جديدة كل الجدة على المجتمع الإسلامي . ولم يكن الجاحظ رجلا عاديا من عامة الناس الذين يطمحون إلى تثقيف أنفسهم عن طريق الاستماع والمناقشة وحسب ، أو عالما يسعى إلى تحصيل جانب واحد من العلم ، كأن يكون مطلبه

علم الكلام ، أو اللغة ، أو البلاغة ، بل كان يتميز بمقدرة عقلية تستوعب كل شيء كما كان يتميز بنهم شديد لكل أنواع العلم والمعرفة في عصره . ولهذا فقد تتلمذ على أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري . وأخذ عنهم اللغة والأدب ، وتتلمذ على الأخفش وأخذ عنه النحو . كما تتلمذ على النظام وأخذ عنه علم الكلام . ثم اكتسب الثقافة اليونانية عن طريق علماء الكلام وعن طريق مصاحبته لحنين ابن إسحق وسَلْمَوَيه . كما اكتسب الثقافة الفارسية عن طريق ابن المقفع وأبى عبيدة . ولم يكتف الجاحظ بهذه المصادر لتثقيف نفسه . أعني الأخذ عن الرجال المتخصصين كل في مجاله ، بل لم يكن هناك شيء أحب إليه من الكتاب . ويقول ابن النديم في الفهرست « إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويثبت فيها للنظر . » [1]

وبالإضافة إلى هذين المصدرين التقليديين اللذين يستقي منهما الناس ثقافتهم في العادة ، كان هناك مصدر ثالث لثقافة الجاحظ لا يقل أثره في مؤلفاته عن المصدرين السابقين ، بل ربما ميزه عن غيره من الكتاب الذين سبقوه أو لحقوا به ، ونعني بذلك معايشة الناس ومراقبتهم مراقبة الفنان الذي يحاول أن يكشف عن عالمهم الداخلي بقدر ما يرصد مظهرهم الخارجي . ولهذا فإن أهم ما يميز كتابات الجاحظ مقدرته على عرض صور ونماذج من واقع الحياة الاجتماعية ، ومن صنوف البشر على اختلاف طبائعهم . وهو في هذا يتميز عن الكتاب الذين شاركوه غزارة الثقافة ، مثل المبرد وابن قتيبة .

(أ) — ٢ ولا عجب بعد ذلك أن خلف لنا الجاحظ ثروة من الكتب في موضوعات متنوعة متعددة . فقد كتب في موضوعات عقائدية ، مثل كتاب الإمامة ، وكتاب نظم القرآن ، وكتاب خلق القرآن وكتاب الرد على المشبهة ، وكتاب الرد على اليهود ، وكتاب الرد على النصارى . وكتب في موضوعات تدور حول معارضات طرحت من قبل ، أو كانت مطروحة في عصره ، مثل

---

(١) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٧٥ .

كتاب القحطانية والعدنانية ، وكتاب الموالي والعرب ، وكتاب فخر السودان ... وكتب كذلك في موضوعات اجتماعية ، مثل كُتُاب فصل ما بين العداوة والحسد ، وكتاب مدح التجار وذم عمل السلطان ، وكتاب البخلاء . ثم كتب كتبا تغلب عليها السمة الأدبية ، وإن كانت تجمع بين ثناياها أشتاتا من المعلومات وذلك مثل كتاب الحيوان ، وكتاب البيان والتبيين الذي نحن بصدده . وليست هذه الكتب هي كل ما ألف الجاحظ ، فهناك خلاف ذلك ما نشر وما لم ينشر مما لا يتسع المجال لحصره .

(آ) — ٣ على أن الجاحظ لم يثْرِ التراث العربي من خلال الكم فحسب ، فربما كان أهم من ذلك إثراؤه إياه من ناحية الكيف كذلك . فقد مج الجاحظ عناية الكتاب بتنميق اللفظ بحيث يحولون بين القارىء وتعميق الفكرة ، ومج التزامهم الجد المفضي أحيانا إلى الغموض في عرض الفكرة ، ومج تجميعهم للشواهد دون الاهتمام بالكشف عن النوازع الإنسانية . قال للأخفش يوما : « أنت أعلم الناس بالنحو ، فلماذا لا تجعل كتبك مفهومة كلها ؟ وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ؟ وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم؟»[1]

ولهذا فقد نحا الجاحظ في أسلوبه منحى آخر ، تحرر فيه من الغموض ، ومن تنميق اللفظ ، مع الاحتفاظ بجزالته ، ثم مزج في هذا الأسلوب ما تعلم وبما قرأ وبما سمع وبما خبر من أحوال الناس .

ويمكننا أن نقول بإيجاز إن الجاحظ نظر إلى وظيفة التأليف الأدبي من زاوية أخرى خلاف تلك التي نظر منها كتاب عصره . فليست وظيفة الكتابة عنده مجرد إفراغ مزيج من المعلومات التي تدل على ثقافة الكاتب ، لكي يتثقف بها القارىء ، بل تتمثل وظيفتها — بصفة أساسية — في الكشف عن شخصية الكاتب وفلسفته اللغوية أو الكلامية أو الأدبية من ناحية ، ثم في التعبير عن موقفه إزاء أنماط من السلوك البشري في ضوء الحياة الاجتماعية التي يعيشها أهل عصره ،

---

(١) الجاحظ : الحيوان جـ ١ ص ٩١ — ٩٢ .

من ناحية أخرى . فإذا أضفنا إلى ذلك وظيفة أخرى ، وهي إمتاع القارىء بالأسلوب الفكاهي والنوادر الطريفة ، أدركنا إلى أي حد استطاع الجاحظ أن يطور الكتابة الأدبية من عصره من ناحيتي أسلوبها وهدفها .

(ب) ويعد كتاب الحيوان وكتاب البيان والتبيين من أواخر مؤلفات الجاحظ بعد أن أصابه الفالج . وعلى الرغم من إصابته بهذا المرض الذي ألزمه الفراش ، لم تفارقه قريحته المتوقدة ، وذاكرته القوية ، وفكاهاته الساخرة

(ب) – ١ ويرجع الدافع الى تأليفه كتاب البيان والتبيين إلى أحد أمرين أو ربما إليهما معا . أما الأمر الأول فهو أن الجاحظ لم يكن ، حتى زمن تأليف هذا الكتاب ، قد اختص البيان العربي ببحث شامل يبين فيه طاقات اللغة العربية في مجال التعبير ، وفي مجال إقناع المستمع عن طريق المناظرة والخطابة . وهما اللونان الأدبيان اللذان كانا يمارسان في بيئة البصرة ، حيث كثرت الخطابة والجدل والمناظرات بين طوائف الملل والنحل المختلفة – كما سبق أن ذكرنا . ولما كان أصحاب الكلام قد أخذوا على عاتقهم أن يتصدوا لهؤلاء جميعا ، فقد حرصوا على إتقان هذين الفنين ، بحيث جعلوهما صناعة لها أصولها وقواعدها . وهذه الأصول والقواعد تلتمس عن طريق تمثل أسرار اللغة العربية وحفظ الخطب المشهورة ، والتمرس بالأسلوب المنطقي في التسلسل بالفكرة للوصول بها إلى غايتها بقصد إفحام الخصم . وأخيرا معرفة الشروط التي ينبغي أن تتوافر في الخطب ، شكلا وموضوعا . ومعنى هذا أن الخطابة لم تعد – منذ القرن الثاني – شيئا يجري به الطبع ، وتتدفق به العاطفة ، بل أصبحت فنا يعلم وتلتمس له الوسائل . وإذا كان لأحد من المعتزلة أن يكتب في أصول هذا الفن ، فلن يكون سوى الجاحظ ، أديب المعتزلة الأول ، الذي كشف في كل كتبه عن امتلاكه ناصية اللغة ، وعن قدرته على الكشف عن أسرارها . قال في كتابه الحيوان : « فللعرب أمثال واشتقاقات ، وأبنية وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم وإرادتهم . ولتلك الألفاظ مواضع أخر ، ولها حينئذ دلالات أخر . فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل . فإذا نظر في الكلام

وفي ضروب من العلم وليس هو من هذا الشان . هلك وأهلك . » [1]

هذا فيما يختص بالدافع الأول الذي دفع الجاحظ إلى تاليف الكتاب . أما لماذا تاخر تأليف هذا الكتاب فيرى الدكتور الحاجري أن مرض الجاحظ الذي أقعده أثار فيه الحنين إلى العهد المنصرم ، فأخذ « يتمثل فيه صباه وشبابه من ناحية ، كما كان يتمثل فيه تلك الجذوة المتقدة التي أشرقت على البيئات العقلية بتلك الروح البيانية المتوثبة من ناحية أخرى . » [2]

أما الدافع الثاني إلى تأليف الكتاب فهو الرد على الشعوبية الذين كانوا يعيبون على العرب خطبهم وتقاليدهم في إلقاء تلك الخطب ، ومنها الإمساك بالعصا . وقد نص الجاحظ في أكثر من موضع من الكتاب على أنه قد نصب نفسه مدافعا عن فصاحة العرب . داحضا بذلك اتهامات الشعوبيين . فقد قال في كتاب العصا في الجزء الثالث من الكتاب : « ونبدأ على اسم الله بذكر مذهب الشعوبية ومن يتحلى باسم التسوية ، وبمطاعنهم على خطباء العرب بأخذ المِخْصَرَة عند مناقلة الكلام ، ومساجلة الخصوم ، بالموزون المقفّى ، والمنثور الذي لم يَقفَّ ، وبالأرجاز عند المتح ، وعند مجاثاة الخصم ، وساعة المشاولة ، وفي نفس المجادلة والمحاورة ، وكذلك الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة . واستعمال المنثور في خطب الحمالة ... وترك اللفظ يجري على سجيته وعلى سلامته ، حتى يخرج من غير صنعة ، ولا اجتلاب تأليف ، ولا التماس قافية ، ولا تكلف لوزن ، مع الذي عابوا من الإشارة بالعصيّ ، والاتكاء على أطراف القسيّ ، وخدّ وجه الأرض بها ... » [3].

وربما انبثق موضوع الرد على الشعوبيين في عقل الجاحظ في أثناء تأليفه الكتاب ولم يكن الدافع الأصلي إلى تأليفه ؛ فموضوعات الكتاب — كما سنشير

---

(١) الحيوان : ٤/١٥٣ — ٤

(٢) طه الحاجري : الجاحظ ؛ حياته وآثاره — دار المعارف ١٩٦٢ — ص ٤٢٥ — ٤٢٦ .

(٣) البيان والتبيين — تحقيق عبد السلام هرون — ج ٣ ص ٥ — ٦ .

إلى ذلك وشبكا — كانت كثيرا ما تتولد عن طريق الاستطراد .

(ب) — ٢ ومهما يكن الدافع وراء تأليف الكتاب ، فلا بد أن الجاحظ كان يخطط من قبل لتأليفه . ونحن لا نتصور أن يكون الجاحظ قد وضع القلم جانبا قبل أن يحقق رغبته من إخراج مثل هذا الكتاب .

ج — وليس كتاب البيان والتبيين في الحقيقة مجرد« مختارات من الأدب . من آية قرآنية أو حديث . أو شعر أو حكمة ممزوجة بماله (أي للجاحظ) من آراء في مسائل عدة »[1] . بل إن للكتاب موضوعا رئيسيا يسيطر عليه إلى حد كبير ، وهو الذي يوجه الكاتب إلى اختيار مختاراته وإن كثرت هذه المختارات بحيث تجعل البحث في الموضوع الرئيسي مشتتا . وهذا الموضوع الرئيسي هو استنباط أصول البيان كما تحدث فيها السابقون . وكما مارسها عمليا علماء الكلام، ومن بينهم الجاحظ . ونظرة إلى محتوى الكتاب تؤكد لنا هذا . فقد بدأه بالاستعاذة من العي ، ثم تحدث عن نعمة فصاحة اللسان . وعاب التشدق والتقعر ، وانتقل بعد بعض الاستطراد إلى الحديث عن اختلاف لغة العرب في استعمال الألفاظ ، حتى إذا اقترب من الخطابة تحدث عن عيوب اللسان ، مشيرا في ذلك إلى أشهر الخطب والخطباء . سواء من اشتهر منهم بسلامة النطق أو بعيب فيه . ثم ينتقل بعد ذلك إلى البلاغة ، فيتحدث عن البلاغة في الشعر وفي اللسان ، وفي الصمت وفي الكلام المسجع ، مقدما نماذج كثيرة من الحديث الشريف والخطب والحكم والألغاز . ثم يتهيأ للدفاع عن فصاحة العرب وخطبائهم ضد اتهامات الشعوبية، وذلك في كتاب العصا . ثم يتكلم عن الزهد وعن النساك ، وعن كلامهم ومواعظهم . ولا تفوت الجاحظ في كل هذا فكاهته التي عرفت عنه ، وهي تبدو جلية في أثناء حديثه عن نوادر الحمقى والنوكى والمجانين .

فالكتاب على هذا النحو تدور مادته بدون شك حول الفصاحة والبلاغة .

---

(٣) أحمد امين : ضحى الإسلام ح ١ ص ٣٩٠ .

على أن هذا لا يعني أن البحث في هذا الموضوع قد تم بناء على خطة تدرس الموضوع دراسة متسلسلة منطقية ، بحيث يبدو متكاملا عندما يصل الكاتب إلى نهايته ؛ فهذا أسلوب لم يكن كبار الأدباء في ذلك العصر قد عرفوه بعد . بل كانت تتحكم فيه طريقة السرد الاستطرادي الذي يدعو إلى تشعب الموضوع .

(ب) — ٣ وربما يرجع هذا إلى أمور منها :

أولا : أن أسلوب التلقين الشفاهي الذي يؤدي إلى الاستطراد بطبيعة الحال . والذي كان الوسيلة الأولى لتحصيل الثقافة في ذلك العصر . كان متحكما في عقول الباحثين . فعندما مارسوا عملية الكتابة بعد ممارستهم لعملية التثقيف الشفاهي ، كان أسلوب التدريس الشفاهي هو الغالب عليهم .

ثانيا : عندما نحا مفكرو ذلك العصر إلى تعريف مباحث العلوم ، كالبلاغة مثلا ، وكانوا قد عمق فكرهم وبعد تصورهم للأشياء ، اتسمت تعريفاتهم بالتشعب ، وكان هذا يقتضي البحث عن نماذج من التراث العربي لتدعيم كل جانب من جوانب هذا التعريف . ولننظر على سبيل المثال إلى قول ابن المقفع في تعريف البلاغة ، وهو الذي أعجب به الجاحظ ، وأخذ يبحث عن نماذج متنوعة تؤيده . قال ابن المقفع عندما سئل ما البلاغة : « اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة ، منها ما يكون في السكون ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة . ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جوابا ، ومنها ما يكون ابتداء ، ومنها ما يكون شعرا ، ومنها ما يكون سجعا وخطبا ، ومنها ما يكون رسائل . فعامة ما يكون في هذه الأبواب الوحي فيها . والإشارة إلى المعنى . »[1]

ثالثا : كان رصيد المفكرين . وعلى رأسهم الجاحظ ، من التراث العربي هائلا ، بحيث يمكننا أن نقول إن المادة كانت تنصب انصبابا في أثناء تأليفهم دون أن يملكوا وقفها .

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١١٥ — ١١٦ .

(ﺟ) وعلى كل فإن اتباع هذا المنهج في التأليف الأدبي قد أوقع الجاحظ في أخطاء أخذت عليه في كتابه هذا . فمن هذه الأخطاء مثلا أنه يعد في مطلع الجزء الثاني من الكتاب بأن يرد على الشعوبية بعد الفراغ من الإشارة الى كلام رسول الله والسلف الصالح ، فإذا به يستطرد ، ولا يذكر هذا الموضوع إلا في الجزء الثالث من الكتاب . ومنها أنه يأتي بالخبر في موضعه ، فإذا به يورده هو نفسه في مكان آخر دون أن تكون هناك ضرورة تقتضي ذلك ، بخاصة أنه يكون قد أورده وشيكا . ومثال ذلك ما ذكره في باب « أن يقول كل إنسان على قدر خلقه وطبعه » — عن الزُّهْرى عندما سئل : « ما الزهد في الدنيا ؟ قال : ألا يغلب الحرام صبرك ، ولا الحلال شكرك » . [1] وقد كرر هذا القول عينه في الباب نفسه (ص ١٨٨) دون أن تكون هناك ضرورة لهذا التكرار . وإذا كان قول الزهري ينصب على تعريف الزهد ، فإننا نتوقع أن يستشهد الجاحظ بهذا القول في باب الزهد في الجزء الثالث [2] . وهذا ما حدث حقا . وقد كان من الأفضل أن يحتفظ الجاحظ بهذا الخبر ليضعه في موضعه في باب الزهد . ولكن الاستطراد قد أوقعه في هذا التكرار .

وهناك خبر آخر روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء ذكره في الجزء الثاني [3] ثم تكرر مرة أخرى في الجزء الثالث [4] وإن كان الخبر يخدم كلتا المناسبتين اللتين ورد فيهما . .

(د) وبعد ، فلعله من نافلة الكلام أن نقول إن كتاب البيان والتبيين يعد موسوعة في الأدب العربي تغذى بثمرها القدماء والمحدثون . فقد اعتمد عليه كبار الكتاب القدماء الذين جاءوا من بعده ، مثل ابن قتيبة في « عيون الأخبار » ، والمبرد في « الكامل » ، وابن عبد ربه في « العقد الفريد » ، وغيرهم ، كما أنه رسم الطريق لمن جاء بعده في أسلوب التأليف الأدبي الذي هو جمع من كل

---

(١) نفسه ﺟ ٢ ص ١٧٧ .
(٢) ص ١٥٤
(٣) ص ١٩٠
(٤) ص ١٥٥

شيء . ومن يتصفح كتاب « الإمتاع والمؤانسة » لأبي حيان التوحيدي . المعتزلي الذي عاش في القرن الرابع . يجد أنه يحتوي كذلك على قدر هائل من المادة المتنوعة . شأنها في ذلك شأن كتب الجاحظ .

أما في العصر الحديث . فليس هناك باحث في أي جانب من جوانب التراث العربي لم يستعن بهذا الكتاب . ويرجع هذا بطبيعة الحال إلى ما يحتوي عليه الكتاب من ثروة هائلة ومتنوعة من التراث العربي . وهكذا يصبح ما عيب على الجاحظ سببا في إثراء العقول التي تبغي التزود من معين التراث العربي .

(هـ) وقد نشر الكتاب لأول مرة بين سنتي ١٣١١ — ١٣١٣ هـ وقام بنشره في مجلدين حسن الفاكهاني والشيخ محمد الزهري الغمراوي . ثم نشر بعد ذلك في ثلاثة مجلدات عام ١٣٣٢ بإشراف محب الدين الخطيب .

أما النشرة الثالثة فقد أخرجها حسن السندوبي في عام ١٣٤٥ هـ ، وتقع في ثلاثة مجلدات .

ثم ظهرت بعد ذلك نشرة للكتاب في عام ١٩٤٨ ، ١٣٦٧ هـ وقد قام بتحقيقها تحقيقا علميا كاملا الأستاذ عبد السلام هرون .وقد ظهرت الطبعة الثالثة للكتاب عن مكتبة الخانجي بالقاهرة عام ١٩٦٨ . وربما كان أجل ما قدمه الأستاذ عبد السلام هرون للباحثين ، فضلا عن التحقيق العلمي الأصيل ، تلك الفهارس الكثيرة التي تعين الباحث على البحث في يسر في كتاب تتراكم المعلومات فيه وتتشعب مثل كتاب البيان والتبيين .

نموذج من الكتاب :

باب
من اللغز في الجواب

قالوا : كان الحطيئة يرعى غنماً له ، وفي يده عصا . فمرّ به رجل فقال : يا راعيَ الغنم ما عندك ؟ قال : عجراءُ من سَلَمٍ [١] . يعني عَصَاهُ . قال : إنّي ضيف . فقال الحطيئة : للضِّيفان أعددتُها .

قال ابنُ سُلم [٢] : قال قيس بن سعد : اللهم ارزقْني حمداً ومجداً ، فإنه لا حَمد إلاّ بِفَعال ، ولا مجدَ إلاّ بمال .

وقال خالد بن الوليد لأهل الحِيرة : أخرِجُوا إليّ رَجلا من عقلائكم أسألُه عن بعض الأمور . فأخرجوا اليه عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حَيّان بن بُقَيْلَة الغَسّاني ، وهو الذي بنى القَصر [٣] ، وهو يومئذ ابن خمسين وثلثمائة سنة فقال له خالد : مِن أين أقصى أثرِك ؟ قال مِن صُلب أبي . قال : فمن أينَ خرجت ؟ قال : من بطن أمي . قال : فعلام أنت ؟ قال : على

(١) العجراء : الكثيرة العجر ، أي العقد . والسلم ، بالتحريك : شجر .
(٢) هو علي بن سليم .
(٣) هو قصر بني بقيلة .

الأرض . قال : ففيم أنت ؟ قال : في ثيابي . قال : ما سنُّك ؟ قال : عَظْمٌ . قال : أتَعقِل . لا عَقَلْتَ ؟ قال : إي والله وأُقيِّد . قال : ابن كم أنت ؟ قال : ابن رجل واحد . قال كم أتى عليك من الدهر ؟ فقال : لو أتى عليَّ شيءٌ لقتلني . قال : ما تزيدني مسألتك إلا غُمّى [1] ؟ قال : ما أجبتُك إلاّ عن مسألتك . قال : أعَرَبٌ أنتم أم نَبط ؟ قال : عربٌ استنبطنا ، ونبط استعربنا . قال : فحَرْبٌ أنتم أم سَلم ؟ قال : سَلم . قال : فما بال هذه الحصون ؟ قال : بنيناها للسَّفيه حتّى يجيءَ الحليم فينهاه . قال : كم أتت عليك سَنةٌ ؟ قال : خمسون وثلثمائة . قال : فما أدركتَ ؟ قال : أدركتُ سفنَ البحر تُرفَأُ إلينا في هذا الجُرُف ، ورأيت المرأة من أهلِ الحيرة تأخذ مِكتَلَها على رأسها ولا تتزوَّدُ إلاّ رغيفاً واحداً ، فلا تزال في قُرىً مُخْصِبة متواترة حتّى تَرِدَ الشام . ثم قد أصبحَتْ خراباً يَبَاباً ، وذلك دأْبُ الله في العباد والبلاد .

قال : وأتى أزهَرَ بن عبد الحارث رجلٌ من بني يربوع . فقال : ألا أدخل ؟ قال : وراءَك أوسَعُ لك . قال : قد أحرقت الشمس رجليّ . قال : بُلْ عليهما تبرُدا . فقال : يا آل يربوع ! قال : ذليلاً دعوت . يا بني دُرَيْص [2] ، أطعمتكم عاماً أوّلَ جُلّةً [3] ، فأكلتم جُلّتكم ، وأغرتم على جُلّة الضّيفان .

وقال الحجّاج لرجلٍ من الخوارج : أجَمَعْتَ القرآن ؟ قال : أمتفرِّقاً [4] كان فأجمعَه . قال : أتقرؤه ظاهراً ؟ قال : بل أقرؤه وأنا أنظر إليه . قال : أفتحفظُه ؟ قال : أخشيتُ فِراره فأحفظَه . قال : ما تقول في أمير المؤمنين

---

(١) الغمى : الأمر المتلبس .

(٢) دريص : مصغر درص ، بالكسر ، وهو ولد اليربوع ، ويقال أيضاً لولد الفأر والقنفذ والهرة والكلبة والذئبة ونحوها .

(٣) الجلة ، بالضم : وعاء من خوص يوضع فيه التمر ويكنز .

(٤) هذا ما في هـ . وفي ل : « أمفرقا » وسائر النسخ : « أمفترقا » .

عبد الملك ؟ قال : لعنَنَه الله ولعنَكَ معه . قال : إنّك مقتول فكيف تلقى الله ؟ قال ؟ ألقى الله بعملي وتلقاه أنت بدمي .

وقال لقمان لابنه وهو يعظُه : يا بُنَيَّ ، ازحَم العلماء برُكبتيك ، ولا تجادلهم فيمقتوك ، وخُذْ من الدُّنيا بلاغَك ، وأبْقِ فُضول كسبك لآخرتك ، ولا ترفض الدُّنيا كلَّ الرفض فتكون عيالاً ، وعلى أعناق الرجال كَلاًّ ، وصمْ صوماً يكسِرُ شهوتك ، ولا تصمْ صوماً يضرُّ بصَلاتك ، فإنَّ الصلاةَ أفضل من الصوم ، وكُن كالأب لليتيم ، وكالزَّوج للأرمَلة ، ولا تحابِ القريب ، ولا تجالس السَّفيه ، ولا تخالِطْ ذا الوجهين ألبتّة .

وسمع الأحنفُ رجلاً يُطري يزيد عند معاوية ، فلما خَرج من عنده استَنْفَرَ في ذمّهما [1] ، فقال له الأحنف : مَهْ ؛ فإن ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً .

وقال سعيد بن أبي العَرُوبة : لأَنْ يكون لي نصفُ وجه ونصفُ لسان ، على ما فيهما من قُبح المنظرُ وعَجز المَخْبَر . أحبُّ إليَّ من أن أكون ذا وجهين وذا لسانين ، وذا قولين مختلفين .

وقال أيّوب السَّخْتياني [2] : النَّمّام ذو الوجهين أحسنَ الاستماع ، وخالفَ في الإبلاغ .

* * *

(١) استنفر الرجل في منطقه : مضى ولم يتلبث .

(٢) هو أيوب بن أبي تميمة السختياني .

٢ - الكـــامل

لمحمد بن يزيد المبرد

أخذ سيل التأليف ينهمر بعد الجاحظ ، وبدأت تخصصات الأدباء والعلماء تتحدد وتتنوع . ولم يكن الكاتب منهم يقتصر على تأليف كتاب أو كتابين ، بل كان كل منهم في حد ذاته موسوعة في علمه . ومن بين هؤلاء كان المبرد .

(أ) ولد المبرد في عام ٢١٠ هـ وتوفي في عام ٢٨٥ هـ ؛ أي أنه عاش عصر الثقافة المزدهرة والسياسة المصطخبة ؛ إذ ولد في عصر المأمون وتوفي في عصر المعتضد . واسمه الأصلي محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي الثمالي ،واختلف في سبب تسميته المبرد . بل اختلف فيما إذا كانت هذه الكلمة بفتح الراء أو بكسرها ، وفيما إذا كان هذا اللقب ذما أو مدحا . فأبو الفدا في كتابه «المختصر من أخبار البشر » . وكذلك أبو المحاسن في « النجوم الزاهرة » ذكرا أنه سمي المبرد بفتح الراء المشددة ، لحسن وجهه . ذلك أنه يقال رجل مبرّد ومقسّم ومحسّن إذا كان حسن الوجه . وربما أيد ذلك ما اتفق المؤرخون عليه من أنه كان صاحب وجه جميل . ويقال إن الكوفيين لقبوه بالمبرد بفتح الراء المشددة ، أي من البرودة ، تهكما به بعد أن أصبح إمام النحويين البصريين بعد موت أبي عثمان المازني . ويقال إن اللقب لم يكن مدحا ولا ذما . بل اشتهر به في إثر حادثة معينة ذكرها أبو الفرج بن الجوزي في كتابه الألقاب ، وملخصها أن المبرد كان ذات يوم عند أبي حاتم السجستاني ، ثم جاء رسول من قبل والي الشرطة يستدعيه لمنادمة الوالي . وكان المبرد يكره منادمته ، فطلب من أبي حاتم أن يخبئه . فخبأه في المزملة (هي إناء كبير للتبريد) . فلما انصرف الرسول جعل أبو حاتم يصفق وينادي على المزملة : المبرِّد المبرِّد . ثم تسامع الناس ذلك فلقبوه المبرد[1] .

(١) انظر : أحمد القرني : المبرد — سلسلة أعلام العرب ٩٤ — ص ٤٤ — ٤٦ .

(أ) — ١ تتلمذ المبرد على الجاحظ . فكان يجلس إليه ويستمع منه ويروي عنه . ولكن لما كان المبرد يميل أكثر ما يميل إلى الثقافة اللغوية والنحوية فقد كان معظم أساتذته من علماء اللغة والنحو ، فقد أخذ عن الجرْمي . وكان فقيها عالما بالنحو واللغة . وأخذ عن أبي عثمان المازني . إمام النحويين آنذاك . وكان كل مهتم بالنحو يقرأ عليه كتاب سيبويه . وأخذ عن أبي إسحق الزيادي . وأبي الفضل بن الفرج الرياشي . على أن ثقافة المبرد لم يكن مصدرها هؤلاء الأساتذة فحسب ، فقد كان مثل — الجاحظ — واسع الاطلاع على الكتب ، شديد الحرص على اقتنائها . وبعد أن صار المبرد إمام النحويين البصريين بعد المازني . تتلمذ عليه نفر ممن ذاع صيتهم في الدراسات النحوية واللغوية فيما بعد . ومنهم الزجاج . والصولي . ونفطويه النحوي . وأبو علي الطوماري . وابن السراج . والأخفش الأصغر . وأبو الطيب الوشاء . وابن المعتز . وابن الجزار النحوي . وغيرهم . وقد اتفق هؤلاء جميعا على أن المبرد كان يمتاز بغزارة العلم . وفصاحة اللسان . وحلاوة المخاطبة . ووضوح الشرح . بحيث لم يكن أحد يجبه في هذه الأمور في عصره .

وإلى جانب هذا كله كان المبرد يكثر من حفظ الشعر . ذواقاً له . وكان صديقا لأكثر شعراء عصره . ومنهم أبو تمام . والبحتري ، وابن الرومي . وابن المعتز . وقد مدحه ابن الرومي بقصيدة طويلة محفوظة ضمن مخطوطات دار الكتب المصرية ، وقد أورد البارودي بعض أبياتها في مختاراته .

(أ) — ٢ وقد خلف المبرد ثروة من الكتب ، منها ما نشر . مثل : كتاب الكامل . وكتاب الفاضل . وكتاب المقتضب ، وكتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن الكريم ، وشرح لامية العرب ، وكتاب المذكر والمؤنث . ومنها ما لم ينشر ، مثل كتاب الروضة ، وكتاب التعازي والمراثي . هذا إلى جانب مجموعة أخرى من الكتب ذكرها الفهرست[1] ولكنها لم تصل إلينا.

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٩٣

(ب) وإذا كان الجاحظ قد اكتفى بعنوان كتابه « البيان والتبيين » ، ليكون دالا على الموضوع الذي من أجله ألف كتابه ، فإن المبرد قد قدم لكتابه بمقدمة موجزة . ولكنها توضح على وجه التحديد مادة الكتاب والغرض من تأليفه ؛ فقد قال : « هذا كتاب ألفناه . يجمع ضروبا من الآداب ما بين كلام منثور وشعر موصوف . ومثل سائر ، وموعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة ، ورسالة بليغة . والنية فيه أن نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب ، أو معنى مستغلق ، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحا وافيا ، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفيا ، وعن أن يرجع إلى أحد في تفسيره مستغنيا » (١) .

ومعنى هذا أن المبرد قد أتى بالنصوص المختارة في كتابه لتخدم غرضا لغويا أو نحـويا ، وهو مجال اهتمامه الأول كما ذكرنا . وهذا يشير إلى أن تخصصات علماء هذا العصر كانت قد تحددت . وكان كل أديب يعرف مجال تخصصه . وبناء على ذلك كان يوظف المادة التي حفظها واستوعبها هو وغيره من رجال عصره . فإذا كان الجاحظ قد أودع كتابه « البيان والتبيين » مجموعة من المختارات الأدبية الرائعة ، فقد كان يهدف من ذلك إلى أن يستشهد بها على وجوه البيان والفصاحة والبلاغة التي استخلصها . أما المبرد . فإنه يستخدمها استخداما آخر . وذلك بقصد الكشف عن المشكلات اللغوية والنحوية. ولهذا فنحن نرى أن تحديد المبرد الهدف من تأليف كتابه بأنه تقديم كتاب مكتف بنفسه . وذلك عن طريق تقديم النصوص وشرحها ، فيه شيء من التواضع .ذلك أن المشكلات اللغوية والنحوية التي أثارها المبرد . تعد في الحقيقة من قبيل البحث العام في اللغة والنحو . ومثال ذلك البحث في وظيفة حروف الاستفهام إذا كانت أسماء . وقد ذكر هذا بمناسبة ذكره لعهد أبي بكر بالخلافة إلى عمر (٢) . وما ورد فيه من قوله تعالى : « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب

---

(١) المبرد : الكامل – مطبعة نهضة مصر ١٩٥٦ – ﺟ ١ ص ١ – ٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١

ينقلبون . » فقد قال : « نصب أي » بقوله ينقلبون ، ولا يكون نصبا بـ « سيعلم » ، لأن حروف الإستفهام إذا كانت أسماء امتنعت مما قبلها كما يمتنع ما بعد الألف من أن يعمل فيه ما قبله ، وذلك قولك : « علمت زيدا منطلقا » ، فإن أدخلت الألف قلت : « علمت أزيد منطلق أم لا » ؛ فأي بمنزلة زيد الواقع بعد الألف ، ألا ترى أن معناها : أذا أم ذا ؟ : قال الله عز وجل : « لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا » . لأن معناها : أهذا أم هذا ؟ وقال تعالى : « فلينظر أيها أزكى طعاما » على ما فسرت لك . وتقول أعلم أيُّهُم ضرب زيدا ، وأعلم أيّهم ضرب زيدٌ ، تنصب أيّا بـ « ضرب » ، لأن «زيدا» فاعل ، فإنما هذا لما بعده . وكذلك ما اضيف إلى اسم من هذه الأسماء المستفهم بها ، نحو : قد علمت غلام أيّهم في الدار ، وقد عرفت غلامُ من في الدار ، وقد علمت غلامَ من ضربتَ ، فتنصبه بـ « ضربت » ، فعلى هذا مَجْرَى الباب . » (1)

ومثال ذلك كذلك شرحه لكلمة : تلجلج التي وردت في رسالة عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري في قوله : « الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب أو سنة » (2) . ولو أن المبرد يهدف إلى شرح النص وحسب ، لاكتفى بشرح كلمة تلجلج بأنها « تردد» — كما قال . ولكنه بحث في أصول الكلمة وطرق استخدامها نثرا وشعرا ، مستشهدا في ذلك بما حفظه من شعر ونثر . وكأنه يصنع في ذلك صنيع مؤلفي المعاجم اللغوية .

وكل هذا يدفعنا إلى القول بأن كتاب المبرد موسوعة لغوية ونحوية وليس مجرد شرح لنصوص أتى بها الكاتب .

(ج) وبذلك نكون قد اقتربنا من منهج الكتاب ؛ فهو يأتي بالنص ، كأن يكون حديثا — كما فعل في أول الكتاب — ثم يأخذ في شرحه لغويا ونحويا ،

---

(1) نفسه ص ١١ – ١٢

(2) نفسه ص ١٣

مستشهدا في ذلك بروائع من الشعر والنثر . فإذا فرغ من ذلك قدم نصا آخر . كأن يكون خطبة أو رسالة مشهورة لأحد الخلفاء أو الحكام .

وبهذا يمكننا أن نلخص محتوى الكتاب فيما يلي : ١ — مختارات من الشعر والنثر والأمثال والحكم . ٢ — ايضاحات لغوية . ٣ — شروح نحوية . ٤ — لمحات نقدية .

وإذا كان الكتاب كما قلنا عماده الأبحاث اللغوية والنحوية ، فإن ما فيه من آراء نقدية يعد في الحقيقة على هامش النقد ؛ فهو كثيرا ما يعلق على أبيات الشعر بعبارات عامة تكشف عن ذوقه الشخصي . ولكنها لا تعالج قضية نقدية . ومثال ذلك تلك العبارات التي نصادفها في كتابه بين حين وآخر . مثل : « فهذا أوضح معنى وأقرب مأخذا » . أو قوله في شاعر ذكر له بيتا استحسنه بأنه أخرجه لفصاحته وعلمه بجوهر الكلام أحسن مخرج » . أو تعليقه على أبيات أخرى استحسنها بقوله : هذا كلام ليس فيه فضل عن معناه » . وهو في ذلك يعبر عن الرأي الشائع في عصره من أن الكلام يكون بليغا إذا كانت ألفاظه معبرة تماما عن معناه بلا زيادة أو نقصان .

ويمكننا أن نقول إن المبرد قد مس ثلاث قضايا نقدية اهتمت بها كتب البلاغة والنقد وقتلتها بحثا ، وهي قضية اللفظ والمعنى التي كانت تهم المعتزلة في عصره ، وقضية الجديد والقديم . وقد أشار اليها في قوله : « وليس بقدم العهد يفضل القائل ، ولا لحدثان عهد يُهتَضم المصيب ، ولكن يعطى كل ما يستحق . » [1] ثم قضية السرقات الشعرية ، وهو في ذلك يستخدم العبارات التي نألفها عند من توسع في هذه القضية النقدية ، ومثال قوله ذلك : « معنى طريف ، وقد أخذه أبو حية منه فكشفه في أبيات مختارة . » [2]

وفضلا عن ذلك فإن الكتاب يحتوي على قدر كبير من أدب الخوارج ،

---

(١) نفسه جـ ١ ص ٢٩ .

(٢) نفسه جـ ١ ص ٧١

ومن ثم فهو يعد مرجعا مهما في هذه الناحية . وقد أفرد الباب التاسع والأربعين لرسائلهم التي تبادلوها في خلال حروبهم مع الخلفاء ، وذكر طرائف من نوادرهم وقصصهم وأشعارهم .

(د) لهذا كله يعد كتاب الكامل للمبرد مصدرا أساسيا للتراث العربي . سواء كان ذلك في مادته الأدبية أو في مادته النحوية واللغوية . ولقد اعترف الباحثون القدماء أنفسهم بأهمية هذا الكتاب ؛ فعده ابن خلدون في مقدمته ضمن أربعة كتب أساسية في البحث وهي : أدب الكاتب لابن قتيبة ؛ والكامل للمبرد ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والنوادر لأبي علي القالي . كما اهتم بعض الأقدمين بشرحه ، وهم : ابن السيد البطليوسي المتوفى في عام ٤٤٤ ﻫ ؛ وهشام بن أحمد الوقشيّ المتوفى في سنة ٤٨٩ ﻫ ، ثم محمد بن يوسف السرقسطي المتوفى سنة ٥٣٨ ﻫ . أما في عصرنا الحاضر فقد شرحه وعلق عليه الشيخ الأديب سيد بن علي المرصفي . وذلك في كتاب سماه « رغبة الآمل في شرح الكامل » .

(ﻫ) ويؤخذ على المبرد أنه كثيرا ما يروي أخباره دون أسانيد ، إذ كثيرا ما يقول : « سمعت بغير وجه » . « وسمعت على غير وجه » . وهذا يشير إلى تحفظه في الإسناد إذا لم يكن يعرفه على وجه الدقة . ومع ذلك فإنه أخذ عليه إسناد بعض الأقوال إلى غير قائليها . على أن المبرد قد تميز باعترافه بالخطأ إذا أدرك أنه قد أخطأ . وقد قال في ذلك : « إنه (أي الاعتراف بالخطأ) يمحو الذنب الذي قد يترتب على الوقوع في الأخطاء ونشرها بين الناس . »[1] وبذلك يكون المبرد قد وضع مبدأ اعتراف العلماء بخطئهم . وقد أخذ على الكتاب كذلك تعصبه للخوارج . وقد اتهم المبرد بذلك ابن أبي الحديد في شرحه كتاب نهج البلاغة المنسوب الى علي بن أبي طالب على أنه يُرَدّ على ذلك بأن المبرد لم يتولّ الدفاع عن الخوارج بوصفهم طائفة ذات عقيدة ، بل اهتم بأدبهم لكونه أدبا صادقا . وإذا كان قد أورد بعض أخبارهم ونوادرهم ؛ فلم يكن ذلك عرضا لعقيدتهم ، بل كان يستدعي ذلك الاستطراد فحسب .

---

(١) السيوطي : المزهر في علوم اللغة – ط القاهرة ١٢٨٢ ﻫ – ﺟ ٢ ص ٢٦٥ .

(و) وقد طبع « الكامل » في مصر والخارج عدة طبعات . مما يدل على مدى اهتمام العلماء والأدباء به . فقد طبع في ألمانيا في سنة ١٨٦٤ م مع مقدمة وفهارس . وطبع في سنة ١٢٨٦ هـ بالمطبعة العامرة بالقاهرة . كما طبع في سنة ١٣٠٨ هـ بالمطبعة الخيرية بالقاهرة . ثم طبع في عام ١٢٨٦ هـ بالآستانة ، وفي سنة ١٨٨١ م في ليبزج . كما طبع فيها مرة أخرى في عام ١٨٩٢ م . ثم طبع في سنة ١٣٢٣ هـ في مطبعة التقدم بالقاهرة . وفي سنة ١٣٥٥ في مطبعة الحلبي بتحقيق الدكتور زكي مبارك والشيخ أحمد محمد شاكر . وفي عام ١٩٦٣ م طبعته المطبعة التجارية الكبرى بالقاهرة .

* * *

نموذج من الكتاب

(مما قيل في الشباب والهرم)

وقال النَّمِرُ بنُ تَوْلَب :

تَدَارَكَ مَا قبلَ الشَّبَابِ وَبَعْدَه ... حَوَادِثُ أيّامٍ تَمُرُّ وَأَغْفَلُ
يَسُرُّ الفتَى طُولُ السّلامَةِ وَالبَقا ... فَكَيْفَ يَرَى طُولَ السّلامَةِ يفعل
يَرُدُّ الفَتَى بَعْدَ اعْتِدَالٍ وَصِحّةٍ ... يَنُوءُ إذَا رَامَ القِيَامَ وَيُحْمَلُ

قصر « البقاء » ضَرورة ، وللشاعر — إذا اضْطُرَّ — أن يَقْصُرَ الممدود ، وليس له أن يَمُدَّ المقصور ، وذلك أن الممدود قبل آخره ألف زائدة ، فإذا احتاج حَذَفَها ؛ لأنها ألف زائدة ، فإذا حذفها رَدَّ الشيءَ إلى أصله ، ولو مَدَّ المقصور لكان زائداً في الشيءِ ماليس منه ، قال الشاعر — وهو يَزيدُ بن عمرو ابن الصَّعِق :

فَرَغْتُمْ لِتَمْرِينِ السِّيَاطِ وَأَنْتُم ... يُشَنّ عَلَيْكُمْ بِالْفِنَا كل مَرْبَعِ (١)

---

(١) قال المرصفي : « يهجو بني أسد وتمرين السياط : دلكها وتليينها بالدهان ؛ يرميهم بأنهم أذلاء لا يصقلون السيوف ولا يشحذون الأسنة ولا يبرون النبال . وكل مربع : يريد في كل موضع أقمتم فيه زمن الربيع » .

فقصر « الفناءَ » ، وهو ممدود . وقال الطِّرِمّاح :

وَأَخْرَجَ أُمُّهُ لِسَوَاسِ سَلْمَى لِمَعْفُورِ الضَّرا ضَرِمِ الجنين

قوله : « وأخْرَجَ » ، يعني رَماداً ، والأخْرَجُ الذي في لونه سواد وبياض ، يقال : نَعامة خَرْجاءُ .

وقوله : « لسواس سلمى » ، فإنَّ أجأَ وسَلْمَى جَبَلا طيءٍ ، وسَواس سَلْمَى : الموضع الذي بِحَضْرَةِ سَلْمَى ، يقال : هذا من سُوس فُلانٍ ومن تُوس فلان : أي من طَبْعِه . وأمُّهُ : يعني الشجرةَ التي هي أصله .

وقوله : « لمعفور الضَّرا » : فالضَّراءُ : ما واراك من شجرٍ خاصَّةً ، والخَمَرُ : ما واراك من شيء . والمعفور : يعني ما سقط من النار من الزَّنْد .

وقوله « ضَرِمِ الجنين » يقول مُشْتَعِل ، والجنين : ما لم يَظْهَرْ بَعْدُ ، يقال لِلْقَبْرِ جَنَنٌ ، والجَنينُ : الذي في بطن أمه . والمِجَنُّ : التُّرْسُ لأنه يَسْتُرُ ، والمجنون : المُغَطَّى العقل ، وسُمِّيَ الجنُّ جِنّاً لاختفائهم ، وتُسَمَّى الدُّرُوعُ الْجُنَنَ لأنها تستر من كان فيها . وقَصَرَ « الضراءَ » وهو ممدود . ومثل هذا كثير في الشعر جداً .

وقوله : « ينوء إذا رام القيام » ، يقول : يَنْهَضُ في تَثَاقُل ، قال الله عزّ وجل : (مَا إنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ) (١) ، والمعنى أن العُصْبَةَ تَنُوءُ بالمفاتح ، ولشرح هذا موضع آخر .

وقال آخر :

* أنُوءُ ثَلاثاً بَعدَهُنَّ قِيَامِي *

ويُروَى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كفَى بالسَّلامة داءً » .

---

(١) سورة القصص ٧٦

وقال حُمَيْدُ بن ثَورِ الهِلالي :

أرَى بَصَرِي قَدْ رَابَنِي بَعْدَ صِحة وَحَسْبُكَ دَاءً أنْ تَصِحَّ وَتَسْلَمَا
وَلاَ يَلْبَثُ العَصْرَانِ يَومٌ وَلَيْلَةٌ إذَا طَلَبَا أن يُدرِكَا مَا تَيَمَّمَا

وقال أبو حَيّةَ النُّمَيْرِيّ :

ألاحَيّ مِن أجْلِ الحَبِيبِ المَغَانِيَا لَبِسنَ البِلَى مِمّا لَبِسنَ اللّيَالِيَا
إذَا مَا تَقَاضَى المَرءَ يَومٌ وَلَيْلَةٌ تَقَاضَاهُ شَيءٌ لاَ يَمَلُّ التّقَاضِيَا

وقال بعض شعراء الجاهلية :

كَانَت قَنَاتِي لاَ تَلِينُ لِغَامِزٍ فَألاَنَهَا الإصبَاحُ وَالإمْسَاءُ
وَدَعَوتُ رَبّي فِي السّلاَمَةِ جَاهِداً لِيُصِحّنِي : فَإِذَا السّلاَمَةُ دَاءُ

وقال عَنْتَرَةُ بن شَدّادٍ :

فَمَا أوْهَى مِرَاسُ الحَرْبِ رُكْنِي وَلَكِنْ مَا تَقَادَمَ مِنْ زَمَانِي

ومن أمثال العرب إذا طال عمر الرجل أن يقولوا : « لقد أكلَ الدّهْر عليه وشَرِبَ » ، إنما يريدون أنه أكَلَ هو وشرب دَهْراً طويلاً ، قال الجَعْدِيُّ :

* أكل الدّهْرُ عَلَيْهِم وَشَرِبْ *

والعرب تقول : نَهَارُكَ صائِم ، وليلك قائِم ، أي أنت قائم في هذا وصائم في ذاك ، كما قال الله عزّ وجل : (بَلْ مَكْرُ الليْلِ وَالنّهَارِ) (١) : والمعنى والله أعلم : بل مَكْرُكمْ في الليل والنهار ، وقالَ جرير :

لَقَدْ لُمْتِنَا يَا أمّ غَيْلاَنَ فِي السُّرَى وَنِمْتِ ، وَمَا لَيْلُ المَطِيّ بِنَائِمِ

(للفرزدق يرثي ابني مسمع)

---

(١) سورة سبأ ٣٣ .

وقال الفَرَزْدَق :

تُبَكِّي عَلَى المَنْتُوفِ بَكْرُ بنُ وَائِلٍ
وَتَنْهَى عَنِ ابْنَيْ مِسْمَعٍ مَنْ بَكَاهُمَا[1]

غُلامَانِ شَبَّا في الحُرُوبِ وَأَدْرَكَا
كِرَامَ المَسَاعِي قَبْلَ وَصْلِ لِحَاهُمَا

وابنا مِسْمَع كَان قتلهما معاوية بن يزيد بن المُهلّب مع عَدِيّ بن أرطاة لما أتاه خبر قتل أبيه ، وكان ابنا مسمع ممن خالف على يزيد بن المهلّب ..

* * *

(١) تبكي : تحمل الناس على البكاء .

٢ – عيــــون الأخبــــــار

لعبد الله بن مسلم بن قتيبة

(أ) ولد أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، الفارسي الأصل ، في بغداد أو الكوفة على خلاف في ذلك . وتولى قضاء دينور فترة من الزمن ، ومن ثم فقد عرف بالدينوري . وكان معاصراً للمبرد ، إذ ولد في عام ٢١٣ هـ ، أي بعد ولادة المبرد بثلاث سنوات ، وتوفي في عام ٢٧٦ هـ ، أي قبل وفاة المبرد بتسع سنوات.

(أ) — ١ وكان ابن قتيبة يميل — مثله في هذا مثل الجاحظ والمبرد وغيرهما — إلى الأخذ بمعارف عصره المتنوعة . وقد عبر عن ذلك بقوله : « كنت في عنفوان الشباب وتطلب الآداب ، أحب أن أتعلق من كل علم بسبب ؛ وأن أضرب فيه بسهم » . ويقول كذلك موضحا حدود ثقافة الأديب : « من أراد أن يكون عالما ، فليطلب فنا واحدا ، ومن أراد أن يكون أديبا فليتسع في العلوم » . ومعنى هذا أن ابن قتيبة يحدد بنفسه ثقافته واهتماماته في البحث بوصفه أديبا يأخذ من كل علم بطرف . وقد كان الجاحظ والمبرد أديبين مثله ، ومع ذلك فقد رأينا أن هناك جانبا من البحث يغلب على كل منهما . وإذا كان الجاحظ أديبا يضرب ببحثه في أعماق المجتمع ، وكان المبرد لغويا ونحويا في الدرجة الأولى ، فإن ابن قتيبة كان أديبا لغويا وإخباريا من الطراز الأول .

عاش حياته في بغداد ، وكان ممثلا لاتجاه الثقافة فيها ، حيث كانت تمتزج الاتجاهات المختلفة للثقافات المتنوعة . ومن ثم فقد كان يمثل الاتجاه اللغوي النحوي الذي مزج بين المذهبين البصري والكوفي ، وإن كان يغلو في البصريين كما يقول ابن النديم [1] . كما كان يمثل ، أكثر من الجاحظ ، المزج بين الثقافة

(١) ابن النديم — الفهرست ، ص ١٢١

العربية من ناحية ، والثقافة الفارسية والهندية واليونانية من ناحية أخرى ؛ فقد قرأ التوراة والإنجيل ، وأخذ عنهما قصة الطوفان التي وردت في كتابه «المعارف» وكثيرا ما يقول : « قرأت في كتب العجم والهند واليونان . »

واشترك في النزاع العقيدي ومال الى أهل السنة ، ودافع عنهم ضدالمعتزلة . وهذا يفسر لنا موقفه غير الودي من الجاحظ ، وهجومه عليه في كتابه « تأويل مختلف الحديث » بصفة خاصة . ثم شارك في الصراع العنصري ، ولزم جانب العرب على الرغم من أصله الفارسي . وكان يقول في مهاجمة الشعوبية : « لا يمنعني نسبي في العجم أن أدفعها (أي الشعوبية) عما تدعيه لها جهلتها » .

(أ) — ٢ وقد خلف ابن قتيبة ثروة هائلة من الكتب ، ذكرهاابن النديم ، وأشار إلى عدد الأبواب التي يحتوي عليها كل كتاب . ويكفي أن نسرد أسماء الكتب المنشورة وحدها لندرك ما كان عليه هذا الكاتب من ثقافة عريضة . وهذه الكتب هي : مشكل القرآن ، تأويل مختلف الحديث ، المعارف ، الأشربة ، الميسر والقداح ، الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة ، الشعر والشعراء ، معاني الشعر الكبير ، أدب الكاتب ، ثم عيون الأخبار .

(ب) ولقد كفانا ابن قتيبة مئونة البحث عن الدافع الذي دفعه إلى تأليف كتابه ، ذلك أنه قدم له بمقدمة ذكر فيها هذا الدافع . وهذه المقدمة في الحقيقة تستحق وقفة من الباحث المتخصص ، لأنها مسهبة وتفصيلية من ناحية ، وهذا ما لم نألفه في كتب الأدب من قبل ، ولأن المؤلف أثار فيها بعض الموضوعات المهمة ، من ناحية أخرى . وسوف نعرض لهذه الموضوعات تباعا في أثناء عرضنا للكتاب .

أما عن الدافع وراء تأليف الكتاب فقد قال المؤلف في ذلك : « وإني كنت تكلفت لمُغْفِل التأدبِ من الكتّاب كتابا في المعرفة وفي تقويم اللسان واليد حتى تبينت شمول النقص ودروس العلم وشغلَ السلطان عن إقامة سوق الأدب حتى عفا ودرس ، بلغت به فيه همة النفس ، وثلج الفؤاد ، وقيدت عليه به ما

أطرفني الإلّه يوم الإدالة ، وشرطت عليه مع تعلّم ذلك تحفظ عيون الحديث . ليدخلها في تضاعيف سطوره ، متمثلا إذا كاتب ، ويستعين بما فيها من معنى لطيف ولفظ خفيف حسن إذا حاور .... فأكملت له ما ابتدأت ، وشيدت ما أسست ... » .

ونستخلص من هذا أن من كان يشتغل بصنعة الكتابة والمحاورة ، قد أصبح في أشد الحاجة إلى كتب تعليمية تعينه على الكتابة أو المحاورة بطريقة تجذب القراء أو السامعين ، وتقنعهم بالحجة القاطعة . وهذا لا يتأتى إلا إذا كانت قدرة الكاتب على التمثل بعيون الأقوال المأثورة موفورة ، بخاصة أن السلطان قد شغل في بغداد ، تلك المدنية المصطخبة ، عن إقامة سوق الأدب ، كما يقول . وقد رأى ابن قتيبة أن كتابا مثل كتاب عيون الأخبار هو خير مرشد للمتأدبين من الناس .

ثم يحدد بعد ذلك صنوف قرّاء هذا الكتاب فيقول : « وهذه عيون الأخبار ، نظمتها لمُغْفِل التأدب تبصرة ، ولأهل العلم تذكرة ، ولسائس الناس ومسوسهم مؤدبا ، وللملوك استراحة . » وهو بهذا يحدد قراء هذا الكتاب بأنهم من الخاصة. ولكنه يعود فيستدرك على ذلك ، ويرى أن مادة كتابه من الاتساع بحيث إنها لا تفيد الخاصة دون العامة ، فيقول : « ولم أر صوابا أن يكون كتابي هذا وقفا على طالب الدنيا دون الآخرة ، ولا على خواص الناس دون عوامهم ، ولا على ملوكهم دون سوقتهم ، فوفيت كل فريق منهم قِسْمه ، ووفّرت عليه سهمه » .

وبهذا يكون الغرض من تأليف هذا الكتاب هو إفادة المتأدب المتخصص . والمتأدب من خاصة الناس ، والمتأدب من عامتهم ، « فالكلام مصايد القلوب والسحر الحلال » ، على حد تعبيره .

(ج) : وكما أوضح ابن قتيبة في مقدمته الغرض من تأليف الكتاب ، أوضح كذلك مصادر هذا الكتاب ، وهي ليست في الحقيقة مصادر تقليدية وحسب . أعني الرجال العلماء الذين سمع عنهم ، والكتب التي قرأها ، بل إنه يذكر

مصادر أخرى تستحق النظر والتأمل . يقول : « واعلم أنا لم نزل نتلفظ هذه الأحاديث في الحداثة والاكتهال عمن هو فوقنا في السن والمعرفة ، وعن جلسائنا وإخواننا ، ومن كتب الأعاجم وسيرهم ، وبلاغات الكتاب في فصول من كتبهم ، وعمّن هو دوننا ، غير مستنكفين أن نأخذ عن الحديث سنا لحداثته ، ولا عن الصغير قدرا لخساسته ، ولا عن الأمَة الوكعاء فضلا عن غيرها ؛ فإن العلم ضالّة المؤمن ، من حيث أخذه نفعه ، ولن يُزري بالحق أن تسمعه من المشركين ، ولا بالنصيحة أن تستنبط من الكاشحين ... ومن ترك أخذ الحسن من موضعه أضاع الفرصة ، والفرص تمر مر السحاب ،. »

ومعنى هذا أن ابن قتيبة يقرّ بأن هناك علما لا بد أن يؤخذ من عامةالناس ، وأن هذا العلم لا تقل قيمته عن العلم الذي يؤخذ عن العلماء . ذلك أن الأخبار التي تمس عامة الناس وتفكيرهم وسلوكهم ونظرتهم إلى الحياة ، لا بد أن تؤخذ عنهم لا عن غيرهم . أما العلوم الرسمية الأخرى ، مثل علم الدين ، والحرام والحلال ، فهي — على حد تعبيره الدقيق البليغ — « استعباد وتقليد ، ولا يجوز أن تأخذه إلا عمن تراه لك حجة » . (١)

(د) : وكان ابن قتيبة ، شأنه شأن علماء عصره ، قد قضى شطرا من عمره في السماع وفي القراءة ، قبل أن يعكف على التأليف . ولا بد أن أدباء هذا العصر كانوا يحتفظون ببطاقات يدونون فيها كل ما يهمهم في أثناء مدة التحصيل ، حتى إذا عكفوا على التأليف رجعوا إلى هذه البطاقات ليختاروا منها ما يتفق وموضوع بحثهم . وهنا يختلف المؤلف منهم عن الآخر . فمنهم من لا يراعي التأليف المنهجي الدقيق بحيث لا يكون هناك فاصل دقيق بين باب وآخر ، وبحيث يجمع في الباب من النصوص ما يصلح لأن يأتي به في باب آخر — كما فعل الجاحظ . ومنهم من صنف كتابه على طريقة الدروس كما فعل المبرد . أما ابن قتيبة فيبدو أنه عكف على دراسة محتوى بطاقاته ، ثم أخذ بعد ذلك يصنفها وفقا

---

(١) انظر مقدمة كتاب عيون الأخبار التي أخذنا عنها هذه النصوص . (ط . دار الكتب)

لموضوعات محددة . ومما يؤكد هذا قوله في مقدمة كتابه : « وإني حين قسمت هذه الأخبار والأشعار وصنفتها ، وجدتها – على اختلاف فنونها ، وكثرة عدد أبوابها – تجتمع في عشرة كتب ، بعد الذي رأيت إفراده عنها ، وهو أربعة كتب متميزة ، كل كتاب منها مفرد على حدته ؛ كتاب الشراب ، وكتاب االعارف ، وكتاب الشعر ، وكتاب تأويل الرؤيا » . (١)

وبعد أن أفرد ابن قتيبة لكل موضوع من الموضوعات التي ذكرها كتابا ، عاد فجمع بين الموضوعات العشرة المتبقية لديه في كتاب واحد ، وسماه « عيون الأخبار » . وهذه الموضوعات العشرة هي : كتاب السلطان ، وكتاب الحرب ، وكتاب السؤدد ، وكتاب الطبائع والأخلاق ، وكتاب العلم ، وكتاب الزهد ، وكتاب الإخوان ، وكتاب الحوائج وكتاب الطعام ، وكتاب النساء . والواقع أنه ليس هناك ما يفسر السبب في عدم إدراج ابن قتيبة الموضوعات الأربعة الأولى في كتاب عيون الأخبار ، الذي رأينا أنه يجمع بين موضوعات شتى لا صلة بين بعضها وبعض ؛ فقد كان من الممكن أن يستوعب كذلك بحثه عن الشراب وعن المعارف وعن الشعراء وعن تأويل الرؤيا .

وعلى كل فإن ما يعنينا من طريقة التأليف عند ابن قتيبة هو التصنيف الدقيق الذي التزمه . فهو يستقصي البحث في الموضوع الواحد من شتى جوانبه . ويستشهد بالنصوص التي تؤيد ما يبحثه من نقاط حول هذا الموضوع . ونضرب مثلا لذلك بكتاب السلطان . فهو يحتوي على الأخبار عن محل السلطان واختلاف أحواله ، وعن سيرته ، وعما يحتاج صاحبه إلى استعماله من الآداب في صحبته وفي مخاطبته ومعاملته ومشاورته له ، وما يجب على السلطان أن يأخذ به في اختيار عماله وقضاته وحجابه وكتّابه ، وما على الحكام أن يمتثلوه في أحكامهم ، وما جاء في ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار .

وسعة اطلاع ابن قتيبة تتجاوز المصادر العربية إلى غير العربية . فإذا أورد

(١) عيون الأخبار : المقدمة ، ص (ن)

أحاديث عن الرسول عليه السلام ، أو أقوالا عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز على سبيل المثال ، أورد بجانب ذلك ما قرأه في الكتب الهندية والفارسية وغيرها ، مما يناسب الموضوع . فيقول في كتاب السلطان على سبيل المثال : « وقرأت في كتاب من كتب الهند : شر المال ما لا يُنْفق منه ، وشر الإخوان الخاذل ، وشر السلطان من خافه البريء ، وشر البلاد ما ليس فيها خصب ولا أمن » (١) . ثم يقول : « وقرأت فيه (أي في الكتاب نفسه) : خير السلطان من أشبه النسر حوله الجيف ، لا من أشبه الجيفة حولها النسور . » (٢)

ويقول في مكان آخر : « وقرأت في بعض كتب العجم كتابا لأردشير بن بابل إلى الرعية ، نسخته : من أردشير الموبذ ذي البهاء ، ملك الملوك ووارث العظماء ، إلى الفقهاء ... » (٣) ثم يقول : « وقرأت كتابا من أرسطاطاليس إلى الإسكندر وفيه ... » (٤)

فكتاب ابن قتيبة على هذا يمثل بحق المزج الذي حدث بين الثقافة العربية والثقافة الأجنبية . وهو في هذا يضارع الجاحظ الذي كان يأتي على قلة في البيان والتبيين بالأخبار الأعجمية ، لا نقلا عما قرأه ، بل نقلا عما تواتر على ألسنة الناس من حكم الفرس والهنود وغيرهم .

(ه) : على أنه إذا كان ابن قتيبة قد بزّ الجاحظ في التنظيم والتبويب والتصنيف ، وإذا كان قد بزه في اطلاعه على الكتب الأعجمية ، فان الجاحظ ما زال يتفوق عليه في كونه كاتبا يتميز بشخصية تتجلى في كتاباته ، كما يتميز بحسه الاجتماعي ومقدرته على إبراز النماذج البشرية وتحليل سلوكها النفسي والاجتماعي .

---

(١) عيون الأخبار – جـ ١ ص ٣
(٢) نفسه
(٣) الجزء الاول ص ٧
(٤) الجزء الاول ص٨

(و) : ومهما يكن من امر فإن كتاب « عيون الأخبار » يعد خطوة في طريق التأليف المنهجي عند العرب القدماء . وهو بما فيه من معلومات ضافية عن الثقافة العربية وغير العربية ، يعد مصدرا لا غنى عنه للباحث في التراث العربي ، شأنه في ذلك شأن كتابي البيان والتبيين والكامل .

وقد طبع الكتاب بين عام ١٨٩٩ ، ١٩٠٨ م في مدينة جوتنجن بعناية العالم المستشرق بروكلمن . وفي عام ١٣٢٤ هـ طبع محمد إبراهيم أدهم الكتبي كتاب السلطان فقط . ثم اهتمت دار الكتب المصرية بعد ذلك بنشره ، واعتنى القسم الأدبي فيها بمراجعة الكتاب وتذييله بهوامش تفسر الغريب من الألفاظ ، وتوضح الغامض من المعاني .

* * *

نموذج من الكتاب :

الكُتّاب والكِتابة

حدّثنا إسحاق بن راهَوَيْه عن وهب بن جرير عن أبيه عن يونس بن عبيد عن الحسن عن عمر بن تَغلب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال « من أشراط الساعة أن يَفيض المال ويظهر القلم وتفشو التجار » قال عمرو : إن كنا لنلتمس في الحِواء(1) العظيم الكاتبَ ، ويبيع الرجلُ البيع فيقول حتى أستأمِن تاجِرَ بني فلان .

حدّثنا أحمد بن الخليل عن إسماعيل بن أبَان عن عَنْبَسة بن عبد الرحمن القُرَشيّ عن محمد بن زَاذَان عن أمّ سعد عن زيد بن ثابت قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يُملي في بعض حوائجه فقال « ضع القلم على أذنك فإنه أذكر للمُمْلي به » .

وحدّثني عبد الرحمن بن عبد المُنعِم عن أبيه عن وَهْب قال : « كان إدريس النبيّ عليه السلام أوّلَ من خطَّ بالقلم وأوّلَ من خاط الثياب ولبسها وكان من قبلَه يلبَسون الجلودَ » .

حدّثنا إسحاق بن راهَوَيْه قال : أخبرنا جَرير عن يَزيد بن أبي زياد عن

---

(1) الحواء : مجتمع بيوت الحي اذا تدانت

عياض ابن أبي موسى أن عمر بن الخطّاب قال لأبي موسى : أدعُ لي كاتبك ليقرأ لنا صُحفًا جاءت من الشأم . فقال أبو موسى : إنه لا يدخل المسجد . قال عمر : أبه جنابة ؟ قال : لا ، ولكنّه نصراني . قال : فرفع يده فضرب فخذه حتى كاد يكسرها ثم قال مالكَ ! قاتلك الله ! أما سمعت قول الله عز وجل (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) ! ألا اتخذتَ رجلًا حنيفيا ! فقال أبو موسى : له دينُه ولي كتابته . فقال عمر : « لا أكرمهم إذ أهانهم الله ولا أعزّهم إذ أذلهم الله ولا ادنيهم إذ أقصاهم الله » .

حدّثنا إسحاق بن راهويه قال أخبرنا عيسى بن يونس قال حدّثنا أبوحيّان التيمي عن أبي زنباع عن أبي الدهقانة قال : ذُكِر لعمر ابن الخطّاب غلام كاتب حافظ من أهل الحيرة وكان نصرانيا . فقيل له : لو اتخذته كاتبا . فقال « لقد اتخذتُ إذاً بطانةً من دون المؤمنين » .

حدّثني أبو حاتم قال : مرامر بن مروة من أهل الأنبار وهو الذي وضع كتابة العربيّة ، ومن الأنبار انتشرت في الناس .

حدّثني أبو سهل عن الطنافسي عن المُنكدِر بن محمد عن أبيه محمد بن المُنكدِر قال جاء الزُّبَير بن العوّام الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : كيف أصبحت ؟ جعلني الله فداك ! قال « ما تركتَ أعرابيتَك بعد » .

قال عبد الملك بن مروان لأخيه عبد العزيز حين وجّهه إلى مصر : « تفقّد كاتبك وحاجبك وجليسك ، فان الغائب يخبرُه عنك كاتبُك ، والمتوسّمُ يعرفك بحاجبك ، والداخلُ عليك يعرفك بجليسك » .

ابن أبي الزّناد عن أبيه قال : كنت كاتبا لعمر بن عبد العزيز فكان يكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطّاب في المظالم فيراجعه ، فكتب إليه : « إنه ليُخيّل إليّ أني لو كتبتُ اليك أن تُعطي رجلا شاة لكتبتَ إلي : أضأن أم ماعز ، ولو كتبتُ اليك بأحدهما لكتبتَ : أذكر أم أنثى ،

ولو كتبتُ اليك بأحدهما لكتبتَ : أصغير أم كبير : . فاذا أتاك كتابي هذا فلا تُراجِعني في مَظْلِمة » .

وكتب أبو جعفر إلى سَلْم بن قُتَيبة يأمره بهدم دُورِ مَنْ خرج مع إبراهيم وعَقْر نخلهم . فكتب إليه : بأي ذلك نبدأ أبالنخل أم بالدور ؟ فكتب إليه أبو جعفر . « أما بعد ، فإني لو أمرتُك بإفساد تمرهم لكتبتَ اليّ تستأذن في أيّه تبدأ أبالبَرْنيّ أم بالشَّهْريز ؟ » وعزله ، وولى محمد بن سليمان . وكان يقول : « للكاتب على الملك ثلاثة ، رفع الحِجاب عنه ، واتّهام الوشاة عليه ، وإفشاء السرّ إليه » .

كانت العَجَم تقول : « من لم يكن عالما باجراء المياه وبحفر فُرَض الماء والمسارب وردم المَهاوي ومَجاري الأيام في الزيادة والنقصان واستهلال القمر وأفعاله ووَزن الموازين ... الخ .

* * *

٤ ـ العقـــد الفـــريد
لابن عبد ربه الأندلسى

(أ) : كان لكتب المختارات الأدبية التي ألفت في الشرق الإسلامي صداها في المغرب الإسلامي ، فقرأها أدباء المغرب واستوعبوها . وحذوا حذوها في لتأليف . وكان أكثر ما يمثل هذا الأخذ والعطاء « ابن عبد ربه » في كتابه « العقد الفريد » .

وهو أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حُدَير بن سالم القرطبي . وكان مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي . ولد بقرطبة في عام ٢٤٦ هـ وفيها نشأ . ولم يبرحها قط إلى المشرق . وعاصر من خلفاء الأندلس محمد بن عبد الرحمن ، والمنذر بن محمد ، وعبد الله بن محمد . وعبد الرحمن الناصر . وتوفي عام ٣٢٨ هـ .

(أ) — ١ : وكانت قرطبة مزدهرة في ذلك العصر بعلمها وفقهها وأدبها . فنهل ابن عبد ربه من ثقافتها ، ودرس الأدب والتاريخ واللغة والفقه والتفسير والحديث ، معتمدا في ذلك على مصدرين : جلة من علماء عصره الذين درس عليهم في الأندلس ، منهم محمد بن وضاح ، وبقي بن مَخْلَد ، ومحمد بن الحارث الخُشَني ، ثم نخبة من الكتب الأدبية التي ذاع صيتها في المشرق ، وانتقلت إلى المغرب ، مثل كتب البيان والتبيين والكامل وعيون الأخبار .

(أ) — ٢ : وبمقدار ما كان ابن عبد ربه محبا للفقه والأدب والتاريخ واللغة ، كان عاشقا للغناء واللهو . ولا غرابة في ذلك ، إذ كانت قرطبة منتعشة

بصنوف الفنون جميعا. وكان بن عبد ربه قد دخل بلاط محمد بن عبد الرحمن وهو شاب يستمتع بمجالس يحي بن يحي الفقيه، بمقدار ما كان يستمتع بغناء زرياب. فوقع بن عبد ربه تحت إغراء الفقه والأدب من ناحية. وسحر الغناء من ناحية أخرى. وقد دافع عن الغناء في عقده في « كتاب الياقوتة الثانية في الألحان واختلاف الناس فيها » ، فقال : « إن كانت الألحان مكروهة فالقرآن والآذان أحق بالتنزيه عنها ، وإن كانت غير مكروهة ، فالشعر أحوج إليها . »

ثم غلبه الزهد في آخر سني عمره ، ودفعه هذا الى أن يراجع أشعاره في الغزل والشراب ويقابلها على وزنها بشعر في المواعظ والزهد . وقد سمى هذه الأشعار الجديدة الممحصات . فإذا قال في الغزل :

هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر   هيهات يأبى عليك الله والقدَرُ
ما زلت أبكي حذار البين ملتهفا   حتى رثى لي فيك الريح والمطر

قابله بقوله في الزهد :

يا عاجزا ليس يعفو حين يقتدر   ولا يقضى له من عيشه وطر
عاين بقلبك إن العين غافلة   عن الحقيقة ، واعلم أنها سقرُ

ويشير هذا إلى اتجاه ابن عبد ربه إلى قول الشعر . ويقال إنه كان له ديوان كبير من الشعر ولكنه لم يصلنا. على أن القدر الذي ذكره لنفسه من شعر في العقد الفريد ، وكذلك ما أورده له الثعالبي في « اليتيمة » يكفي للحكم على مقدرته الشعرية ، وعلى مدى تأثره ببيئة الأندلس اللينة الرقيقة . ولم يصلنا من مؤلفات ابن عبد ربه سوى كتاب العقد الفريد . وقد ذكر له حاجي خليفة في « كشف الظنون » مؤلفا آخر عنوانه « اللباب في معرفة العلم والآداب » ، ولكننا لا نعلم عنه شيئا .

(ب) : وقد ذكر بروكلمان في كتابه « تاريخ الأدب العربي » أن كتاب العقد الفريد كان عنوانه في الأصل « العقد » فحسب . وقد دفعه إلى القول بهذا

الرأي أن الكتب القديمة التي أرخت لابن عبد ربه . مثل ياقوت الحموي في معجم الأدباء ، وابن صاعد الأندلسي في طبقات الأمم . وغيرهما . لم يذكر صفة « الفريد » للكتاب . فإذا كانت هذه الصفة قد أضيفت مؤخرا إلى الكتاب ، فإن هذا يدل على مدى إعجاب الأدباء به إلى درجة أن نعتوه بالتفرد .

وقد قدم ابن عبد ربه لكتابه بمقدمة تفصيلية على نحو ما فعل ابن قتيبة فى كتابه « عيون الأخبار » . وقد ذكر في هذه المقدمة الدافع الذي دفعه إلى تأليف الكتاب فقال : « وبعد ، فإن أهل كل طبقة ، وجهابذة كل أمة ، قد تكلموا في الأدب ، وتفلسفوا في العلوم على كل لسان ، ومع كل زمان ، وأن كل متكلم منهم قد استفرغ غايته ، وبذل جهده ، في اختصار بديع معاني المتقدمين واختيار جواهر ألفاظ السالفين ، وأكثروا في ذلك ، حتى احتاج المختصر منها إلى اختصار ، والمتخير إلى اختيار .

ثم إني رأيت آخر كل طبقة ، وواضعي كل حكمة ، ومؤلفي كل أدب ، أعذب ألفاظا ، وأسهل بنية ، وأحكم مذهبا ، وأوضح طريقة ، من الأول ؛ لأنه ناكص متعقب ، والأول بادىء متقدم » .

ونستخلص من قوله هذا ما يلي :—

أولا : أنه بعد أن امتلأت عقول الأدباء بحشد من النصوص التي نقلت إليهم رواية ، أو ربما دونوها كتابة ، حرصا منهم على عدم ضياعها ، دفعتهم الرغبة في التأليف إلى الجمع بين هذه النصوص في مؤلف واحد ، بعد أن انتقوا منها ما يتلاءم مع موضوعاتهم من ناحية ، وما يمكن أن يكون أكثر إثارة وجذبا للقارىء والمستمع ، من ناحية أخرى .

ثانيا : أن المتأخر من هؤلاء كان ينظر إلى سابقه ويجتهد في أن يضيف شيئا جديدا إلى مختاراته حتى يتميز عن سابقه ، فلا يقال إنه قلده تقليدا .

ثالثا : أن ابن عبد ربه جذبه كذلك هذا النوع من التأليف ، فألف كتابه

« العقد الفريد » . وربما سأل ابن عبد ربه نفسه عما يمكن أن يميز كتابه عن الكتب السابقة عليه . ومن ثم فهو ينبه إلى هذا بقوله : « وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة ، فوجدتها غير متصرفة في فنون الأخبار ، ولا جامعة لجمل الآثار ، فجعلت هذا الكتاب شافيا ، جامعا لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامة والخاصة ، وتدور على ألسنة الملوك والسوقة . وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها ، وتوافقها في مذاهبها ، وقرنت بها غرائب من شعري ، ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا — على قاصيته — وبلدنا — على انقطاعه — حظا من المنظوم والمنثور . »

ومعنى هذا أن ما يميز كتاب العقد الفريد عن كتب المصنفات السابقة عليه هو أنه جعله « شافيا جامعا لأكثر المعاني التي تجري على أفواه الخاصة والعامة » ، وهذا ما كان ينقص الكتب السابقة عليه — كما يدعي . هذا شيء ، والشيء الآخر هو أن عبد ربه قدم فيه ما يتعلق بالمغرب الإسلامي من أدب وأخبار .

فهل يتميز كتاب العقد الفريد حقا عن الكتب السابقة عليه في كونه متصرفا في فنون الأخبار وجامعا لجمل الآثار ؟

(ج) : سمى ابن عبد ربه كتابه بالعقد . وهي تسمية تنطبق تماما على منهج تأليف الكتاب . فقد تصور موضوعات كتابه الخمسة والعشرين متراصة في شكل عقد يحتوي على خمس وعشرين جوهرة . ويقابل واسطة العقد واسطة الموضوعات ، وهي « كتاب الواسطة في الخطب » . وعلى جانبي الواسطة تتراص اثنتا عشرة جوهرة في جانب ، تماثلها في النوع والحجم اثنتا عشرة جوهرة على الجانب الآخر . وبذلك وقع نظام كتابه على النحو التالي :

١ — كتاب اللؤلؤة في السلطان يقابله الكتاب رقم ٢٥ وهو كتاب اللؤلؤة الثانية في النتف والهدايا والفكاهات والملح .

٢ — كتاب الفريدة في الحرب يقابله الكتاب رقم ٢٤ وهو كتاب الفريدة الثانية في الطعام والشراب .

٣ — كتاب الزبرجدة في الأجواد والأصفاد يقابله الكتاب رقم ٢٣ وهو كتاب الزبرجدة الثانية في بيان طبائع الإنسان والحيوان وتفاضل البلدان .

٤ — كتاب الجمانة في الوفود ويقابله الكتاب رقم ٢٢ وهو كتاب الجمانة الثانية في المتنبئين والبخلاء والطفيليين .

٥ — كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك ويقابله الكتاب رقم ٢١ وهو كتاب المرجانة الثانية في النساء وصفاتهن .

٦ — كتاب الياقوتة في العلم والأدب ويقابله الكتاب رقم ٢٠ وهو كتاب الياقوتة الثانية في علم الألحان .

٧ — كتاب الجوهرة في الأمثال ويقابله الكتاب رقم ١٩ وهو كتاب الجوهرة الثانية في أعاريض الشعر وعلل القوافي .

٨ — كتاب الزمردة في المواعظ والزهد ؛ ويقابله الكتاب رقم ١٨ وهو كتاب الزمردة الثانية في فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه .

٩ — كتاب الدرة في التعازي والمراثي ، ويقابله الكتاب رقم ١٧ وهو كتاب الدرة الثانية في أيام العرب ووقائعهم .

١٠ — كتاب اليتيمة في النسب وفضائل العرب ، ويقابله الكتاب رقم ١٦ وهو كتاب اليتيمة الثانية في أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة .

١١ — كتاب العسجدة في كلام العرب ، ويقابله الكتاب رقم ١٥ وهو كتاب العسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم وأيامهم .

١٢ — كتاب المجنبة في الأجوبة ؛ ويقابله الكتاب رقم ١٤ وهو كتاب المجنبة الثانية في التوقيعات والفصول وأخبار الكتبة .

١٣ — الواسطة في الخطب

(د) : ولا أحد ينكر على ابن عبد ربه تفرده في هذا النظام الذي يدل على

ابتكار من وحي شاعر ، ولكن لا يمكن لأحد أن يدعي أنه قد انفرد بهذه الموضوعات . فقد سبق أن أشرنا إلى أن كتاب عيون الأخبار يحتوي على الموضوعات التالية : كتاب السلطان ، وكتاب الحرب . وكتاب السؤدد ، وكتاب الطبائع والأخلاق ، وكتاب العلم ، وكتاب الزهد ، وكتاب الإخوان وكتاب الحوائج . وكتاب الطعام ، وكتاب النساء . وفي هذه الموضوعات نفسها كتب ابن عبد ربه ، بل إنه سمى فصوله أو كتبه بنفس أسماء كتب ابن قتيبة ، فيما عدا كتاب الحوائج وكتاب الإخوان . حقا إنه قد أضاف إلى موضوعات ابن قتيبة موضوعات أخرى ، ولكن يبقى بعد ذلك أن كتاب ابن قتيبة متصرف كذلك في فنون الأخبار ، وجامع لجمل الآثار . وهو ما أنكره عليه ابن عبد ربه ، وإن لم يذكر اسمه صراحة .

وقد سبق أن ذكرنا أن كتاب ابن قتيبة كان قد وصل إلى المغرب ، وأنه لقي رواجا هناك . ولا بد أن يكون الطموح قد دفع ابن عبد ربه ، وهو الأديب الشاعر . إلى أن يؤلف كتابا تبلغ شهرته شهرة كتاب ابن قتيبة . ولهذا فقد حذا حذوه . وأضاف إليه . وكان ينبغي على ابن عبد ربه أن يشير إلى ذلك ، وإلى النصوص التي أخذها من ابن قتيبة ، فليس في ذلك غضاضة على باحث [1] .

وعلى كل فإن ابن عبد ربه لم يستفد من كتاب عيون الأخبار وحده ، بل استفاد من سائر عيون الكتب التي كانت قد ظهرت في المشرق ووصلت إلى المغرب .

(هـ) : ولهذا ليس غريبا أن يعلق الصاحب بن عباد على كتاب العقد الفريد عندما وصل إلى المشرق بقوله : « هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم ، وإنما هو يشتمل على أخبار بلادنا ، لا حاجة لنا فيه » .

---

(١) قارن على سبيل المثال . ص ٩٤ من العقد الفريد جـ ١ بما ورد في ص ١٢٧ من عيون الأخبار جـ١ وص ١٠٠ من العقد الفريد جـ١ بما ورد في ص١٢٥ من عيون الأخبار جـ١ ثم ص١٠٤ من العقد الفريد جـ١ بما ورد في ص ١٢٥ من عيون الأخبار جـ .

على أن الصاحب بن عباد قد بالغ في رفضه للكتاب ؛ لأن الكتاب يحتوي على شعر بن عبد ربه نفسه وهو قدر ليس باليسير ، يمثل — على نحو ما — ذوق المغرب الإسلامي . وإلى جانب هذا فإن ابن عبد ربه ليس مصنفا فحسب ، بل هو كذلك منشىء وناقد في بعض الأحيان . فقد نقد ابن قتيبة في رأيه في الشعوبية ونقد المبرد في بعض مختاراته من الشعر .

(و) : ومما لا شك فيه أن كتاب العقد الفريد يعد مصدرا مهما من مصادر التراث العربي ، لا يقل قيمة عن الكتب التي سبقته . بل إنه حقا يتميز عنها بوفرة المادة التي استقاها ابن عبد ربه من مصادر عدة ، وبتنوع الموضوعات .

وقد طبع كتاب العقد الفريد عدة طبعات مليئة بالعيوب ، إلى أن قامت لجنة التأليف والترجمة والنشر بطبعه طبعة علمية منقحة في عام ١٩٤٨ ، بتحقيق أحمد أمين ، ورفيقيه . وهي الطبعة التي يعتمد عليها كل باحث اليوم .

* * *

نموذج من الكتاب :

فرش كتاب الحروب

قال (أبو عمر) أحمدُ بنُ محمد بنِ عبد ربّه (رحمه الله) : قد مضى قولُنا في السلطان وتعْظيمه ، وما على الرعيّة من لزوم طاعته ، وإدامة نصيحته ؛ وما على السلطان من العدْل في رعيّته ، والرفق بأهل مملكته .

ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الحروب ومَدار أمرها ، وقَوْد الجيُوش وتدبيرها ، وما على المُدبِّر لها من إعمال الخُدْعة ، وانتهاز الفرصة ، والتماس الغِرّة ، وإذكاء العيون ، وإفشاء الطلائع ، واجتناب المَضايق ، والتحفّظ من البَيات . هذا بعد معرفة أحكامها ، وإحكام معرفتها ، وطول تجربته (لها و) لمقاساة الحروب ومُعاناة الجيوش ، وعِلْمه أن لا دِرْع كالصبر ، ولا حِصْن كاليقين . ثم نذكر كرمَ الإقدام ، ومحمودَ عاقبته ، ولُؤمَ الفرار ، ومَذْموم مَغبّته . والله المُعين .

صفة الحروب

الحربُ رَحىً ثِفالها (١) الصَّبْر ، وقُطْبها المَكْر ، ومَدارها الاجتهاد ،

---

(١) الثفال (ككتاب) : جلد أو نحوه يوضع تحت الرحى يقع عليه الدقيق .

وثقافها الأناة ، وزمامها الحذر . ولكل شيء من هذه ثمرة ، فثمرة الصبر التأييد . وثمرة المكر الظفر . وثمرة الاجتهاد التوفيق ، وثمرة الأناة اليُمن ، وثمرة الحذر السلامة . ولكل مقام مقال . ولكل زمان رجال ، والحرب بين الناس سجال . والرأي فيها أبلغ من القتال .

قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لعمر بن معديكرب : صِفْ لنا الحرب ، قال : مُرة المذاق . إذا كشفت عن ساق ، من صبر فيها عُرِف ، ومن نكل عنها تلف . ثم أنشأ يقول :

الحَرْبُ أوّل ما تكونُ فتيّــة تسعى بزينتها لكل جهُول
حتى إذا حَمِيت وشبَّ ضِرامها عادت عجوزاً غير ذات خليل
شمْطاء جَزَّت رأسها وتنكرت مكْروهةً للشم والتقْبيل

وقيل لعنْترة الفوارس : صِفْ لنا الحرب . فقال : أولها شكْوى ، وأوْسطها نجْوى ، وآخرها بلْوَى .

(وقال الكُمَيت :

والناسُ في الحَرْب شتى وهي مُقْبلة ويستوُون إذا ما أدبَر القبُـــلُ
كل بأُمْنيّتها طَبٌّ موليــةً والعالمون بذي غُدْويّها قُلُل)

وقال نَصْر بن سيّار صاحب خراسان يصف الحرب ومُبتدأ أمرها :

أرى خلَل الرَّماد وميض جَمْــرٍ فيُوشك أن يكون له ضِرامُ
فإن النّار بالعُــودين تُــذكَى وإنّ الحربَ أوّلهـا الكلام
فقلت من التعجّب ليت شـعري أأيقاظ أُمَيّةُ .أم نيــام

وفي حكمة سُليمان بن داود عليهما السلام : الشرّ حُلو أوّله ، مرٌّ آخره .

(والعرب تقول : الحرب غَشوم ، لأنها تنال غيرَ الجاني) .

وقال حَبيب :

والحرب تركب رأسها في مَشْهَد عُدِل السَّفيهُ به بألف حَليمِ
في ساعة لو ان لُقماناً بهـا وهو الحَكيم لكان غيرَ حَكيمِ

وقال أكثم بن صَيْفي حكيم العرب : لا حِلْم لمن لا سَفيه له .

ونحو هذا قول الأحنف بن قيس : ما قلَّ سفهاءُ قومٍ قط إلا ذلّوا .

وقال : لأن يُطيعني سُفهاء قومي ، أحبّ إلي من أن يُطيعني حلماؤهم .

وقال : أكرموا سفهاءَكم ، فإنهم يَكْفُونكم النارَ والعارَ .

وقال النابغة الجعديّ :

ولا خيرَ في حِلْم إذا لم تكُن له بَوادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أن يُكدرا

وأنشد هذا الشعرَ للنبيّ صَلّى الله عليه وسلم ، فلما انتهى إلى هذا البيت ، قال له النبيّ صَلّى الله عليه وسلّم : لا يَفْضُض الله فاك . فعاش ثلاثين ومائةسنة لم تسقط له ثَنية .

وقال النابغة الذُبياني يصف الحرب :

تَبدو كواكبه والشمسُ طالعةٌ لا النورُ نُور ولاالإظلامإظْلامُ

يريد بقوله :

* تبدو كواكبه والشمس طالعة *

شدةَ الهول والكرب ، كما تقول العامة : أريتُه النجوم وسط النهار .

* * *

٥ - كتـــاب الأغـــانى
لأبى الفرج الأصفهانى

(أ) : اتسع مجال التأليف واكتسب بعدا جديدا على يد أبي الفرج الأصفهاني ، الذي استطاع أن يمزج بين العلم والأدب على نحو منهجي موسوعي منظم . فقد شاء أن يؤلف في علم الغناء العربي ، ولكنه مزج التأليف في هذا العلم بالأخبار والأنساب والشعر وعروضه ، والقصص والأحاديث والأخبار .

وهو أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد ، عربي قرشي من بني أمية ، وينتهي نسبه إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية . ولد بأصبهان في عام ٢٨٤هـ في خلافة المعتضد بالله ، وهو العام الذي توفي فيه البحتري . وتوفي في عام ٣٥٧ هـ ، وفي هذا العام نفسه توفي سيف الدولة الحمداني ، وكافور الإخشيدي ، ومعز الدولة بن بويه .

(أ) — ١ : وبعد أن قدم أبو الفرج إلى بغداد ، وجه عنايته إلى دراسة الأدب واللغة والتاريخ والأنساب والشعر والحديث على كبار علماء عصره ، ومنهم ابن دريد ، وابن الأنباري ، والأخفش ، ونفطويه ، والطبري ، وغيرهم . وقد ألم أبو الفرج بكل ذلك إلماما عميقا ، وكان له ، فضلا عن ذلك ، إلمام بالطب والفلك والموسيقى . وقد قال عنه ياقوت في معجمه : « العلاّمة النساب الإخباري الحُفَظَة الجامع بين سعة الرواية والحذق في الدراسة ، لا أعلم لأحد أحسن من تصانيفه في فنها وحسن استيعاب ما يتصدى لجمعه ، وكان مع ذلك شاعرا جيدا . » [1]

كما ذكره ابن خلكان في الوفيات فقال : « كان من أعيان أدبائها (أي

---

(١) انظر مقدمة كتاب الأغاني – ط دار الكتب – جـ١ ص ١٨

بغداد) وأفراد مصنفيها ؛ روى عن عالم كثير من العلماء يطول تعدادهم ، وكان عالما بأيام الناس والأنساب والسير . قال التنوخي : ومن المتشيعين الذين شاهدناهم أبو الفرج الأصبهاني ؛ كان يحفظ من الشعر والأغاني والأخبار والآثار والأحاديث المسندة والنسب ما لم أرقط من يحفظ مثله . ويحفظ دون ذلك من علوم أخر : منها اللغة والنحو والخرافات والمغازي والسير ؛ ومن آلة المنادمة شيئا كثيراً مثل علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجوم والأشربة وغير ذلك . وله شعر يجمع إتقان العلماء وإحسان طرفاء الشعراء »[1] .

هذه الثقافة الجامعة العريضة ، بالإضافة إلى ظرف في المجلس ، وحضور للنكتة والبديهة ، مهدت الطريق لأبي الفرج لأن يلقى حظوة عند كبار رجال عصره ، وعلى رأسهم معز الدولة بن بويه ، وذلك على الرغم مما عرف عنه من إهمال لنظافته ونظافة ثيابه ، ومن إدمان للشراب وتهالك على النساء والغلمان .

وعلى الرغم من انتساب أبي الفرج إلى بنى أمية ، فإنه كان متشيعا ، وإن كان مقتصدا في تشيعه . ولهذا فهو لم يتنكر للحكام الأمويين في الأندلس ، بل ظل يرسل إليهم كتبه ، وينال عن ذلك العطايا المجزية .

(ب) : وقد ترك أبو الفرج ثروة ضخمة من الكتب ، عدا كتاب الأغاني ومنها كتاب مجرد الأغاني ، وكتاب أخبار القيان ، وكتاب الديارات ، وكتاب الأخبار والنوادر ، وكتاب مقاتل الطالبيين ، وكتاب الحمارين والحمارات ، وكتاب أخبار الطفيليين ، وكتاب جمهرة أنساب العرب ، وكتاب في النغم ، ورسالة في الأغاني . وإلى هذه الكتب الثلاثة الأخيرة أشار أبو الفرج في كتابه الأغاني ، كما ذكر هذه المؤلفات وغيرها ابن النديم في الفهرست[2] .

(ب) : وكان الغناء عند العرب قد تطور من حيث هو فن وصنعة ، حتى وصل أوج مجده في العصر العباسي الأول . وفي ذلك يقول ابن خلدون في

---

(١) نفسه .

(٢) الفهرست ، ص ١٧٣

مقدمته : « وما زالت صناعة الغناء تتدرج إلى أن كملت أيام بني العباس عند إبراهيم بن المهدي وإبراهيم الموصلي وابنه إسحق وابنه حماد ؛ وكان من ذلك في دولتهم ببغداد ما تبعه الحديث به وبمجالسه لهذا العهد . وأمعنوا في اللهو واللعب ، واتخذت آلات الرقص في الملبس والقضبان والأشعار التي يترنم بها عليه . وجعل صنفا وحده »[1] .

ولما انقضى ذلك العهد ، وأصبح الغناء يعيش بعد ذلك مترسما خطا الأولين ، كان لا بد ، حفاظا على هذا التراث ، من أن يؤلف من هو عالم بهذا العلم ومتذوق له ، مؤلفا يسجل فيه أصوله وأشهر ألحانه : كما يسجل فيه تاريخ حياة المغنين الذين أسهموا في تطويره . ويبدو أن هناك من الوارقين من كان قد وضع كتابا في الغناء ، نسبه إلى إسحق بن إبراهيم الموصلي ، وكان هذا الكتاب ، مع ذلك ، قليل الفائدة . ولهذا فقد عهد لأبي الفرج الأصفهاني لأن يؤلف كتابا في فن الغناء العربي يخلد فيه أصوله وأشهر ألحانه . وهذا هو الباعث الذي دفع أبا الفرج الأصبهاني إلى تأليف الكتاب ، كما يذكر ذلك في مقدمة كتابه فيقول : « والذي بعثني على تأليفه أن رئيسا من رؤسائنا كلفني جمعه له ، وعرّفني أنه بلغه أن الكتاب المنسوب إلى إسحق مدفوع أن يكون من تأليفه ، وهو مع ذلك قليل الفائدة ، وأنه شاك في نسبته ، لأن أكثر أصحاب إسحق ينكرونه ، ولأن ابنه حماداً أعظم الناس إنكارا لذلك ... وأخبرني أحمد بن جعفر جَحْظَة أنه يعرف الوراق الذي وضعه ، وكان يسمى بسند الوراق ... وليست الأغاني التي فيه أيضا مذكورة الطرائق ، ولا هي بمقنعة من جملة ما بأيدي الناس من الأغاني ، ولا فيها من الفوائد ما يبلغ الإرادة . »[2]

(جـ) : فالغناء إذن هو الموضوع الرئيسي في كتاب الأغاني ، ولهذا فقد صدّر المؤلف كتابه بذكر المائة الصوت المختارة للرشيد ، « وهي التي كان أمر إبراهيم الموصلي وإسماعيل بن جامع وفلَيح بن العوراء باختيارها له من الغناء كله

(٢) انظر مقدمة أبي الفرج لكتابه ص ٥ ، ٦ .

ثم رفعت إلى الواثق بالله ، رحمة الله عليه . فأمر إسحق بن ابراهيم بأن يختار له منها ما رأى أنه أفضل مما كان اختير متقدّما . ويبدل ما لم يكن على هذه الصفة بما هو أعلى منه وأولى بالاختيار ؛ ففعل ذلك . » ولم يقتصر أبو الفرج على ذكر ذلك ، ولكنه أتبعه بما اختاره غير هؤلاء من متقدمي المغنين وأهل العلم بصنعة الألحان . « وبالأصوات التي تجمع النغم العشر المشتملة على سائر نغم الأغاني والملاهي ، وبالأرمال الثلاثة المختارة . وما أشبه ذلك من الأصوات التي تتقدم غيرها في الشهرة ، كمُدُن معبد ، وهي سبعة أصوات . والسبعة التي جعلت بإزائها من صنعة ابن سريج ... وأتبع ذلك بأغاني الخلفاء وأولادهم ، ثم بسائر الغناء الذي عرف له قصة تستفاد وحديثا يستحسن . »

على أن هذا لا يمثل وحده محتوى كتاب الأغاني . بل يتبع أبو الفرج كذلك منهجا مدروسا للاستطراد ، يوصل القارىء في النهاية إلى جمع حصيلة هائلة من العلم والمعرفة . فهو يبدأ بذكر الصوت المختار والشعر المرتبط به ، ثم يستطرد إلى ذكر أشعار أخرى تغني بها وقيلت في نفس المعنى . ثم يتحدث عن المناسبة التي قيلت فيها الأشعار . وربما تكون المناسبة اجتماعية أو سياسية فيستطرد في ذكرها . وقد يجره هذا إلى ذكر الأنساب وأخبار القبائل والفتن الطائفية ، وما يشاكل هذا أو يوضحه من أخبار وسير وأشعار ورسائل وخطب وقصص وملح ونوادر . وفي أثناء ذلك يطلعنا أبو الفرج على حياة البادية وعادات أهلها ومعتقداتهم ، ثم يصحبنا إلى دروب المجتمع العربي المتحضر ، فيطلعنا من ناحية على حياة القصور وبذخها وعادات أهلها ومراسمهم واحتفالاتهم ، كما يرينا من ناحية أخرى حياة عامة الناس وأماكنهم التي يقضون فيها أوقات فراغهم ، من نواد وحانات ومطاعم . ومعنى هذا أنه إذا كان الجاحظ قد اهتم بدراسة أنماط من السلوك البشري بوصفها انعكاساً لواقع اجتماعي ، فإن أبا الفرج قد توغل في دروب هذا المجتمع ، فصوره لنا من خلال ما أورده من وصف قصصي ونوادر وأخبار .

ويبدو أن أبا الفرج قد راودته فكرة تصنيف الكتاب على نحو آخر يتفق مع

المادة الأساسية في هذا الكتاب وهو الغناء ، كأن يكون تصنيف الكتاب على طرائق الغناء أو على طبقات المغنين في أزمانهم ومراتبهم على نحو ما كان يفعل النقاد مع الشعراء . ولكنه رفض ذلك وفضل أن يكون منهج الكتاب ومحتواه على ما هو عليه . وحججه في ذلك تتلخص فيما يلي :

أولا : أن الأصوات المختارة تجري على غير ترتيب زمني للشعراء والمغنين . وأن الهدف من هذا الكتاب ليس هو ترتيب الطبقات ، بل ذكر الأغاني بأخبارها .

ثانيا : أن المغنين قد يشتركون في طرائقهم بحيث يصعب أن يكون بعض المغنين أولى بنسبة الصوت إليه من الآخر ، ومن ثم يصعب تصنيف الكتاب إلى طرائق .

ثالثا : أن أبا الفرج الذي اشتهر بمجلسه الفكه وأحاديثه المتنوعة الشائعة وخفة ظله ، يمج التأليف الثقيل على النفس . فإذا هو صنف كتابه وفقا لطبقات المغنين ، فان هذا يقتضي منه أن يأخذ في سرد أخبار المغني ، وأن يحشد سرده بما أتى به المصنفون والرواة . فإذا فرغ من ذلك أخذ في سرد أخبار الشاعر الذي غنى بشعره دون أن يتجاوز ذلك حتى يفرغ منه . ولو أنه فعل هذا « كانت للنفس عنه نبوة ، وللقلب منه ملّة ، وفي طباع البشر محبة الانتقال من شيء إلى شيء ، والاستراحة من معهود إلى مستجد . وكل منتقل إليه أشهى إلى النفس من المنتقل عنه ، والمنتظر أغلب على القلب من الموجود . وإذا كان هذا هكذا ، فما رتبناه أحلى وأحسن ، ليكون القارىء له بانتقاله من خبر إلى غيره ، ومن قصة إلى سواها ، ومن أخبار قديمة إلى محدثة ، ومليك إلى سوقة ، وجد إلى هزل ، أنشط لقراءته وأشهى لتصفح فنونه ، لا سيما والذي ضمناه إياه أحسن جنسه ، وصفو ما ألف في بابه ، ولباب ما جمع في معناه » . (١)

---

(١) مقدمة أبي الفرج ، ص ٣ - ٥ .

(د) : ويمكننا بعد ذلك أن نلخص أهمية الكتاب فيما يلي :

أولا : يعد كتاب الأغاني أغنى كتب عصره في أخبار الجاهلية والإسلام وبني أمية ، ومعنى هذا أنه احتفظ لنا بمادة لم تكن لتصلنا لو لم يدونها أبو الفرج.

ثانيا : لم يهتم أحد قبل أبي الفرج بدراسة فن الغناء العربي وتاريخ المغنين منذ أن نشأ هذا الفن عند العرب . وهذا يعني أن كتابه يعد المرجع الأساسي ، وربما الوحيد لتاريخ الغناء والمغنين في القرون الثلاثة الأولى . ولهذا فقد اعتمد عليه « فارمر » أساساً في كتابه عن « تاريخ الموسيقى العربية » .

ثالثا : أن ما يزخر به الأغاني من وصف تفصيلي لجوانب الحياة في العصر الذي كان يعيش فيه ، واهتمامه بذكر صنوف المأكل والملبس وطرق الحياة بوجه عام ، جعل منه مصدرا للحضارة العربية لا غنى عنه لباحث .

رابعا : يمثل أبو الفرج في أسلوبه القصصي الممتع ، تطورا ملحوظا في هذا الفن.

خامسا : ولم يكن أبو الفرج بعد كل ذلك مجرد ناقل أوراو ، بل كان ناقدا ممحصا . فهو حريص على رواية الأخبار بأسانيدها ، وهو حريص على ذكر اسم من أخذ عنه وإن أغفل في بعض الأحيان ذكر اسم كتابه . ثم هو أخيرا لا يقبل النصوص على علاتها ، بل يمحصها ، وقد ينسب الكذب والتلفيق لأصحابها . ومن ذلك قوله في ابن خرداذبة بمناسبة ذكر أخبار معبد : « وذكر ابن خرداذبه أنه (أي معبد) غنى في أول دولة بني أمية ، وأدرك دولة بني العباس ، وقد أصابه الفالج وارتعش وبطل ، فكان إذا غنّى يُضْحَكُ منه ويُهْزأ به . وابن خرداذبة قليل التصحيح لما يرويه ويُضَمّنهُ كتبه . والصحيح أن معبدا مات في أيام الوليد بن يزيد بدمشق وهو عنده . وقد قيل : إنه أصابه الفالج قبل موته ، وارتعش وبطل صوته . فأما إدراكه دولة بني العباس فلم يَرْوِه أحد سوى ابن خرداذبة ، ولا قاله ولا رواه عن أحد وإنما جاء به مجازفة . » (١)

---

(١) الأغاني جـ ٦ ص ٣٦ .

ولا غرو بعد ذلك أن يقول ابن خلدون عن كتاب الأغاني : « ولعمري إنه ديوان العرب ، وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ؛ ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه ؛ وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها ، وأنى له بها . »[1]

(هـ) : وقد اختصر كتاب الأغاني قديما عدة مرات . ومن بين الذين اختصروه : ابن المغربي المتوفى في عام ٤١٨ هـ ، وابن واصل الحمويّ المتوفى في عام ٦٩٧ هـ ، وابن باقيا الكاتب الحلبي المتوفى عام ٤٨٥ هـ ، ثم الإمام اللغوي جمال الدين الأنصاري المتوفى عام ٧١١ هـ .

وقد اختصره في العصر الحديث محمد الخضري بعد أن حذف منه الأسانيد وما لم يستحسن ذكره . وقد جعله في قسمين : قسم خاص بالشعراء ، وآخر خاص بالمغنين .

وقد طبع الكتاب عدة طبعات ؛ أهمها طبعة بولاق التي ظهرت سنة ١٢٨٥ هـ وطبعه محمد أفندي ساس المغربي . كما قام المستشرق جويدي بعمل فهارس كاملة للكتاب وفقا لطبعة بولاق ، وقد نشرت هذه الفهارس في مجلد واحد في ليدن عام ١٣١٨ هـ .

وأحدث طبعة لهذا الكتاب هي طبعة دار الكتب المصرية ، وهي طبعة منقحة مزودة بالفهارس التفصيلية .

* * *

---

(١) انظر تصدير كتاب الأغاني ص ٣٤ .

نموذج من الكتاب :

قدومه مكة والتقاؤه بالمغنين بها

أخبرني الحُسين بن يحيى عن حمّاد عن أبيه قال :

قيل لابن عائشةَ ، وقد غنّى صوتاً أحسنَ فيه فقال : أصبحتُ أحسن الناس غِناءً ، فقيل له : وكيف أصبحتَ أحسنَ الناس غناءً ؟ قال : وما يمنَعُني من ذلك وقد أخذتُ من أبي عبّاد أحدَ عشرَ صوتاً ، وأبو عبّاد مُغنّي أهلِ المدينة والمقدَّمُ فيهم !

أخبرنا وَكيعٌ قال حدّثنا حَمّاد بن إسحاق قال حدّثني أبي قال حدّثني أيوب ابن عَبَايَةَ عن رجل من هُذَيْل قال :

قال معبد : غنّيتُ فأَعْجَبني غنائي وأعجبَ الناسَ وذهَب لي به صيتٌ وذِكْر ، فقلت : لآتيَنَّ مكّةَ فَلأَسْمَعَنَّ من المغنّين بها ولأُغَنِّيَنَّهم ولأَتعرّفَنَّ إليهم ، فأبتعتُ حِمارا فخرجتُ عليه الى مكّة . فلمّا قَدِمتُها بِعتُ حِماري وسألتُ عن المغنّين أين يجتمعون ؟ فقيل : بقُعَيْقِعَانَ في بيت فلان ؛ فجئتُ الى منزله بالغَلَس فقرَعْتُ البابَ ؛ فقال : مَنْ هذا ؟ فقلت : انظرْ عافاك الله ! وهو يُسبِّحُ ويستعيذُ كأنه يخاف ، ففتَح فقال : من أنت عافاك الله ؟ قلتُ : رجلٌ من أهل المدينة . قال : فما حاجتُك ؟ قلتُ : أنا

رجلٌ أشتهي الغناءَ ، وأزعُم أني أعرف منه شيئا ، وقد بلغني أنّ القوم يجتمعون عندك ، وقد أحببتُ أن تُنْزِلَني في جانب منزلك وتَخْلِطَني بهم ؛ فإنه لا مئونَة عليكَ ولا عليهم منّي . فَلَوى شيئاً ثم قال : انْزِلْ على بَرَكَة الله . قال : فنقلتُ مَتاعي فنزلتُ في جانب حُجْرته . ثم جاء القومُ حينَ أصْبَحُوا واحداً بعد واحد حتى اجتمعُوا ، فأنْكَرُوني وقالوا : مَنْ هذا الرجل ؟ قال : رجلٌ من أهل المدينة ، خفيفٌ يشتهي الغناءَ ويَطْرَبُ عليه . ليس عليكم منه عَناءٌ ولا مكروهٌ . فرحّبوا بي وكلّمتُهم ، ثم انْبَسَطُوا وشَرِبُوا وغَنَّوْا ، فجعلتُ أعْجَبُ بغنائهم وأُظْهِرُ ذلك لهم ويُعجِبُهُم منّي ، حتى أقمنا أيّاما ، وأخذتُ من غنائهم وهم لا يدرون أصواتا وأصواتا . ثم قلت لابنُ سُرَيج : أيْ فديتك ! أَمْسِكْ عليّ صوتَك :

قُلْ لهندٍ وتِرْبِها ٭ قبلَ شَحْطِ النَّوَى غَدَا

قال : أوَتُحْسِنُ شيئا ؟ قلتُ : تَنْظُرْ ، وعسى أن أصنع شيئا . وأندفعتُ فيه فغنّيتُه ، فصاح وصاحوا وقالوا : أحسنتَ قاتَلكَ اللهُ ! قلتُ : فأَمْسِكْ عليّ صوتَ كذا فأَمسَكُوه عليّ . فغنّيتُه ، فازدادوا عَجَباً وصِيَاحاً . فما تركتُ واحدا منهم إلا غنّيتُه من غنائه أصواتا قد تخيرّتُها . قال : فصاحوا حتى علَتْ أصواتُهم وهَرفوا بي وقالوا : لأنت أحسنُ بأَداء غِنائنا عنّا منّا . قال : قلت : فأَمْسِكوا عليّ (ولا تَضْحَكوا بي حتى تسمعوا من غِنائي) ، فأمسكوا عليّ ؛ فغنّيتُ صوتا من غِنَائي فصاحوا بي ، ثم غنيّتُهم آخرَ وآخرَ فوَثَبُوا إليّ وقالوا : نَحلِفُ بالله إنّ لك لصِيتاً واسماً وذِكرا ، وإنْ لك فيما هاهنا لَسهْماً عظيما فمن أنت ؟ قلت : أنا مَعْبَد . فقبّلوا رأسي وقالوا : لقَقْتَ علينا وكنّا نَتَهاوَنُ بك ولا نَعُدُّك شيئا وأنتَ أنتَ . فأقمتُ عندهم شهراً آخُذُ منهم ويأخذون منّي ، ثمانصرفتُ الى المدينة .

نسبةُ هذا الصوت

صوت

قُلْ لهند وتربْهـــا • قبلَ شَحْطِ النوَى غدا
إن تجـودِي فطالمـا • بِتُّ لَيْلي مُسهَّداَ
أنتِ في ودٍّ بيننـا • خيرُ ما عنـدَنا يدَاَ
حينَ تُدْلِي مُضَفَّراً • حالِكَ اللّونِ أسْودا

الشعر لعُمَر بن أبي ربيعة ، والغِناءُ لابن سُرَيج عن حمّاد ولم يجنّسه . وفيه لمالك خفيفُ ثقيلٍ أوّل بالبنصر في مَجْراها عن إسحاق . وقال الهِشاميّ : فيه لابن مُحْرِز خفيفُ ثقيلٍ بالوُسْطى .

* * *

٦ – نهـاية الأرب فـي فنـون الأدب

لشهاب الدين النويرى

ومع تباعد الزمن وكثرة التأليف ، تضاعفت مهمة العلماء المتأخرين في استيعاب كل ما وصل اليهم من مادة أدبية تدوينا وشفاها . فلما عكف هؤلاء على التأليف ، وكانت المادة قد تزاحمت في عقولهم ، احتاجوا إلى مجلدات كثيرة لإفراغ ما استوعبوه . ومن هنا نشأت المؤلفات الموسوعية مثل صبح الأعشى للقلقشندي ، ونفح الطيب للمقري . ونهاية الأرب للنويري .

وفي الوقت نفسه كان التأليف المنهجي قد استقر إلى حد كبير . ولما كانت هذه الكتب الموسوعية تحتاج أكثر من غيرها إلى تصنيف وتبويب ؛ فقد استفاد أصحابها من محاولات السابقين عليها في التصنيف والتبويب ؛ بل جعلوها أكثر دقة وتفريعا . وكتاب « نهاية الأرب » للنويري خير ما يمثل هذا التطور في التأليف الأدبي .

(أ) : ولد شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب في عام ٦٧٧ هـ في صعيد مصر بقرية نويرة ، ومن ثم عرف بالنويري . وكان النشاط الأدبي قد وجد في مصر والشام تربة خصبة وبيئة صالحة بعد أن استولى التتار على بغداد وقضوا على دولة العباسيين . ولهذا فإننا نجد كتابين موسوعيين يؤلفان في مصر في هذا العصر المتأخر نسبيا ، وهما كتابا « نهاية الأرب » و « صبح الأعشى » ، كما ألف في الشام موسوعة « الوافي بالوفيات » للصفدي ؛ وموسوعتا « فوات الوفيات » ، و « عيون التواريخ » لابن شاكر الكتبي .

ويبدو من مقدمة كتاب « نهاية الأرب » . أن النويري كان يشغل مناصب إدارية في عهد الملك الناصر قلاوون . الذي خصه بالثناء والدعاء في نهاية مقدمة

كتابه . وقد كانت هذه المناصب ترتبط بالإيرادات والمقايسات وربما بأعمال تجارية أخرى . وعلى الرغم من أنه كان قد أتقن مواد هذه الصناعة ؛ وتاجر فيها بأنفس بضاعة — على حد تعبيره — فإنه نبذها وراء ظهره . وعكف على صناعة الآداب . وقد ظل عاكفا على الدرس والطلب ، حتى امتلأت نفسه ، فعكف على تأليف كتابه .

وقد توفي النويري عام ٧٣٣ هـ بمصر . ولا نعرف له من المؤلفات سوى كتابه هذا .

(ب) : ولا يمكن أن يكون النويري قد استعفى من عمله وعكف على الدراسة الأدبية والتأليف فجأة ؛ بل لا بد أنه كان يأنس في نفسه من قبل الميل إلى الأدب والرغبة في تحصيله فانه كان يفعل ذلك في أثناء اشتغاله بأعماله الكتابية . ولا بد أنه كان على صلة بالأديبين العالمين الصلاح الصفدي وابن شاكر الكتبي ، اللذين كانا معاصرين له زمنا في الشام . فلما رأى النويري أن تحصيل الثروة الأدبية التي خلفتها بيئة العراق تحتاج إلى تفرغ كامل ؛ قر عزمه على ترك مهنته بعد أن أخذ منها كفايته ، والعكوف على التحصيل والتأليف . وفي ذلك يقول النويري : « ثم نبذتُها وراء ظهري (أي أعماله) ، وعزمت على تركها في سرّي دون جهري ؛ وسألت الله تعالى الغُنْية عنها ، وتضرعت إليه فيما هو خير منها ، ورغبت في صناعة الآداب ، وتعلقت بأهدابها وانتظمت في سلك أربابها ، فرأيت غرضي لا يتم بتلقّيها من أفواه الفضلاء شفاها ، ومَوردي منها لا يصفو ما لم أجرد العزم سفاها . فامتطيت جواد المطالعة ، وركضت في ميدان المراجعة . وحيث ذل لي مركبها ، وصفا لي مشربها ، آثرت أن أجرد منها كتابا استأنس به وأرجع إليه ، وأعول فيما يعرض لي من المهمات عليه »[1] ويفهم من هذا الكلام أمران : الأمر الأول ؛ أن الرواية كانت قد ضعف شأنها كما وكيفا بالقياس إلى أمهـــات الكتب التي أصبحت المورد الأول للنهل

---

(١) مقدمة النويري ، ص ٣ .

من معين الأدب . والأمر الثاني أن النويري كان يود تأليف موسوعته لا ليفيد منها غيره من الأدباء فحسب . بل ليفيد منها هو نفسه كذلك ؛ إذ أنه كان يتوقع أن تكون أشبه بدائرة المعارف التي يرجع اليها متى شاء للتحقق من أمر من الأمور التي يكون قد استقصى البحث فيها .

(ج) : ويشير محتوى الكتاب إلى تطور في التصنيف والتبويب كما سبق أن ذكرنا ؛ فالنويري لم يكتف بتقسيم محتوى كتابه إلى موضوعات رئيسية كما فعل ابن قتيبة وابن عبد ربه في كتابيهما « عيون الأخبار » و « العقد الفريد » ، بل قسمه إلى خمسة فنون ، وجعل في كل فن خمسة أقسام ، ثم جعل في كل قسم موضوعات لم يتقيد فيها بعدد معين . وهذا ولا شك تقسيم منطقي ؛ فالفن هو الموضوع الكبير الذي ينقسم بالضرورة إلى أقسام ، كما أن كل قسم بدوره يتفرع إلى موضوعات صغيرة ، سمى كل منها بابا .

وتتدرج الفنون الخمسة التي تحتوي عليها موسوعة النويري من الحديث عن الأمور الكونية غير المرئية إلى المعارف الحسية والواقعية . فالفن الأول موضوعه « السماء والآثار العلوية والأرض والمعالم السفلية » . وهو يتدرج في هذا الفن كذلك من المجهول إلى المعلوم : فيبدأ بالبحث في السماء وما فيها من طبقات وأفلاك وملائكة ، ويتبع هذا بالبحث في السحب والصواعق ، ثم في التقويم ، ثم في الأرض وطبيعتها . ويختم هذا الفن بما تناهى إلى علمه عن المدن المأهولة وخصائصها وخصائص سكانها .

والفن الثاني في الإنسان . والإنسان مبحث كبير يتناول مظهره وفكره وسلوكه . ولهذا فهو يخص مظهر الإنسان بالقسم الأول . وأما فكره ووسائل التعبير عنده فيخصص لها القسمين الثاني والثالث . كما يفرد لسلوكه القسم الرابع . وقد كان من الممكن أن ينتهي هذا الفن عند هذا الحد ، ولكن الإنسان الذي يتمتع باستقلال شخصيته وفكره . لا بد أن يخضع لسلطة هي سلطة الحاكم ولهذا فقد أفرد للحاكم والعلاقة بين الحاكم والمحكوم القسم الأخير .

فإذا فرغ النويري من الإنسان . التفت إلى مظهر آخر من مظاهر الحياة على وجه الأرض ، وهو الحيوان ، فيتناوله في الفن الثالث . وهو يصنف الحيوان في خمسة أقسام تصنيفا جيدا . فقسم للسباع وما يتصل بها من جنسها ، وقسم للحيوان المتوحش والبري . وقسم للحيوان المستأنس ، وقسم للزواحف ، وقسم للطير .

ومن الطبيعي أن يعقب البحث في الحيوان البحث في النبات ، وهو يستقصي هذا البحث كذلك في خمسة أقسام ؛ فقسم في المبحث العام حول أصل النبات واختلافه حسب البيئة ، وقسم في الأشجار ، وقسم في الفواكه ، وقسم في الرياض والأزهار ، وقسم في أصناف الطيب والأعشاب الطبية .

أما الفن الخامس والأخير فهو في التاريخ . والتاريخ يعني بداية الحياة وتطورها وتتابع أهلها زمنيا حتى عصر المؤلف . وهذه الحقبة الطويلة من الزمن يقسمها النويري إلى عصور : فالعصر الأول يبدأبآدم وينتهي بأخبار الرّس الذين عاشوا قبل إبراهيم عليه السلام . والعصر الثاني ويبدأ بإبراهيم عليه السلام ، وينتهي بعصر النبي شعيب . والعصر الثالث ويبدأ بموسى وينتهي بعيسى ، والعصر الرابع هو عصر الملوك ، وينتهي بمجيء الإسلام . أما العصر الخامس فيبدأ بسيرة النبي عليه السلام وينتهي بخلافة قلاون الذي كان معاصرا له .

(د) : وقد يبدو أن المادة التي يتألف منها الكتاب على هذا النحو هي أدخل في اختصاص العلوم لا الأدب . فكيف يمكن إذن أن يوصف كتاب النويري بأنه موسوعة أدبية ؟ السبب في هذا يرجع إلى أن النويري بحث موضوعات كتابه المتنوعة من زاوية أدبية . ويمكننا أن نستشهد على ذلك ببحثه مثلا في الفن الأول ، وهو « السماء وما فيها » . لقد بدأ هذا الفن بالكلام في مبدأ خلق السماء . وكان أول ما أورد في ذلك بعض النصوص القرآنية التي تتصل بهذا الموضوع . ومثال ذلك قوله تعالى : « أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ، رفع سمكها فسوّاها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . » وقبل أن

يشرع في بحث خلق السماء مسترشدا ببعض الآيات القرآنية ، يعرض لمبحث لغوي هو تذكير السماء وتأنيثها . وهو يستشهد على حالة تذكيرها بقوله تعالى : « السماء منفطر به » ، وفي حالة تأنيثها بقوله تعالى كذلك : « إذا السماء انفطرت » . ثم يشير بعد ذلك إلى الأسماء التي عرفها العرب للسماء ، ومنها الجرباء . والخلقاء ، وبَرقع . والرقيع . وبعد ذلك يشرع في الحديث عن كيفية خلق السماء وعن هيئتها . والمعلومات التي يأتي بها في هذا الموضوع مصدرها إما المعلومات الشعبية أو الأحاديث التي قد يستمدها من كتب السنة ، أو أحاديث قد يأتي بها دون إسناد أو مرجع . فمثال المعارف الشعبية التي لا يستند فيها إلى مرجع بعينه ، لأنها ربما كانت روايات متناقلة ، قوله : « حكي في سبب حدوثه (أي حدوث خلق السماء) أن الله تعالى خلق جوهرة ، وصف من طولها وعرضها عظما ، ثم نظر إليها نظر هيبة فانماعت ، وعلاها من شدة الخوف زبد ودخان ؛ فخلق الله من الزبد الأرض . وفتقها سبعا ، ومن الدخان السماء ، وفتقها سبعا . ودليله قوله تعالى : « ثم استوى إلى السماء وهي دخان » [1]

وهنا نجد أن النويري يؤيد قوله ، رغم أنه مجرد تصور شعبي ، بالآية القرآنية . والواقع أن مثل هذه الآيات القرآنية كانت دائما المنطلق الذي يدور حوله التفسير ويتشعب . ثم يضاف إليه الكثير من التصورات الشعبية . فإذا ورد في الآية : « الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن » ؛ شرع المفسرون تصوير هذه السموات ، ثم يطلقون العنان لأخيلتهم لتصور ما في كل سماء ، وتحديد المسافة بين السماء والأخرى . وهذا ما يفعله النويري . فإن أعوزته الحاجة الى تدعيم رأيه أو ، بالأحرى ، الرأي الشائع . لجأ إلى الأحاديث التي قد يذكر مصدرها وإن أغفل إسنادها . وقد لا يذكر مصدرها أو إسنادها . مثل قوله : « قال صلى الله عليه وسلم : أطّت السماء وحُقّ لها أن تئط ؛ ما فيها

(١) النويري : نهاية الأرب . جـ ١ ص ٢٩ (ط . دار الكتب المصرية) .

موضع اربع أصابع إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد . »[1]

فإذا فرغ النويري من الحديث في هذه المسائل الكونية العويصة ، تحول إلى ناحية أدبية صرف ، فيذكر ما قيل في السماء من أمثال وأشعار ، وما قيل فيها من تشبيهات واستعارات ، وهو في ذلك ينتقي أجمل ما قيل في التراث العربي من شعر .

ولا غرابة بعد ذلك في أن تشتمل موسوعة النويري على معارف شتى . فالموضوعات التي يتحدث فيها واسعة ، ولها صلة بالأساطير والدين والأدب والعلوم الجغرافية والفلكية والتاريخية . ونحن نجد لديه في كل هذه الفروع معلومات وافرة طريفة . ولا يتحرج النويري من استقاء معلوماته من شتى المصادر ، ابتداء من المصادر التي يتسم البحث فيها بالطابع العلمي : مثل كتاب الملل والنحل للشهرستاني ، وبعض كتب الإمام الغزالي ، إلى تلك التي لا تعتمد في أخبارها على الروايات الشفاهية ، ولا تتحرى الدقة العلمية في تمحيص ما تنقل من معلومات ، مثل كتب وهب بن منبه وابن إسحق . وقد روى عن هذين الإخباريين كل ما يعرف بالقصص الديني الشعبي ، مثل قصة تعمير آدم للأرض وسكناه الحرم المقدس في مكة ، ونزول الحجر الأسود عليه ، وقصة حج إبراهيم عليه السلام [2] ؛ وقصة ذي القرنين [3] ، وغير ذلك من القصص .

(هـ) : فكتاب نهاية الأرب يمثل بحق الحصيلة الثقافية في عصر النويري . وهنا تتمثل أهمية الكتاب ؛ فهو فضلا عن أنه يمدنا بمعلومات وافرة في شتى النواحي ، يطلعنا كذلك على الثقافة العامة والخاصة في عصره ، كما يشير إلى أي حد حدث الامتزاج بين الثقافتين .

وقد قامت دار الكتب المصرية بنشر الكتاب نشرة علمية محققة . ولكنها لم تنشر منه سوى ثمانية عشر جزءا ، وما زال باقي الكتاب . ويبلغ أربعة عشر جزءا ، مخطوطا .

---

(١) نفسه : ص ٣٦ .

(٢) انظر نهاية الأرب ١/٣٠١ – ٣٠٩

(٣) انظر نفسه ١/٣٧٤ – ٣٧٨ .

نموذج من الكتاب :

الباب الثالث

من القسم الثالث من الفن الأوّل

١ — في الفصول وأزمنتها

وفصول السنة أربعة : الربيع ، والصيف ، والخريف ، والشتاء . ولكل فصل منها ثلاثة بروج ، وثلاثة أشهر ، وسبع منازل ، وموافقة من الطبائع الأربع .

١ — فأما فصل الربيع ، وهو عند العرب الصيف ، فطبعه حارّ رطْب . ودخوله عند حلول الشمس برج الحمل ، والثور ، والجوزاء . وهذه البروج عندهم تدل على الحركة . وله من السن الطفوليةُ والحداثةُ ، ومن الرياح الجنوب ؛ ومن الساعات الأولى والثانية والثالثة ، ومن القوى القوة الجاذبة ، ومن الأخلاط الدّم ، ومن الكواكب القمرْ والزُّهَرَة . ومن المنازل بعض الفَرْغ المقدّم والفرغ المؤخر ، والرشاء ، والسّرَطَان ؛ والبُطَيْنُ ، والثُّرَيّا ، والدّبَرَان ، وبعض الهَقْعة . وعدد أيامه أربعة وتسعون يوما .

وحلول الشمس [1] في الثاني عشر من آذار ، ويوافقه مارس من شهور

(١) أي برج الحمل الذي هو أول فصل الربيع .

الروم ، وفي السادس عشر من برمهات من شهور القبط ، وفي العشرين من أسفندار ماه من شهور الفرس . وإذا حلت الشمس برج الحمل ، اعتدل الليل والنهار . وصار كل واحد منهما أثنتي عشرة ساعة . ثم يأخذ النهار في الزيادة . والليل في النقصان .

وفي هذا الفصل تتحرك الطبائع . وتظهر المواد المتولدة في الشتاء . فيطلع النبات وتُزْهِرُ الأشجار وتُورِق ، ويَهيجُ الحيوان للسِّفاد ، وتذوب الثلوج . وتنبُع العيون . وتسيل الأودية .

ذكر ما قيل في وصف فصل الربيع وتشبيهه نظما ونثرا .

فمن ذلك ما قاله الصنوبري :

ما الدَّهْرُ إلاَّ الرَّبيعُ المُسْتَنيرُ إذا ٭ جاء الرَّبيعُ . أتاكَ النَّوْرُ والنُّورُ .
فالأرضُ ياقوتةٌ ، والجوُّ لُؤلُؤةٌ . ٭ والنَّبْتُ فَيروزَجٌ ، والماءُ بَلُّورُ .

وقال آخر :

اشرَبْ هنيئاً قد أتاكَ زَمَـــانْ ٭ مُتَعَطِّرٌ ، مُتَهَلِّلٌ ، نَشْوانْ !
فالأرضُ وَشْيٌ ، والنسيمُ مُعَنْبرٌ، ٭ والماءُ راحٌ ، والطُّيورُ قِيَانُ .

وقال الثعالبي :

أظُنُّ الرَّبيعَ العَامَ قد جَاءَ زائراً ٭ ففي الشَّمس بَزَّازاً، وفي الرِّيح عَطارا.
وما العَيْشُ إلا أنْ تُوَاجِهَ وجْهَهُ ٭ وتَقْضِيَ بينَ الوَشْيِ والمسكِ أوْطَارا.

وقال آخر :

وفصَّلَ فصْلُ الربيـــع الرياض ٭ عقوداً ورصّع منهــا حُلِياً .
وفاخَـــرَ بالأرضِ أفْقَ السَّماء ٭ فَحَلَّى الثَّرَى بنجــوم الثُّرَيَّا .

وقال الحسن بن وهب :

طَلَعَتْ أوائلُ للربيعِ فبشّرت • نَوْرَ الرِّياض بجِدَّةٍ وشَبَاب
وغَدا السحابُ يكادُ يسحبُ في الثرى • أذْيَالَ أسْحَمَ حَالكِ الجلبَابِ
فترَى السّماءَ إذا أجَدّ رَبَابُهَا • فكأنَّما التحفَتْ جنَاحَ غُرَابِ
وترَى الغُصُونَ إذا الرِّيَاحُ تَنَاوحَتْ • مُلتَفَّةً كتَعَانُقِ الأحبَابِ

وقال بعض فضلاء أصفهَان في وصف فصل الربيع من رسالة ذكرها العماد الأصفهانيّ في الخريدة :

أما بعد . فإن الزمانَ جَسَدٌ وفصلُ الربيعِ رُوحهُ ، وسِرّ حكمة إلهية وبه كَشْفُهُ ووضُوحهُ ؛ وعمر مقدور وهو الشبيبة فيه ، ومنهلٌ جَمٌّ وهو تميره وصافيه ؛ ودَوْحَة خَضِرَةٌ وهو يَنْعُها وجنَاها ، وألفاظ مجموعة وهو نتيجتها ومعناها ؛ فمن لم يَستَشْهو طاعَة نسيمُ هوائه ، ولم يُدرك شِفَاء دَائه في صَفَاء دَوَائه ، لم يَذُقْ لِطَعْم حياته نفعاً ، ولم يجد لخفض حظه من أيامه رفعا .

٢ — وأما فصل الصيف : فإن طبيعته الحرارة واليبس . ودخوله عند حلول الشمس برج السرطان ، والأسد ، والسنبلة .

وهذه البروج تدل على السكون . وله من السنّ الشباب ؛ ومن الرياح الصبا ؛ ومن الساعات الرابعة والخامسة والسادسة ؛ ومن القوى القوة الماسكة ؛ ومن الأخلاط المِرَّة الصفراء ؛ ومن الكواكب المِرّيخ ، والشمس ؛ ومن المنازل بعض الهَقْعة ، والهَنْعة ، والذراع ، والنَّثْرة والطّرْف والجَبْهة (وهي أربعة عشر يوماً) والخَرَاتَانِ وبعض الصَّرْفة . وتنزل الشمس في برج السرطان في الرابع عشر من حزيران . وعدد أيامه ثلاثة وتسعون يوماً ، ويوافقه ينير من شهور الروم ؛ وفي العشرين من بؤونه ، وإذا حلت الشمس برج السرطان ، أخذ الليل في الزيادة ، والنهار في النقصان . والله أعلم .

ذكر ما قيل في وصف فصل الصيف وتشبيه نظما ونثرا .

فمن ذلك ما قاله ذو الرمّة :

وهَاجِرَةٍ حَرُّهَا واقِـــد نَصَبْتُ لِحَاجِبِهَا حَاجِبِي .
تَلُوذُ من الشمس أطْلاَؤُهَـا لِيَاذَ الغَرِيم مــن الطّالِب .
وتَسْجُدُ للشمس حربَاؤُهَـا كما يَسْجُدُ القَسُّ لِلرَّاهِب .

* * *

« ب » القســـم الثـــانى

صنوف مختلفة من المصادر الأدبية

١ - كتاب الأمالى
لأبى على القالى

وهناك نوع من التأليف في التراث العربي كان يقوم على الإملاء . أي أن العلماء ، ولنقل الأساتذة ، كانوا يجلسون إلى تلاميذهم ويتحدثون إليهم بما تجود به قريحتهم ، وكانوا يتميزون بكثرة الحفظ وقوة الذاكرة ، في الشعر والنثر والحديث والتفسير ، واللغة والنحو ، فيكتب عنهم التلاميذ . وفي النهاية تضم هذه المحاضرات بعضها إلى بعض لتؤلف كتاباً في الأدب أو النحو أو الشعر أو غير ذلك . ولهذا فقد سمي هذا النوع من التأليف بالأمالي ، وقد يسمى بالمجالس ، مثل مجالس ثعلب (ت ٢٩١ هـ) .

أما كتب الأمالي فمنها أمالي اليزيدي (ت ٣١٠ هـ) ، وأمالي ابن دريد (ت ٣٢١ هـ) وأمالي أبي بكر الأنباري (ت ٣٢٨ هـ) ، وأمالي المرتضى (ت ٤٤٦ هـ) ، وأمالي ابن الشجري (ت ٥٤٢ هـ) . ومن أكثر كتب الأمالي شهرة كتاب أمالي القالي ، وهو أحد الكتب الأربعة التي نوه بها ابن خلدون وذكر أنه لا غنى عنها لدارس — كما سبق أن أشرنا إلى ذلك في تعريفنا بكتاب « الكامل » وكتاب « البيان والتبيين » .

(أ) : ولد أبو علي في عام ٢٨٨ هـ ، وهو أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي نسبة إلى قالي قلا ، وهي قرية من أعمال أرمينية . ويذكر ياقوت في معجمه خبرا على لسان أبي علي يذكر فيه سبب تسميته باسم القالي ، فيقول : « لما انحدرنا إلى بغداد كنا في رفقة كان فيها أهل قالي قلا ، وهي قرية من قرى

مناز جيرد ، وكانوا يكرمون لمكانهم من الثغر . فلما دخلنا بغداد نسبتُ إليهم لكونهم معي ، وثبت ذلك عليّ . »[1]

ودخل القالي بغداد وعمره خمسة عشر عاماً ، فدرس فيها على أبي القاسم البغوي ، وأبي بكر السجستاني ، وابن مجاهد المقرئ ، وابن درستويه ، والزجاج ، والأخفش ، وابن دريد ، وابن الأنباري ، وابن قتيبة ، وغيرهم . وكان أكثر ميلا إلى علوم اللغة والأدب ، وقد نبغ فيها إلى درجة أن عده المتأخرون أحد الأئمة الكبار الذين أتقنوا علمهم وضبطوه . وقد أقام القالي في بغداد خمسا وعشرين عاماً ، ذاع فيها صيته في العراق وخارج العراق ، حتى وصل إلى الأندلس . فلما سمع به الخليفة عبد الرحمن الناصر ، باعث النهضة الأدبية والعلمية في الأندلس ، استدعاه إليه لكي يستفيد منه علماء الأندلس ، ثم عهد إليه تثقيف ولي عهده الحكم بن عبد الرحمن .

وهناك في قرطبة أقبل عليه علماء الأندلس والراغبون في العلم للاستفادة من محاضراته في الأدب واللغة ، التي كان يمليها في أيام الخميس بالمسجد الجامع في الزهراء .

وقد أجمع المؤرخون على أنه كان أحفظ أهل زمانه للغة ، وأكثرهم رواية للشعر ، وأكثرهم معرفة بمذهب البصريين في النحو . ومما يدل على ذلك أن الزبيدي النحوي ، صاحب كتاب مختصر العين وأخبار النحويين ، أخذ عنه وأفاد منه وقت أن كان إماماً في الأدب والنحو .

وقد عدّد ياقوت في معجمه مؤلفاته التي تفرغ لها بقية عمره في الأندلس وأملاها ، ومنها — خلاف كتاب الأمالي — « كتاب الممدود والمقصور » و « كتاب الإبل » و « كتاب فَعَلْتُ وأفْعَلْتُ » ، و « تفسير السبع الطوال » ، و « كتاب البارع » . وقد توفي القالي بقرطبة في عام ٣٥٦ هـ .

---

(١) ياقوت . معجم الأدباء ٢٥٢/١ .

(ب) : وقد أشار القالي في مقدمة كتابه إلى الظرف الذي أملى فيه كتاب الأمالي فقال : « فإني لما رأيت العلم أنفس بضاعة ، أيقنت أن طلبه أفضل تجارة ، فاغتربت للرواية ، ولزمت العلماء للدراية . ثم أعملت نفسي في جمعه ، وشغلت ذهني بحفظه ؛ حتى حويت خطيره ، وأحرزت رفيعه ، ورويت جليله ، وعرفت دقيقه ، وعقلت شارده ؛ ورويت نادره ، وعلمت غامضه ، ووعيت واضحه . ثم صنته بالكتمان عمن لا يعرف مقداره ، ونزهته عن الإذاعة عند من يجهل مكانه ، وجعلت غرضي أن أودعه من يستحقه ، وأبديه لمن يعلم فضله وأجلبه إلى من يعرف محله ، وأنشره عند من يشرّفه ، وأقصد به من يعظمه ؛ إذ بائع الجوهر — وهو حجر — يصونه بأجود صُوان ، ويودعه أفضل مكان ، ويقصد به من يجزل ثمنه . ويحمله إلى من يعرف قدره ؛ على أنه لا يستحق بسببه أن يوصف بالفضل بائعه ولا مشتريه ، ولا يستوجب أن يجهّل من أجل المبالغة في ثمنه مقتنيه ؛ والعلم يذكر بالرجاحة طالبه ، وينعت بالنباهة صاحبه ، ويستحق الحمد عند كل العقلاء حاويه ، ويستوجب الثناء من جميع الفضلاء واعيه ؛ .... فغبرت برهة ألتمس لنشره موضعاً ، ومكثت دهراً أطلب لإذاعته مكاناً ، وبقيت مدة أبتغي له مشرِّفاً ، وأقمت زمناً أرتاد له مشتريا ؛ حتى تواترت الأنباء المتفقة ، وتتابعت الصفات الملتئمة ، التي لا يخالجها الشكوك ، ولا تمازجها الظنون ، بأن مشرِّفَه في عصره ، أفضل من ملك الورى ، وأكرم من جاد باللُّهَى ... سِمام العِدَى ، فياض الندى ... بذّال الأموال ، محقق الآمال ... أمير المؤمنين ، وحافظ المسلمين ، وقامع المشركين ، ودامغ المارقين ، وابن عم خاتم النبيين ، محمد صلى الله عليه وسلم ، عبد الرحمن بن محمد ، محيي المكارم ومبتني المفاخر .... » . (١)

ويفهم من هذا الكلام أن أبا علي القالي ظل ، طوال إقامته الطويلة في

---

(١) أبو علي القالي : الأمالي : المقدمة ص ١ – ٢ (ط . المكتبة التجارية بالقاهرة – ١٩٥٣).

بغداد ، يرتاد مواطن العلم ، وربما كانت له فيها ندوات اشتهر فيها بغزارة علمه ، وثقته فيما يروي ، ولكنه لم يشرع في الإملاء بقصد تأليف كتاب ، إلا في الأندلس . كما يفهم من قوله كذلك أنه أبى عمداً أن يمليه في بغداد . وهو يعلل هذا بأنه لم يجد البيئة أو الشخص الذي يستحق تلك الجوهرة النفيسة ، على حد تشبيهه : فيهديه كتابه . والواقع أن هذا التعليل فيه شيء من المبالغة ؛ إن لم يكن مجرد وسيلة لمدح الخليفة عبد الرحمن بن محمد والتقرب إليه ؛ ذلك أن بيئة بغداد الثقافية كانت آنذاك تعج بالعلماء وطالبي العلم في إخلاص ورغبة صادقة ، وهي البيئة التي استقبلت من قبل كتاب البيان والتبيين ، وكتاب الكامل ، وكتاب عيون الأخبار وغيرها من الكتب ، وكانت على وشك أن تستقبل كتاب الأغاني . ولكن أبا علي القالي كان ، في الحقيقة ، ينتظر أكبر عطاء يمكن أن يقدم إليه على كتابه هذا وسائر كتبه ؛ حتى نمي إلى سمعه وسمع علماء بغداد كافة ، ما كان عليه عبد الرحمن بن محمد من اهتمام كبير فاقتناء أمهات الكتب ، واجتذاب علماء المشرق إلى بلاطه . وهذا ما عناه بقوله : « حتى تواترت الأنباء المتفقة . وتتابعت الصفات الملتئمة ... » الخ .

وقد كان في وسع القالي أن يملي كتابه في بغداد ويرسله إلى الأندلس فيجزى عليه ، ولكنه آثر أن يرحل بنفسه إلى هناك ، وأن يتفرغ للإملاء فيكون جزاؤه بذلك أضعافاً .

وعلى كل فإن هذا القول الذي صدر به القالي مقدمته ، قد مهد به لمدح الخليفة عبد الرحمن بن محمد ، بحيث خلت المقدمة من الحديث عن منهجه ومحتوى كتابه ، إلا من عبارات موجزة سنشير إليها وشيكا .

(ج) : ويحتوي كتاب الأمالي ، شأنه شأن الكتب التي ألفت من قبل ، على روايات أدبية متنوعة ، فيها الشعر والأخبار والخطب والأحاديث النبوية والآيات القرآنية . وهذا ما يشير إليه القالي في الأسطر الأخيرة من مقدمته حيث يقول : « وأودعته فنوناً من الأخبار — ، وضروباً من الأشعار ، وأنواعاً من

الأمثال ، وغرائب من اللغات ، على أني لم أذكر فيه باباً من اللغة إلا أشبعته ، ولا ضرباً من الشعر إلا اخترته ، ولا فناً من الخبر إلا انتخلته ، ولا نوعاً من المعاني والمثل إلا استجدتُه . ثم لم أخله من غريب القرآن وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ على أنني أوردت فيه من الإبدال ما لم يورده أحد ، وفسرت فيه من الإتباع ما لم يفسره بشر » .

وعلى الرغم من احتواء الكتاب على هذه المادة المتنوعة ، فهو يعد أساساً من كتب اللغة . ذلك أن القالي لا يأتي بالنص المختار من شعر أو خطبة أو مثل إلا بقصد شرح ما بهذا النص من ألفاظ غريبة ، والإشارة إلى اشتقاقاتها . وهو في أثناء ذلك يستشهد بنماذج من الشعر خاصة ، لتأييد رأيه . ولهذا فإن هذا الكتاب لا يغلب عليه الاستطراد الكثير الذي عرفت به الكتب السابقة . ذلك أن كل محاضرة أو أملية تتحدد بكونها محاضرة أو أملية في اللغة .

ويمكننا أن نستشهد بمثال من أملياته يوضح هذا . فهناك أملية تحت عنوان : « مطلب الكلام على خطبة عبد الملك لما دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير » . (1) ويقول القالي بعد ذكر الاسناد كما هي عادته : « لما قتل عبد الملك مصعب بن الزبير ، دخل الكوفة ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال ... » . ثم يأتي بعد ذلك بنص الخطبة نثراً وما ورد فيها من شعر . وبعد ذلك يشرع مباشرة في الشروح اللغوية ، مستشهداً بأبيات من الشعر . وتنتهي الأملية بانتهاء شرح ألفاظها الغريبة . ولو أن القالي كان يميل إلى الاستطراد ، لتحدث في إسهاب عن خبر مقتل مصعب بن الزبير على يد عبد الملك . ولكنه لم يفعل هذا ، لأنه كان يستغرق مباشرة في الشروح اللغوية .

حقاً إن الخبر قد يطول معه ويستغرق بضع صفحات ، كما هو الحال في

---

(1) الأمالي ١/١١ - ١٢

خبر ليلى الأخيلية مع الحجاج [1] ، ولكن هذا الخبر لا يخرج عن كونه نص حديث ليلى مع الحجاج ، وما ورد فيه من شعر عشيقها توبة الخفاجي فيها . ولكنه لا يستطرد في ذكر ما روي من قصص حول ذلك العشق الشهير على نحو ما فعل كتاب الأغاني على سبيل المثال .

ولهذا فإن القالي كان يختار من النصوص ما تتطلب ألفاظها شروحاً لغوية واسعة ، ومثال ذلك حديث ليلى الأخيلية ، الذي يتسم بالبلاغة والفصاحة . مع الحجاج . ومثال ذلك كذلك : « مطلب تفسير الغريب من حديث السحابة ». وهو يروي حديث الرسول (ص) بعد ذكر الإسناد على النحو التالي : « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم جالس مع أصحابه إذ نشأت سحابة ، فقالوا : يا رسول الله . هذه سحابة ، فقال : كيف ترون قواعدها ؟ قالوا : ما أحسنها وأشد تمكنها ! قال : وكيف ترون رحاها ؟ قالوا : ما أحسنها وأشد استدارتها . قال : وكيف ترون بواسقها ؟ قالوا : ما أحسنها وأشد استقامتها ! قال : وكيف ترون برقها — أوميضا أم خَفْياً أم يشق شقا ؟ قالوا : بل يَشُقُّ شقا ، قال : فكيف ترون جَوْنَها ؟ قالوا : ما أحسنه وأشد سواده ! فقال عليه السلام : الحيا . فقالوا : يا رسول الله ، ما رأينا الذي هو منك أفصح ، قال : وما يمنعني من ذلك ؟ فإنما أنزل القرآن بلساني ، لسان عربي مبين » [2] . فالحديث على هذا النحو مليء بالألفاظ والمعاني الغريبة التي تتطلب شرحاً مستفيضاً ، وهذا ما فعله أبو علي القالي .

(د) : وهنا تتمثل حقاً أهمية الكتاب ؛ فهو يعد مصدراً في اللغة لا غنى عنه ؛ ذلك أن صاحبه متفقه في اللغة إلى أبعد حد ، وقدير في شرح العويص من الألفاظ . وهو فضلا عن ذلك ذواقة للشعر ؛ فهو يأتي بالنصوص الطريفة والأشعار الجميلة . ولا بد أن يكون أصحاب المعاجم التي ألفت فيما بعد ، قد أفادوا منه كثيراً ، كما أفادوا من غيره .

---

(١) نفسه ١/٨٥ — ٨٩ .

(٢) نفسه ١/٨ .

وإذا كان كتاب الأمالي يخلو من منهج محدد المعالم في التأليف ، وكان ينبغي لصاحبه أن يستفيد من الخطوة التي خطاها العلماء من قبله نحو التأليف المنهجي . فإن عذره في هذا أنه أملاه في شكل محاضرات في اللغة .

(ﻫ) : وقد طبع الكتاب أول مرة بمصر بمطبعة بولاق في عام ١٣٢٤ ﻫ . ثم طبع في دار الكتب المصرية عام ١٩٢٦ في أربعة أجزاء . والجزء الثالث هو ذيل الأمالي والنوادر ، والجزء الرابع هو كتاب النوادر . ثم طبعته المكتبة التجارية بمصر في عام ١٣٧٣ ﻫ .

وقد قام أبو عبيد البكري الأندلسي بشرح الكتاب وتفسير نوادره في كتابين . أحدهما : « اللآلي في شرح أمالي القالي » ، وثانيهما : « التنبيه على أبي علي في أماليه »

* * *

نموذج من الكتاب :

(مطلب الكلام على خطبة عبد الملك لما دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير)

وحدثنا أبو بكر قال : أخبرنا السَّكَن بن سعيد عن محمد بن عَبَّاد عن ابن الكلبي عن أبيه قال : لما قَتَلَ عبدُ الملك مُصْعَبَ بن الزبير دخل الكوفة . فَصَعِدَ المنبرَ فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي محمد صلى الله عليه وسلم . ثم قالَ : أيُّها الناسُ . إن الحَرْبَ صَعْبَةٌ مُرَّة ، وإن السِّلْمَ أمْنٌ ومَسَرَّة ؛ وقد زَبَنَتْنا الحربُ وزَبَنَّاها ، فَعَرَفْناها وأَلِفْناها ؛ فنحن بَنُوها وهي أمُّنا . أيها الناس . فاستقيموا على سُبُل الهدى ، ودَعُوا الأهْواء المُرْدِيَةَ ؛ وتجنّبوا فِراقَ جماعات المسلمين . ولا تُكَلِّفُونا أعمالَ المهاجرين الأوَّلين . وأنتم لا تعملون أعمالَهم ؛ ولا أظنُّكم تزدادون بعد الموعظة إلاّ شَراً . ولن نزدادَ بعد الإعذار إليكم والحجة عليكم إلاّ عقوبة ؛ فمن شاء منكم أن يعود بعدُ لمثلها فَلْيَعُدْ . فإنما مَثَلِي ومَثَلكم كما قال قيس بن رِفَاعة :

مَنْ يَصْلَ ناري بلا ذَنْبٍ ولا تِرَةٍ ... يَصْلَ بنارِ كريمٍ غير غَدّار
أنا النذير لكم مني مجاهرةً ... كيْ لا ألامَ على نَهْيٍ وإنذار
فإن عصيتم مقالي اليوم فاعترفوا ... أن سوف تَلْقَوْن خِزْيا ظاهر العار
لَتَرْجِعُنَّ أحاديثا مُلَعَّنَةً ... لَهْوَ المُقيم ولهو المُدْلِجِ الساري

من كان في نفســـه حَوْجاءُ يطلبهـا. عندي فإنِّي له رَهْنٌ بإصْحَار (١)
أُقيم عَوْجتَه إن كان ذا عِــوَجٍ كما يُقَوِّمُ قِدْحَ النَّبْعَةِ البـارِي
وصاحبُ الوِتْرِ ليس الدَّهرَ مُدْرِكَهُ عندي وإنِّي لَدَرَّاكٌ بأوتـــار

قال أبو علي : زَبَنَتْنا الحربُ وزَبَنّاها ، أي دَفَعَتْنا ودفعناها ، والزَّبْنُ : الدفع . ومنه اشتقاق الزَّبانِيَة ، لأنهم يَدْفَعون أهلَ النار إلى النار ، ومنه قيل : حَرْبٌ زَبُون ، قال الشاعر :

عَدَتْنِي عن زيارتها العَــوادي وحالتْ دُونَها حَرْبٌ زَبُونُ

عَدَتْني : صَرَفَتْني . والعوادي : الصوارف ، والزَّبُون من النُّوق : التي تَرْمَحُ عند الحَلْب ، والخِزْيُ : الهَوان ، يقال : خَزِيَ يَخْزَى خِزْياً ، والخَزَايةُ : الاستحياء ، يقال : خَزِيَ يَخْزَى خَزَايةً ، والمُدْلِج : الذي يسيرُ من أول الليل ، يقال : أدْلَجْتُ ، أي سِرْتُ من أول الليل ، فأنا مُدْلِج ، وادَّلَجْتُ ، أي سرت في آخره . فأنا مُدَّلِجٌ . والدَّلْجَة والدَّلَج بفتح الدال : سَيْرُ آخر الليل ، والإدلاج : من أول الليل . ويقال : الدلجَ والدَّلْجَة : سَيْرُ الليل كلِّه ، قال الراجز :

كأنَّها وقد بَرَاها الإخْمَـاسْ ودلَجُ الليل وهَادٍ قَيَّاسْ .
شَرائِجُ النَّبْعِ بَرَاها القَوَّاسْ

والدُّلْجَة بضم الدال : من آخره ، ومن الناس من يُجيز الدُّلْجَة والدَّلْجَة في كل واحد منهما ، كما قالوا : بُرْهة من الدهر وبَرْهة ، قال زيد الخيل :

يا بني الصَّيْداءِ رُدُّوا فَرَسي إنَّما يُفْعَل هَــذا بالذليــلْ
عَوِّدُوه مِثْــلَ ما عَوَّدْتُهُ دَلَجَ الليــل وإيطاءَ القتيلْ

---

(١) قوله : بإصحار ، أي بروز إلى الصحراء ، فلا أستتر عنه ولا أمتنع عنه ولا أمتنع في الأماكن الحصينة ، يقال : أصحر القوم : برزوا إلى الصحراء ، مثل أسهلوا وأوعروا هـ من هامش الأصل

لا تُدْلِجوه فإنّي لم أكُـــنْ — عَلِمَ اللهُ — لمُهْري بالمُدْلِجِ

ويروى : دُلَج : جمع دُلْجة ، والساري : الذي يَسيِر بالليل ، يقال : سَرَيْت فأنا سارٍ ، أي سِرْت ليلا ، وأسْرَيت أيضاً ، ويروى بيت النابغة على وجهين :

سَرَتْ عليه من الجَوْزاء ساريـــةٌ تُزْجي الشَمالُ عليه جامِدَ البَرَد

وأسْرَتْ .

والسُّرَى : سَيْرُ الليل . والحَوْجاء : الحاجة ، والعوَجُ : في كل ما كان مُنْتَصبا مثل الإنسان والعصا وما أشبههما . والعِوَجُ : في الدين والأمر وما أشبههما . والوِتْر : الذَّحْل بكسر الواو لا غير ، والوَتْر بفتح الواو وكسرها : الفَرْد ، ويقرأ : والشَفْع والوَتْر والوِتْر ، الفتحُ لغة أهل الحجاز ، والكسرُ لغة تميم وأسد وقيس ؛ ويقولون في الوَتْرْ الذي هو الفَرْد : أوْتَرْت فأنا أوتِر إيتارا ؛ وفي الذَّحْل : وَتَرْتُه فأنا أتِره وَتْراً وَتِرَةً .

* * *

٢ - طبقات الشعراء
لابن سلام الجمحى

وهذا أول كتاب في النقد وصل إلينا كاملا ، وقد حاول فيه صاحبه أن يصنف الشعراء ويضعهم في مراتب أو طبقات . إنه نمط جديد من التأليف ؛ فقد رأينا أن الكتب التي ألفت في عصره أو كانت سابقة عليه ، كان مؤلفوها يسعون إلى جمع الروايات المختلفة من الشعر والقصص والأخبار والأنساب والحكم والأمثال ، وإن اهتمت بعض هذه الكتب بموضوع بعينه ، مثل كتاب الأغاني ، وكتاب الكامل ، وكتاب البيان والتبيين . أما ابن سلام فكان يهدف إلى تقدير الشعراء وفقاً لمقاييس معينة تفتق عنها ذهنه وعلمه وذوقه الشخصي . ومن ثمّ سمى كتابه طبقات الشعراء .

(أ) وصاحب الكتاب هو أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبيد الله بن سالم الجُمَحي . ولد بالبصرة في عام ١٣٩ هـ ، وعاش في بغداد حتى توفي بها في عام ٢٣٢ هـ . نشأ في بيت يهتم بالأدب وروايته ؛ فأبوه سلام بن عبيد الله الجمحي كان راوية ، وقد روى عنه ابن سلام في مواضع كثيرة من كتابه . كما درس على كثير من علماء عصره ، منهم أبان بن عثمان ، وخلف الأحمر ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، وأبو زيد الأنصاري ، والمفضل الضبي ، ويونس بن حبيب . وغيرهم . كما روى عنه كثير من علماء عصره ، منهم أحمد بن حنبل ، وأحمد بن يحيى ثعلب ، والمازني ، والرياشي ، وأبو خليفة الجمحي ابن اخت ابن سلام ، وهو الذي روى عنه كتاب طبقات الشعراء بإجازته . وقد ذكر الأغاني أبا خليفة الجمحي في أكثر من موضع . ففي ترجمته لسويد بن كراع [1] قال : « ذكر محمد بن سلام في كتابه الطبقات فيما أخبرنا به

(١) الأغاني ٣٤٠/١٢ .

أبو خليفة » . وفي موضع آخر [1] يقول : « أخبرني الفضل بن الحباب أبو خليفة الجمحي في كتابه إلي بإجازته لي ، يذكر عن محمد بن سلام ... » . وفي هذا يشير أبو الفرج إلى أنه كانت لديه نسخة من كتاب طبقات الشعراء ، كتبها إليه أبو خليفة وعليها إجازة بروايتها .

وكذلك روى المرزباني في كتابه « الموشح » عن ابن سلام . ويقول محقق كتاب طبقات الشعراء : « وأسانيد المرزباني إلى ابن سلام أكثرها عن إبراهيم بن شهاب . وبمراجعتي ما جاء في الموشح تبين لي أن كل ما جاء فيه عن طريق إبراهيم بن شهاب موجود بنصه في كتاب الطبقات » . [2]

ويقول ابن سلام في مقدمة كتاب « طبقات الشعراء » : « ذكرنا العرب وأشعارها والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وأيامها ، إذ كان لا يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب ، وكذلك فرسانها وساداتها وأيامها ، فاقتصرنا من ذلك على ما لا يجهله عالم ، ولا يستغني عن علمه ناظر في أمر العرب . فبدأنا بالشعر » . [3]

ومعنى هذا أن ابن سلام كان يبغي التأليف في طبقات شعراء العرب وفرسانهم وأشرافهم وأيامهم . فهل فعل ذلك ؟ لقد ذكر ابن النديم [4] كتابا له تحت عنوان : « الفاصل في ملح الأخبار والأشعار » ، كما ذكر له كتابا آخر تحت عنوان : « كتاب بيوتات العرب » ، فهل كان هذان الكتابان يتضمنان المباحث التي كان ابن سلام يود التأليف فيها . أعني الحديث عن فرسان العرب

---

(١) نفسه ٢/١٥٨ .

(٢) ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء — تحقيق محمود محمد شاكر ، ط . القاهرة — ج ١ ص ٤٥ . وقد رأى المحقق أن يكون عنوان الكتاب — « طبقات فحول الشعراء » بدلا من « طبقات الشعراء » معتمداً في ذلك على بعض الحجج . (راجع مقدمته للكتاب من ص ٢١ إلى ص ٢٦) .

(٣) ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء ، مقدمة ابن سلام ص ٣ .

(٤) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٧١ .

وأشرافهم وأيامهم ؟ الواقع أنه لم يصل إلينا من ابن سلام سوى كتاب طبقات الشعراء . ويبدو أن كتاب طبقات الشعراء الجاهليين ، وكتاب طبقات الشعراء الإسلاميين ، اللذين ذكرهما ابن النديم ، كانا جزئين منفصلين لكتاب طبقات الشعراء ، ثم جمع بينهما ابن سلام أو رواته في كتاب واحد فيما بعد، هو الكتاب الذي بين أيدينا اليوم.وربما أيد هذا الفرض أنابن النديم لم يذكر كتاب « طبقات الشعراء » ضمن الكتب التي خلفها ابن سلام .

(ب) : وكان الشعر قد كثرت روايته ، ولعب بعض الرواة دوراً كبيراً في نحله ، كما انتشرت الآراء التي تعتمد على الذوق الشخصي في الحكم على الشعراء . ومعنى هذا أن الجو الثقافي كان قد بدأ يمهد لظهور حركة نقدية تساير حركة النشاط الأدبي، وتحاول أن تضع المقاييس النظرية للحكم على الشعراء . وربما كان أول كتاب ظهر في هذا المجال هو كتاب « طبقات الشعراء » .

وينقسم الكتاب إلى قسمين : القسم الأول منهما هو المقدمة . وعلى الرغم من أن المقدمة لا تشغل حيزاً كبيراً في الكتاب ، فإننا نعدها جزءاً أساسياً فيه ، لأنها تحتوي على قضايا نقدية مهمة ، تكشف عن مفهوم الشعر في ذلك العصر ، كما تناقش قضية أدبية شغلت الأدباء زمناً ، وهي قضية الانتحال في الشعر . وقد لخص ابن سلام البواعث التي أدت إلى انتحال الشعر ، كما وضع القاعدة التي يصدر عنها في الحكم على ما إذا كان شعر الشاعر منتحلاً أم أصيلا .

أما القسم الثاني من الكتاب ، وهو يمثل في الواقع صلب الكتاب نفسه ، فيحتوي على تصنيف فحول الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين ، وفقاً لترتيب معين ، عن طريق تقسيمهم إلى طبقات .

ونحاول الآن أن نعرض محتوى كل قسم حتى تتضح لنا في النهاية أهمية هذا الكتاب في تاريخ الشعر العربي ونقده .

ويمكننا أن نلخص القضايا النقدية التي ناقشها ابن سلام في مقدمتهفيما يلي :

أولا : ضرورة التحقق من صحة نسبة الشعر إلى صاحبه قبل إبداء الرأي فيه ؛ ذلك أن الانتحال كان قد كثر في الشعر العربي لسببين يلخصهما ابن سلام فيما يلي : (١) أن انشغال العرب بالفتوحات في العصر الإسلامي ، صرفهم عن رواية الشعر إلى حين . فلما دالت لهم الأمصار ، واستقروا فيها ، عادوا إلى رواية الشعر . ولكن لما لم يكن للعرب ديوان سجلت فيه أشعارهم ، فقد راح بعض الرواة يتزيد في قول الشعر ونسبته إلى غير صاحبه . (٢) « ولما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم . وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ، فأرادوا أن يلحقوا بمن لهم الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسنة شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار التي قيلت » . ومع ذلك ، فإنه « ليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ، ولا ما وضع المولدون » . (١)

ثانياً : إن الذوق الشخصي أساس الحكم على الشعر . ولكن ليس كل من قال رأياً في الشعر اعتد به ، بل لا بد أن يتوافر في الناقد شرطان : الشرط الأول أن يكون دارساً واسع الدراسة . فإذا اتفق بعض الدارسين في ثقافتهم وسعة اطلاعهم ، فلا يعني هذا بالضرورة اتفاقهم في آرائهم ، ولكنه لا يعتد برأي فرد واحد منهم إذا عارض ما اتفق عليه العلماء . وفي ذلك يقول ابن سلام : « وقد اختلفت العلماء بعد في بعض الشعر كما اختلفت في سائر الأشياء . فأما ما اتفقوا عليه ، فليس لأحد أن يخرج منه . » (٢)

والشرط الثاني هو الدربة أو المران على نقد الشعر . فإذا كانت المدارسة تُعدى على العلم بالشعر كما يقول ، فإن الدربة هي التي تربي الذوق وتعين على تحديد موضع الاستحسان في الشعر . وفي هذا يقول ابن سلام مستشهداً

---

(١) ابن سلام : مقدمته ص ٤٦ .

(٢) نفسه : ص ٤ .

كعادته بأمثلة حسية لتوضيح رأيه : « وكذلك البصر بالرقيق ، فتوصف الجارية فيقال : ناصعة اللون ، جيدة الشَّطْب ، نقية الثغر ، حسنة العين والأنف ، جيدة النهود ، ظريفة اللسان ، واردة الشعر ، فتكون في هذه الصفة بمئة دينار وبمئتي دينار ، وتكون أخرى بألف دينار وأكثر ، ولا يجد واصفها مزيداً على هذه الصفة ... ويقال للرجل والمرأة في القراءة والغناء إنه لندِيّ الحلق ، طلّ الصوت ، طويل النفس ، مصيب اللحن ، ويوصف الآخر بهذه الصفة ، وبينهما بون بعيد . يعرف ذلك العلماء عن المعاينة والاستماع له بلا صفة ينتهي إليها ، ولا علم يوقف عليه » . (1) .

ومعنى هذا أنه إذا كانت هناك معارف يكتسبها الدارس من خلال التحصيل فإن الحكم على الشيء الجميل على نحو دقيق يحتاج إلى جانب الحصيلة الثقافية العريضة إلى الإستعداد الشخصي للتذوق ، وهو ما ليس له علم يوقف عليه ، كما يقول ابن سلام ، ولكنه ينمو عن طريق الدربة . فإذا لم يتوافر هذا في النقاد، تشابهت أحكامهم، فأصبح الكلام الذي توصف به الأشياء الجميلة ، برغم تفاوتها ، صيغاً مرددة ومعادة .

(ج) : ثم شرع ابن سلام بعد ذلك في تصنيف شعرائه في مراتب . وهو يوضح منهجه في هذا التصنيف في قوله : « ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين ، الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام ، فنزلناهم منازلهم ، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة ، وما قال فيه العلماء . وقد اختلف الناس والرواة فيهم ، فنظر قوم من أهل العلم بالشعر ، والنفاذ في كلام العرب ، والعلم بالعربية ، إذا اختلفت الرواة ، فقالوا بآرائهم ، وقالت العشائر بأهوائها ، ولا يقنع الناس مع ذلك إلا الرواية عمن تقدم . فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعراً ، فألفنا من تشابه شعره

---

(1) نفسه : ص ٦ .

منهم إلى نظرائه ، فوجدناهم عشر طبقات ، أربعة رهط لكل طبقة ، متكافئين معتدلين » . (١)

وقد جعل ابن سلام شعراء الجاهلية في عشر طبقات ، وجعل في كل طبقة أربعة شعراء . ثم جعل شعراء الرثاء وهم أربعة كذلك ، في طبقة مستقلة ، كما خص شعراء القرى ، وهي المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين ، بالإضافة إلى شعراء يهود ، بقسم في كتابه .

وإذا كان ابن سلام قد التزم بالرقم أربعة في كل طبقة ، فإنه لم يلزم نفسه بهذا الرقم في تصنيفه لشعراء القرى . فشعراء المدينة ستة ، وشعراء مكة عشرة ، وشعراء الطائف خمسة ، وشعراء البحرين ثلاثة . أما اليمامة فلم يذكر لها شعراء ، لأنه – كما يقول في نهاية حديثه عن شعراء البحرين – لا يعرف لليمامة شاعراً مذكوراً . ولهذا كان أولى له ألا يذكر اليمامة أصلا ضمن أسماء القرى التي يود أن يتحدث عن شعرائها . وقد تحدث في ختام فصل شعراء القرى عن أشهر شعراء اليهود وعددهم ثمانية .

ثم شرع ابن سلام بعد ذلك في تصنيف شعراء الإسلام في عشر طبقات ، في كل طبقة أربعة شعراء ، على نحو ما فعل بالنسبة لشعراء الجاهلية .

أما الشعراء المخضرمون فهم موزعون بين الجاهلية والإسلام .

(د) : وقد فاضل ابن سلام بين الشعراء على أسس ثلاثة : الجودة ، والكم ، وتنوع الأغراض التي قال فيها الشاعر . فإذا اتفق شاعران في الإجادة ، ولكن ما روي عن أحدهما كان أقل مما روي عن الآخر ، وضع الثاني في مرتبة اسمى من مرتبة الشاعر الأول . فهو يقول ، على سبيل المثال ، من شعراء الطبقة السابعة : « أربعة رهط محكمون مقلون ، وفي أشعارهم قلة : فذاك

(١) ابن سلام : مقدمته ، ص ٢٣ – ٢٤ .

الذي أخرهم » .[1] ويقول كذلك في الطبقة الرابعة : « وهم أربعة رهط فحول الشعراء ، موضعهم مع الأوائل ، وإنما أخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة » .[2]

وإذا اشتهر شاعران بفن من الفنون ، كما اشتهر كثيِّر وجميل بالنسيب ، وكان أحدهما يفوق الآخر فيه ، كما فاق جميل كثيراً ، فإن كثيراً يوضع على الرغم من ذلك في مرتبة أعلى من مرتبة جميل ؛ وذلك لأن كثيرا قال في فن آخر غير الغزل ، وهو المدح . وفي ذلك يقول ابن سلام : « وكان لكثير في التشبيب نصيب وافر ، وجميل مقدم عليه ، وعلى أصحاب النسيب جميعاً ، في النسيب . وله في فنون الشعر ما ليس لجميل . وكان جميل صادق الصبابة ، وكان كثيّر يتقول ، ولم يكن عاشقاً ، وكان راوية جميل » .[3] ومع كل هذا فقد وضع ابن سلام كُثيرا في الطبقة الثانية ، وجميلا في الطبقة السادسة .

أما إذا تساوى شاعران في الكثرة وتنوع الأغراض ، كان معيار المفاضلة بينهما هو الجودة .

(هـ) : من هنا نرى أنه على الرغم من أن ابن سلام كان مصيباً في آرائه النقدية العامة التي أعرب عنها في مقدمة كتابه ، فإنه عندما مارس نقد الشعر عملياً ، خانته حاسته النقدية في بعض الأمور التي نلخصها فيما يلي : —

(١) ألزم ابن سلام نفسه بتصنيف الشعراء الجاهليين والإسلاميين في عشر طبقات ، في كل طبقة أربعة شعراء . وليس هناك ما يبرر التزامه بهذه الأرقام . كما أنه لم يقدم سبباً لذلك . بل إنه قد يعترف بأن شاعراً كان يستحق أن يوضع في مرتبة أعلى من المرتبة التي وضعه فيها ، ومنعه من ذلك تقيده

---

(١) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ١/١٥٥ .
(٢) نفسه ١/١٣٧ .
(٣) نفسه ٢/٥٤٥ .

باختيار أربعة من الشعراء في كل طبقة . يقول في الطبقة الثانية من شعراء الجاهليين : « وأوس نظير الأربعة المتقدمين ، إلا أنا اقتصرنا في الطبقات على أربعة رهط » . [1] وهو يعني بالأربعة المتقدمين شعراء الطبقة الأولى .

(٢) صنف ابن سلام الشعراء في طبقات ، وقد خضع في المفاضلة بينهم لمعايير فنية . ولكننا نفاجأ بأنه ، بعد أن فرغ من ترتيب شعراء الطبقات العشر الأولى ، يضع شعراء الرثاء في طبقة مستقلة ، ثم يتبعهم بشعراء القرى . ومعنى هذا أنه قد تأرجح بين المعيار الفني والمعيار الموضوعي والمعيار المكاني . وهذا من شأنه أن يدعونا إلى أن نتساءل : في أي مرتبة فنية من مراتبه يمكننا أن نضع شعراء الرثاء أو شعراء القرى ، بل شعراء اليهود الذين وضعهم في مجموعة مستقلة ؟

وقد سبق أن رأينا أبا زيد القرشي يصنف جمهرته في سبع مجموعات على أساس فني لم يلتفت فيه إلى موضوعات القصائد نفسها . غير أنه خالف عن منهجه هذا في المجموعة الخامسة التي تحتوي على سبع قصائد في الرثاء . ومن الواضح تماماً أنه قد سار على نهج ابن سلام في تصنيفه هذا .

(٣) اختار ابن سلام معيار الكثرة في الإنتاج أساساً للمفاضلة بين الشعراء إلى جانب الجودة . ولم يحتكم إلى معيار الجودة وحده . وقد دفعه هذا إلى أن يؤخر شعراء كان لهم نصيب كبير من الإجادة ، كما يعترف هو نفسه بهذا . ولكنه أخرهم لقلة ما روي عنهم . وكان ينبغي عليه ألا يخلط بين معيار الجودة ومعيار الكثرة . وأن يضع الشعراء في المرتبة التي هم جديرون بها ، بصرف النظر عن قلة شعرهم أو كثرته ، بخاصة وأنه قد أشار في مقدمته إلى أن شعر الشعراء لم يرد جميعه ، وأن الرواة قد لعبوا دوراً خطيراً في الإقلال من شعر شاعر والإكثار من شعر غيره .

---

(١) نفسه ١/٩٧ .

(٤) لم يذكر ابن سلام شيئاً عن المعيار الفنّي الذي ميز – عنده – طبقة على أخرى . وإنما تتسم أحكامه على بعض الشعراء بالعمومية التي سبق أن انتقدها في مقدمته . [1] فهو يقول على سبيل المثال : « وكان البعيث شاعراً فاخر الكلام ، حر اللفظ ، وقد غلبه جرير وأخمله » . [2] فنحن لا نفهم من هذا القول فيم غلب جرير البعيث ، وهو شاعر فاخر الكلام ، حر اللفظ – على حد تعبيره . أو يقول عن القطامي : « وكان القطامي شاعراً فحلا رقيق الحواشي حلو الشعر ، والأخطل أبعد منه ذكراً ، وأمتن شعراً . » [3] فإذا كان القطامي شاعراً فحلاً رقيق الحواشي حلو الشعر ، ففيم جبّه الأخطل بحيث إنه وضع في مرتبة أسمى من مرتبته ؟

(و) : ولكن ، على الرغم من هذه العيوب التي وقع فيها ابن سلام ، فإن كتابه لا يخلو من خطرات لامعة في النقد . ويكفي أنه خطا أول خطوة في النقد المنهجي عند العرب ، فمهد الطريق للنقاد من بعده .

• • •

---

(١) انظر مقدمة ابن سلام ط ص ٦ .
(٢) طبقات فحول الشعراء ٢/٥٣٥ .
(٣) نفسه .

نموذج من الكتاب :

الطَّبقةُ الثانية

البَعِيثُ ، واسمُه خِداش بن بِشْر (بن خالد بن بَيْبة بن قُرْط) ابن سُفْيان بن مُجاشع بن دارم . وسُمّي البعيثَ بقوله :

تَبَعّثَ مِنّي ما تَبَعّثَ ، بعدَ ما   أُمِرَّتْ حِبالٌ كُلُّ مِرّتِها شَزْرَا

وهو أوّلُ شِعْرٍ قاله .

والقُطامِي ، واسمه عَمْرو بن شُيَيْم بن عَمْرو ، أحَدُ بني بَكْر بن حُبَيّب بن عَمْرو بن غَنْم بن تَغْلِب .

وكُثَيِّر بن عَبْد الرّحْمن الخُزاعِيّ ، وهو ابن أبي جُمُعَة وكنيته أبو صَخْر . وهو عند أهْلِ الحِجاز أشعر مِنْ كلّ مَنْ قَدّمْنا عليه

وذُو الرُّمّة ، واسمُهُ غَيْلانُ ، (وهو الذي يقول :

(أنا أبُو الحارِثِ ، واسْمِي غَيْلانْ) .

ابنُ عُقْبَة (بن بُهَيْش بن مسعود بن حارثة بن عمرو بن ربيعة بن ساعدة بن كعب بن عوف بن ثعلبة بن ربيعة بن مِلْكان بن عديّ بن عبد

مناةَ بن أدٍّ ، وهم عَدِي التَّيمْ ، وتيمُ عَدِيٍّ . والتَّيْم من الربابِ) .

* * *

وكان البَعيثُ شاعراً فاخِرِ الكلامِ حُرَّ اللَّفْظ . وقد غَلَبَه . جريرٌ وأخْمَلَه . وكان قد قَاوَم جَرِيراً في قصائدَ . ثم ضَجَّ إلى الفرزْدقِ وأستَغَاثَه

* * *

وكان القُطَامِيُّ شاعِراً فَحْلاً . رقيقَ الحَوَاشِي . حُلْوَ الشِّعْر . والأخْطَلُ أبعدُ مِنْه ذِكْراً وأمْتَنُ شِعْراً .

وكان زُفَر بن الحارث أسَرَه في حَرْبٍ بَيْنَهم وبَيْن تَغْلِب : فمنَّ عليه وأعْطَاه مِئةً منَ الإبلِ وَرَدَّ عليه مالَه ، فقال القُطَامِيَ في كلمةٍ له :

ولا كَرَدِّكَ مَالِي بَعْدَما كَرَبَتْ تُبْدِي الشَّماتَةَ أعْدَائي وحُسَّادي

فإنْ قَدَرْتُ على يَوْمٍ جَزَيْتُ به . واللهُ يَجْعَلُ أقْوَاماً بِمِرْصَادِ

قال ابن سلام : فلما بلغَ زُفَرَ قولُه ، قَال : لاَ قَدَرْتَ عَلَى ذلك اليَوْم .

٢ - معجم الشعراء
للمرزبانى

(أ) : هو أبو عبدالله محمد بن عمران المرزباني . ولد في سنة ٢٩٧ هـ ه وقد اختلف في تاريخ وفاته ، فابن النديم في فهرسه وياقوت في معجمه يذكران أنه قد توفي عام ٣٧٨ هـ ، أما الخطيب البغدادي فيذكر أنه قد توفي في عام ٣٨٤ هـ . وربما كانت رواية ابن النديم هي الأرجح ، حيث إنه كان معاصراً للمرزباني وتوفي بعده .

والمرزباني خراساني الأصل بغدادي المولد . ويسمى المرزباني نسبة إلى أحد أجداده . وكلمة مرزبان تعني في اللغة الفارسية ، حافظ الحد .

(أ) ـــ ١ : وقد كان المرزباني عالماً واسع المعرفة ، كما كان يتحرى الدقة في رواياته . ويقول عنه ابن النديم : « آخر من رأينا من الإخباريين المصنفين ، راوية صادق اللهجة ، واسع المعرفة بالروايات ، كثير السماع . »[1]

وقد أخذ المرزباني العلم عن أئمة عصره ، ومنهم أبو القاسم البغوي ، وأبو بكر بن دريد، وأبو عبدالله بن نفطويه ، وأبو بكر الأنباري . وكل هؤلاء وغيرهم ورد ذكرهم في كتابيه « معجم الشعراء » و « الموشح » .

---

(١) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٩٨ .

وقد ذكر له ابن النديم قائمة كبيرة من المؤلفات ، ويهمنا أن نذكر منها ما ألفه حول الشعر والشعراء ، سوى كتابيه المعروفين لنا ، وهما « الموشح » و « معجم الشعراء » ، لندرك إلى أي حد كان هذا العالم مهتماً بالشعر والشعراء . سواء كان ذلك من الناحية التاريخية أو النقدية أو الأدبية .

١ — أخبار الشعراء المشهورين والمكثرين من المحدثين وأنسابهم وأزمانهم ، وأولهم بشار ، وآخرهم ابن المعتز .

٢ — أخبار أبي تمام .

٣ — الرياض في أخبار المتيمين من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين والمحدثين .

٤ — كتاب الشعر ، وهو كتاب جامع لفضائله ، وذكر محاسنه وأوزانه ، وعيوبه وأجناسه ، وضروبه ومختاره ، وأدب قائليه ومنشديه ، وبيان فحوله ومسروقه .

٥ — كتاب المراثي .

٦ — الموثق في أخبار الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين على طبقاتهم .

ومن المؤكد أن كتاب « معجم الشعراء » كان كتاباً مستقلاً عن هذه الكتب ؛ لأن ابن النديم يذكره مستقلاً ويخصه بالوصف .

(أ) — ٢ : ولا غرو بعد ذلك أن يكون المرزباني حجة وأستاذا لمن جاء بعده من العلماء ؛ فقد روى عنه القاضيان ، أبو محمد الصيمري ، وأبو القاسم التنوخي ، كما روى عنه محمد بن المظفر الدقاق ، وغيرهم . وكذلك أفاد من مصنفاته في الشعر ياقوت في معجمه ، وابن شاكر الكتبي في عيون التواريخ

وفوات الوفيات ، وابن خلكان في وفيات الأعيان ، وابن عساكر في تاريخ دمشق .

(ب) : وكان من الطبيعي أن يفكر المرزباني – بعد أن ألم بدراسة الشعر والشعراء منذ العصر الجاهلي حتى عصره ، وألف في ذلك الكتب التي سبق ذكرها – أن يفكر في وضع معجم يضم كل شعراء العرب حتى عصره . وربما أوحى إليه كتاب « المؤتلف والمختلف » للآمدي بفكرة تأليف الكتاب ، فقد كان الآمدي معاصراً له ، فأرخ للشعراء الذين تشابهت أسماؤهم وهم مختلفون ؛ فذكر على سبيل المثال عشرة شعراء سموا بامرىء القيس ، وسبعة عشر شاعراً سموا بالأعشى ، وهكذا .

وقد راعى في ترتيب الشعراء الترتيب الأبجدي – فربما عنت للمرزباني بعد ذلك فكرة تأليف معجم يضم جميع الشعراء مرتبين على حروف المعجم ، حتى يكون مرجعاً للباحثين في عصره وبعده ، بخاصة أن الباحثين كانوا قد أصبحوا يعولون على الكتب المؤلفة أكثر من تعويلهم على الرواية .

(ج) : ويقول ابن النديم في وصف الكتاب : « وكتاب المعجم له . ذكر فيه الشعراء على حروف المعجم ، بدأ بمن أول اسمه ألف إلى حرف الياء . وفيه خمسة آلاف اسم . وفيه من شعر كل واحد منهم أبيات فيه يسيرة من مسهور شعره . فيه ألف ورقة . »[1] .

ولكن كتاب المعجم الذي بين أيدينا يبدأ بحرف العين ، كما أننا لا نجد فيه حروف الغين واللام والنون والواو . وفضلاً عن ذلك فإن الكتاب يخلو من مقدمة . ولا يمكن أن تغيب عن هذا العالم فكرة التقديم لكتابه ، بخاصة وأن الكتاب من قبله دأبوا على تصدير كتبهم بمقدمات ، وأنه هو نفسه قد صدر كتابه « الموشح » بمقدمة مسهبة . وكل هذا يعني أن الكتاب ، بكل أسف ، قد وصل إلينا منقوصاً .

---

(١) الفهرست : ص ١٩٨ .

وطريقة المرزباني في ترجمته للشعراء ، أنه يتسلسل بالشعراء الذين تقع أسماؤهم تحت الحرف الأبجدي المعين ، ويسمون باسم واحد ، تسلسلا تاريخياً . فإذا كان يترجم لمن سموا باسم عمرو ، على سبيل المثال ، بدأ بهؤلاء الذين سموا بهذا الاسم وعاشوا في العصر الجاهلي ، ثم هؤلاء الذين سموا بهذا الاسم وعاشوا في العصر الإسلامي فالأموي فالعباسي . وقد يقف عند العصر الجاهلي أو الإسلامي إن لم يجد من الشعراء من سمي بهذا الاسم ممن عاشوا في زمن متأخر . فإذا بدأ في ترجمته للشاعر ، ذكر اسمه ونسبه كاملاً ثم كنيته ، ثم أتبع هذا بذكر أهم صفات هذا الشاعر ؛ فإن كان كريماً أو فارساً أورد له أو لغيره شعراً يؤكد هذه الصفة فيه . ثم يذكر بعد ذلك أهم حادثة أو موقف في حياة الشاعر ، ويشير إلى أهم ما قاله الشاعر أو قاله غيره في هذه المناسبة من الشعر .

ففي ترجمته لعمرو بن قميئة ، على سبيل المثال ، يقول : « وكان امرؤ القيس استصحبه لما شخص إلى قيصر يستمده على بني أسد ، فمات في سفره ذلك ، فسمته بكرٌ عمرا الضائع . وهو صاحب امرىء القيس الذي عنى بقوله :

بكى صاحبي لما رأى الدّربَ دونــه ... وأيقن أنّا لاحقــون بقيصـرا
فقلت له لا تَبْكِ عينُــك إنمــا ... نحاول ملكا أو نموت فتُعْذرا »[1]

ويجتهد المرزباني في تحديد عصر الشاعر ، إما عن طريق ذكر تاريخ ميلاده ووفاته ، كما فعل مع « ابن الرومي »[2] مثلا ، أو ذكر تاريخ الوفاة فحسب ، كما فعل مع الشاعر « علي بن إبراهيم الخزاعي »[3] ، و « أبي الحسن علي بن العباس النوبختي »[4] وغيرهما . فإن كان لا يعرف للشاعر

---

(١) المرزباني : معجم الشعراء – ط . الحلبي بالقاهرة ، ص ٣ ، ٤ .
(٢) نفسه ص ١٤٥ . (٣) نفسه ص ٢٨٣ .
(٤) نفسه : ص ١٥٤ .

تاريخاً يؤرخ به حياته ، ربطه بشخصية تاريخية بارزة عاشت في عصره ؛ أو ربطه بحادثة تاريخية مشهورة .

وفي النهاية يأتي المرزباني بنموذج من أجود ما قاله الشاعر . ولكنه لا يكثر من الشعر بطبيعة الحال ، إذ كان يعرف أن أمامه مئات من الشعراء الذين يترجم لهم . على أن أهم ما يميز طريقة انتقائه للشعر الذي يأتي به لشاعر ما ، حرصه على أن يكون الشعر مرتبطاً بموقف معين أو حادثة معينة . فهو يقول ، على سبيل المثال ، في ترجمته لشاعر اسمه « أبو حنش عُصْم بن النعمان » : « وقيل هو أحد بني ثعلبة بن بكر ، وهو فارس العصا . وهو قاتل شرحبيل الملك بن الحارث بن عمرو المقصور بن حُجر آكل المرار الكندي ، يوم الكُلاب . وكان بين شرحبيل وبين أخيه سلمة شيء ، فجعل سلمة في رأس أخيه مائة من الإبل ، فقتله أبو حنش وبعث برأسه ، فطرحه بين يدي أخيه، فلما نظر إليه سلمة غضب وثار الدم في وجهه وقال :

ألا أبلغ أبا حنش رسولاً ... فمالك لا تجيء إلى الثواب .
تعلّم أن خير الناس طُرّاً ... قتيل بين أحجار الكُلاب

فأجابه أبو حنش :

أحاذر أن أجيئك ثم تحبو ... حباء أبيك يوم صُنَيْبِعاتِ
وكانت غدرةً شنعاء سارت ... تقلّدها أبوك إلى الممات

يعني أن أباه الحارث كان له ابن مسترضع بين حيين من العرب ، تميم وبكر . فمات . وقالوا : لدغته حية ، فأخذ خمسين رجلاً من بني وائل فقتلهم . » [1]

ولا يغيب عن القارىء المتأمل في « معجم الشعراء » معرفة المؤلف الواسعة بالشعر العربي ، وتحريه في رواية الشعر من أجل التمييز بين الشعر الأصلي

---

(١) المرزباني : معجم الشعراء ، ص٢٢٠ .

والمنتحل ، وبقصد اكتشاف ما يسرقه الشعراء بعضهم من بعض .

فهو يعارض محمد بن داود فيما ادعاه من نسبة أبيات للشاعر عمرو بن الحارث بن عمرو الملك ، قالها في رثاء شرحبيل بن الحارث الذي قتلته تغلب يوم الكُلاب ، ويقول « وهي أبيات تروى لأخيه معدي كرب بن الحارث ، وهو الصحيح » . [1] وعلى الرغم من أنه كثيراً ما يأخذ برواية محمد بن داود ، فإن هذا لم يمنعه من معارضته إذا كان واثقاً من روايته هو نفسه .

فإذا كانت الأبيات التي يستشهد بها على شعر شاعر تروى لشاعر آخر ، ولم يكن له رأي خاص في ذلك ، اكتفى بنسبة الخبر إلى أصحابه . فقد قال بمناسبة ذكره لأبيات للشاعر عمرو بن حنيّ التغلبي : « وأبو عبيدة وغيره يروون هذه الأبيات لجابر بن حنيّ التغلبي . » [2] ولم يعلق على ذلك بشيء .

(د) من أجل هذا كله كان كتاب المرزباني مهماً في عصره ، كما يعد مصدراً لاغنى عنه للباحث المعاصر في تراث الشعر العربي . فمنه نستقي معلومات عن الشعراء ، بخاصة المغمورين منهم ، الذين يهتم بهم الكتاب . وفيه نعرف أهم الأحداث التاريخية التي عاصرها الشعراء ، أو كانت لهم فيها يد . وفضلا عن ذلك فإننا نستفيد من دقته وتحريه في نسبة الشعر إلى صاحبه .

ولكنه يؤخذ عليه أنه لا يذكر الشعراء المشهورين بألقابهم   طرفة والفرزدق ، بل يذكرهم بأسمائهم الحقيقية غير المشهورة ، مما يعل الكشف عن كثير من الشعراء عسيراً في كتابه . كما يؤخذ عليه أنه لا يراعي الدقة في الترتيب الأبجدي بعد الحرف الأول ؛ فهو يذكر اسم عمرو قبل اسم عدي ، ويلي ذلك عثمان ثم العباس .

أما ما اتهمه به بعض الباحثين[3] المحدثين من أنه لا يذكر تاريخ ميلاد الشاعر

---

(١) نفسه ص ١٣ .   (٢) نفسه .

(٣) الدكتور عمر الدقاق : مصادر التراث العربي ، ص ٢٤٥ .

ووفاته ، فهو مردود عليه فيما سبق أن ذكرنا . ذلك أننا رأينا أنه لا يهمل ذلك كلية ، فكثيراً ما أورد تاريخ وفاة الشاعر ، وقد يأتي بتاريخ ميلاده . ولا يلام المرزباني إذا كانت الشقة قد بعدت بينه وبين الشاعر بحيث لم يكن يعرف له ، على وجه التحديد ، تاريخ ميلاد أو وفاة .

(هـ) : وقد طبع كتاب « معجم الشعراء » مع كتاب « المؤتلف والمختلف » للآمدي في مجلد واحد بإشراف المستشرق كرنكو عام ١٩٢٠ م . ثم نشر مستقلاً في طبعة جيدة في مصر بتحقيق عبد الستار أحمد فراج ، نشرته مكتبة الحلبي في عام ١٩٦١ م .

* * *

نموذج من الكتاب :

حرف القاف

ذكر من اسمه قيس

• النابغة الجعدي اسمه (قيس) بن عبدالله بن عدس بن ربيعة بن جَعْدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة .

هكذا نسبه أبو عبيدة . وابن الكلبي ومحمد بن سلام . ولقيط وأكثر أهل العلم . وقال القَحذمي : اسمه حيّان بن قيس بن عبد الله بن وحْوح بن عدس بن ربيعة بن جعدة ، ويكنى أبا ليلى ، وكان شاعراً مفلِقاً طويل البقاء في الجاهلية والإسلام ، وكان أكبر من النابغة الذبياني ، وبقي بعده بقاءً طويلاً ، وهو أحد المعمرين؛ يقال: إنه عاش من العمر مائتي سنة ، وقيل : أقل من ذلك ، وكفّ بصره بعد أن أسلم وحسن إسلامه ، وبلغ إلى فتنة ابن الزبير ، ومات بأصفهان . وهو أحد نُعّات الخيل . وروى أنه لما أنشد النبيّ صلى الله عليه وسلم :

بلغْنا السماءَ مجدُنــا وجدودنا وإنا لنرجو فوق ذلك مَظهرَا

قال له : أين المظهر يا أبا ليلى ، فقال : الجنة . قال : أجل إن شاء الله تعالى . قال : ثم أنشدته :

ولا خـيـر في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوَه أن يُكدرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن لـه حليم إذا ما أورد الأمرَ أصدَرا

قال النبي صلى الله عليه وسلم : أجدت لا يفضُض الله فاك . قال : فيقال : إنه بلغ عشرين ومائة سنة لم تسقط له سن . وهو القائل :

الحمـد لله لا شريـك لـه من لم يَقلْها فنفسَه ظلمـا

وتروى لأمية بن أبي الصلت . والصحيح أنها للنابغة . وكان في صحابة علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهما ، وله مع معاوية أخبار . وهو القائل لعقال بن خويلد العقيلي يحذره أن يصيبه في ظلمه ما أصاب كليب وائل في تعدّيه :

كليبٌ لعمري كان أكثر ناصراً وأيسر جرماً منك ضُرِّج بالدمِ

• (قيس) بن الخطيم ، واسمه ثابت بن عدي بن عمرو بن سواد بن ظفر ، وهو كعب ، بن الخزرج بن عمرو ، وهو النبيت ، بن مالك بن الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد .

وقيس يكنى أبا يزيد ، وكان مقرون الحاجبين أدعج العينين أحمّ الشفتين برّاق الثنايا حسن الصورة .

شاعر مجيد فحل ، من الناس من يفضله على حسان شعرا . وقال حسان : إنا إذا نافرتْنا العربُ فأردنا أن نُخرج الحَبِرات من شعرنا أتينا بشعر قيس بن الخطيم . وقدم قيسٌ على النبي صلى الله عليه وسلم بمكة فعرض عليه الإسلام فقال : إني لأعلم أن الذي تأمرني به خير مما تأمرني به نفسي ، وفيها بقية من ذاك . فأذهب فأستمتع من النساء والخمر وتَقْدَم بلدنا فأتبعك . فقُتل قبل أن يتبعه صلى الله عليه وسلم . وهو القائل :

متى ماتَقُدْ بالباطل الحقَّ يأبَهُ وإن قُدت بالحق الرواسيَ تَنْقَدِ

إذا ما أتيت الأمر من غير بابــه ضَللت وإن تأته من الباب تهتد

وله :

وإني لدى الحرب العوان موكّــل بتقديم نفسٍ ما أُريد بقاءهـا

وله :

وكل شديدة نزلــتْ بقـــوم سيأتي بعـد شدّتها رخــاءُ

* (قيس) بن رفاعة الواقفي من بني واقف ابن امرىء القيس بن مالك بن الأوس .

أدرك الإسلام فأسلم وكان أعور . وهو القائل :

أنا النـذير لـكم مـني مجاهـرةً كيلا يلام عـلى نهي وإنــذارِ
وإن عصيتم مقالي اليوم فاعترفـوا أنْ سوف تلقون خِزْياً ظاهر العارِ
لترجعُـنّ أحاديثـاً وملعبـةً لَهْوَ المقيم ولهـو المدلج السـاري
من كان في نفسه عوجاءُ يطلبهـا عندي فإني لـه رَهْنٌ بإصحارِ
أقيم عَوْجته إن كـان ذا عوَجٍ كما يقوّم قِدْحَ النبعـة الباري
وصاحب الوتر ليس الدهرَ يدركـه عندي وإني لدرّاك بأوتــار
من يَصْلَ ناري بلا ذَنْب ولا تِـرةٍ يَصْلَ بنار كريمٍ غير غـدّار

وله :

وأنبئت أخوالي أرادوا نقيصــتي بشعواء فيها ثاملُ السمّ مُنقَعـا
سأركبها فيكم وأُدْعَى مُفرّقـا وإن شئتمُ من بعدُ كنت مجمّعـا

٤ ـ معجم الأدباء
لياقوت الحموى

٤ — معجم الأدباء

لياقوت الحموي

(ا) . وصاحب هذا المعجم الذي لا غنى عنه لباحث في التراث العربي . هو أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله ، الرومي الأصل . وقد ولد في سنة أربع أو خمس وسبعين وخمسمائة ببلاد الروم ؛ ثم أسر وهو صبي صغير ، وبيع في بغداد لتاجر يدعى عسكر بن أبي نصر إبراهيم الحموي ، ومن هنا كانت تسميته بالحموي

ولم يكن هذا التاجر يعلم وهو يدفع بالصبي إلى الكتاب لينتفع به في تجارته ، أنه يفتح أمامه طريق العلم على مصراعيه ، ليصبح فيما بعد أحد الأئمة الذين أسهموا بنصيب كبير في الحفاظ على ثروة التراث العربي . ولم يكتف ياقوت الصبي بتحصيل العلم في الكتّاب ؛ بل عكف على قراءة الكتب يستوعب ما فيها من لغة ونحو وأدب . وكان كلما أرسله سيده في سفر انتهز الفرصة لاقتناء الكتب والتعرف على كبار الرواة والعلماء .

وحدثت بعد ذلك جفوة بينه وبين سيده انتهت بعتقه . وأخذ ياقوت يشتغل بعد ذلك بنسخ الكتب . فكسب من ذلك رزقه ، وأشبع نهمه من زاد العلم . ثم اتصل حبل المودة بينه وبين سيده مرة أخرى ، وكلفه سيده

بالقيام بالتجارة بعد أن أعطاه مبلغاً من المال . ولما رجع ياقوت كان سيده قد توفي ، فقدم لزوجة سيده وأولاده جزءاً من المال ، واحتفظ بجزء منه لنفسه . وأخذ ياقوت يتنقل بعد ذلك من بلد إلى آخر حتى استقر به المقام في دمشق عام ٦١٣ هـ . وهناك في مجلس من المجالس الأدبية ، أعلن تعصبه على علي بن أبي طالب ، وكان من قبل قد أكثر من قراءة تاريخ الخوارج وأدبهم حتى تشبع بروحهم ، فاستثار غضب الناس عليه وثورتهم به ، حتى تهددوه بالقتل ، فترك دمشق هارباً إلى الموصل . ثم أخذ يتنقل من بلد إلى آخر حتى وصل إلى خوارزم ، حيث صادف نزوله فيها خروج التتار عام ٦١٦ هـ . فأسرع وترك خوارزم إلى الموصل مرة أخرى ، وأخذ يطوف بالبلاد حتى انتهى به المقام في حلب ، حيث قضى بقيه عمره .

هذه الأحداث المثيرة التي لاقاها ياقوت في أسفاره الطويلة ، ذكرها في رسالة بعث بها إلى أبي الحسن الشيباني القفطي ، وكان وزير صاحب حلب ، وقد أوردها القفطي في كتابه « إنباه الرواة على أبناه النحاه » . [١] وفي هذه الرسالة يذكر ياقوت كيف كان يستغل مقامه في البلاد في تحصيل العلم ، وأن هذا كان أكبر عزاء له في رحلاته الشاقة . [٢]

وتوفي ياقوت في سنة ٦٢٦ هـ بظاهر مدينة حلب . وكان قد وقف كتبه على مسجد الزبيدي ببغداد ، وسلمها إلى عز الدين علي بن الأثير صاحب التاريخ الكبير ، فحملها إلى هناك .

ومن أهم كتبه كتاب إرشاد الألباء إلى معرفة الأدباء وهو غير كتاب معجم الأدباء ، وكتاب معجم البلدان ، وكتاب معجم الشعراء، ثم كتاب المشترك وضعا ، المختلف صقعا ، وغير ذلك من الكتب التي أوردها المؤرخ

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (ط . وزارة المعارف العمومية) – المقدمة ص ٢٢ .
(٢) نفسه ص ٣١ .

الفقيه ابن العماد الحنبلي في كتابه « شذرات الذهب في أخبار من ذهب . »[1]

(ب) : ويذكر ياقوت في تقديمه لكتابه الدافع الذي دفعه إلى تأليفه ، فيقول : « فما زلت منذ غذيت بغرام الأدب ، وألهمت حب العلم والطلب ، مشغوفاً بأخبار العلماء ، متطلعاً إلى أنباء الأدباء ، أسائل عن أحوالهم ، وأبحث عن نكت أقوالهم ، بحث المغرم الصب ، والمحب عن الحب ، وأطوّف على مصنف فيهم يشفي العليل ، ويداوي لوعة الغليل ، فما وجدت في ذلك تصنيفاً شافياً ولا تأليفاً كافياً » .[2]

ثم أخذ ياقوت يعدد الكتب التي ألفت قبله في التراجم ، وينقد كل كتاب على حدة . فهو يقول ، على سبيل المثال ، عن كتاب لأبي بكر محمد بن عبد الملك التاريخي ، في أخبار النحويين فيما يبدو ، إذ أنه لم يذكر اسم الكتاب . « .. هذا مع أن كتابه صغير الحجم ، قليل التراجم ، محشو بالنوادر التي رووها ، (أي رواها النحويون) . لا يختص بأخبارهم أنفسهم » .[3] .

ولم يذكر ياقوت في العموم أسماء الكتب التي انتقدها في مقدمته ، واكتفى بذكر أصحابها ، فيما عدا كتاب علي بن فضال المجاشعي ، وهو : « شجرة الذهب في أخبار أهل الأدب » . وكتاب ابن الأنباري ، وهو : « نزهة الألبا في أخبار الأدبا » .[4] وقد أقر بأنه قد استفاد من هذا الكتاب الأخير . بالإضافة إلى كتاب ابن مسعر المغربي ، وكتاب الزبيدي ، وكتاب السيرافي القاضي .

وقد جمع ياقوت في كتابه أخبار النحويين ،واللغويين ، والنسابين ، والقراء المشهورين ، والإخباريين ، والمؤرخين ، والوراقين المعروفين ، والكتاب المشهورين ، وأصحاب الرسائل المدونة ، وأرباب الخطوط . وينقسم

---

(1) معجم الشعراء : المقدمة ص ٤٣ .
(2) المقدمة : ص ٤٥ – ٤٦ .
(3) نفسه ص ٤٦
(4) نفسه ص ٤٨٤

الذين يترجم لهم ياقوت إلى رجال قابلهم وعاشرهم . ورجال لم يقابلهم . سواء كانوا من المعاصرين له أو غير المعاصرين . والأولون يؤرخ لهم في إسهاب نتيجة لمعايشته لهم عن قرب . والآخرون يذكر لهم ما قرأه أو سمعه عنهم .

وهو في كل حال يهتم بذكر تاريخ الميلاد والوفاة لمن يترجم له ، أو يذكر على الأقل تاريخ الوفاة . وهو في ذلك يعد أكثر استيفاء من كتاب معجم الشعراء للمرزباني . كما أنه حريص على ذكر مؤلفات كل مؤلف وذكر من روى عنهم ومن قرءوا عليه وأجازهم .

وقد أدرك ياقوت ضخامة المادة التي يتألف منها كتابه . ولهذا فقد عمد إلى وسيلتين أمكنه من خلالهما الاقتصاد بعض الشيء في هذه المادة . أما الوسيلة الأولى فهي حذف الأسانيد « إلا ما قل رجاله وقرب مناله » . [1] وهو يؤكد أنه لم يفعل هذا عن تقصير ؛ ففي وسعه ، كما يقول ، « إثبات الإسناد سماعاً وإجازة[2].» وهو قد أدرك ، بحسه العلمي ، أن ذكر المصادر التي أخذ عنها ضرورة يفرضها غياب الإسناد . ولهذا فهو لم يأل جهداً في كتابه في إثبات هذه المصادر . وهو يقول في ذلك : « وأثبت مواضع نقلي ومواطن أخذي من كتب العلماء المعول في هذا الشأن عليهم ، والمرجوع في صحة النقل إليهم . »[3]

وأما الوسيلة الثانية التي مكنته من الاقتصاد في مادة كتابه ، فهي قصر معجمه على من اشتهر بالتصنيف والتأليف وصحة الرواية ، أي من قل شعره وكثر نثره ، كما يقول . على أنه يضم إلى هؤلاء الشعراء الذائعي الصيت ، الذين قاموا بتصنيف كتاب أو أكثر . مثل أبي تمام والبحتري وأبي العلاء . أما الشعراء الذين اشتهروا بشعرهم فحسب ، فقد خصص لهم كتاباً كان قد شرع في تأليفه عند شروعه في كتاب معجم الأدباء أو قبله – كما يقول . [4] .

---

(١) معجم الشعراء : المقدمة ، ص ٤٩ .
(٢) نفسه ، نفس الصفحة .
(٣) نفسه ص ٤٩ – ٥٠ .
(٤) نفسه ص ٤٨ .

ولا بد أن يكون هذا الكتاب هو كتاب معجم الشعراء الذي سبق أن أشرنا إليه ضمن مؤلفات الكاتب .

(د) : وقد رتب ياقوت معجمه على حروف المعجم : كما فعل المرزباني من قبل . ولكنه يتميز عن المرزباني بأنه أكثر دقة في ترتيبه منه . ذلك أنه ألزم نفسه بالترتيب الأبجدي لا في الحرف الأول فحسب ، بل في الحرف الأول والثاني والثالث والرابع . وأكثر من ذلك أنه التزم بهذا الترتيب في الآباء ، فإذا اتفق عدة رجال في أسمائهم وأسماء آبائهم . رتبهم حسب تاريخ وفاتهم .

وإذا كان المرزباني قد ذكر كل شاعر باسمه الحقيقي لا بلقبه الذي اشتهر به ، مما جعل الكشف عن أعلام الشعراء الذين ترجم لهم عسيراً ، فإن ياقوت قد تغلب على هذه المشكلة بأن أفرد في آخر كل حرف فصلاً ذكر فيه من اشتهر بلقبه على هذا الحرف دون أن يورد شيئاً من أخباره فيه . وهو قد فعل ذلك ليدل على اسمه واسم ابيه ليطلبه الباحث في موضعه من الكتاب .

ولم يلتزم ياقوت بالتصنيف المكاني ، بل جمع بين الكتاب البصريين والكوفيين والبغداديين والخراسانيين والحجازيين واليمنيين والمصريين والشاميين والمغربيين وغيرهم في ترتيب واحد هو الترتيب الأبجدي .

وقد بدأ ياقوت كتابه بمقدمة مسهبة أشرنا إلى بعض محتواها . ثم أتبع ذلك بفصل في « فضل الأدب وأهله وذم الجهل وحملته » . وقد أورد في هذا الفصل كل ما حفظه من أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وأقوال الخلفاء الراشدين والصحابة وكبار الكتاب والشعراء ، بل أقوال أرسطو التي تؤكد فضل الأدب وذم الجهل ومثال ذلك قوله عليه السلام : « رحم الله امرأ أصلح من لسانه » [1] ، وكذلك قول بعض الفقهاء : « حب من الناس حب

---

(١) المقدمة : ص ٦٧.

من الله ، وما صلح دين إلا بحياء ، ولا حياء إلا بعقل ، وما صلح حياء ولا دين ولا عقل إلا بأدب . » (١)

ثم اتبع هذا الفصل بفصل آخر في فضيلة علم الأخبار . وهو علم ، كما يقول : « يستمتع بسماعه العالم ، ويستعذب موقعه الأحمق ، والعاقل يأنس مكانه ، وينزع إليه الخاصي والعامي ؛ ويميل إلى روايته العربي والعجمي » (٢)

ويعتز ياقوت بعلم الأخبار الذي يعد جزءاً أساسياً من محتوى كتابه ، إلى درجة أنه يعد غير الملم به غير محقق للهدف الأسمى من العلم وإن بعد شأوه في فرع آخر محدود من علوم اللغة العربية ، كالنحو مثلا . وهو يقول في هذا المعنى : « وكان أبو زيد الأنصاري لا يعدو النحو ، فقال له خلف الأحمر قد ألححت على النحو لم تعدُهُ ، ولقلما يَتَنْبُل متفرد به . فعليك بالأخبار والأشعار » . (٣)

وبعد ذلك يشرع ياقوت في ترجمته للأدباء . فلا يفرغ من كاتب إلا بعد أن يذكر له من الروايات والأخبار والأشعار وآراء غيره فيه ، ما يعين على تحديد مكانته .

لكل هذا يعد كتاب معجم الأدباء مصدراً لا بديل له لكل من يرغب في أن يتقصى أخبار كاتب من الكتاب العرب حتى عصر مؤلفه . ومن حسن الحظ أن ياقوت عاش في زمن متأخر ، فكان كتابه سجلا لعلماء العرب الذين بدءوا التأليف منذ القرن الثاني الهجري حتى القرن السابع الهجري ، وما أكثرهم !

(٨) : وقد قام على إصدار الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، بمساعدة نخبة من العلماء ، الأستاذ المستشرق مارجليوث عام ١٩٠٧ م . كما قام على اصدار الطبعة الثانية التي طبعت بدار المأمون المصرية عام ١٩٣٦ ، الأستاذ أحمد فريد رفاعي . وتمتاز الطبعة الثانية بزيادات وتعليقات وفهارس وافية للأعلام والبلدان والكتب .

(١) نفسه ص ٦٩ . (٢) نفسه ص ٩٢ . (٣) نفسه ص ٩٥ .

نموذج من الكتاب :

باب الألف

(١ ـ آدَمُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَسَدٍ الْهَرَوِيّ)

أَبُو سَعْدٍ النَّحْوِيُّ اللُّغَوِيُّ ، حَاذِقٌ مُنَاظِرٌ . ذَكَرَهُ الْحَافِظُ أَبُو سَعْدٍ السَّمْعَانِيُّ . فَقَالَ : هُوَ مِنْ أَهْلِ هَرَاةَ [١] سَكَنَ بَلْخَ [٢] ، كَانَ أَدِيباً فَاضِلاً عَالِماً بِأُصُولِ اللُّغَةِ صَائِباً ، حَسَنَ السيرة ، قَدِمَ بَغْدَادَ حَاجّاً سَنَةَ عِشْرِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَمَاتَ فِي الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَوَّالٍ مِنْ سَنَةِ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَلَمَّا وَرَدَ بَغْدَادَ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ أَهْلُ الْعِلْمِ ، وَقَرَءُوا عَلَيْهِ الْحَدِيثَ وَالْأَدَبَ ، وَجَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّيْخِ أَبِي مَنْصُورٍ مَوْهُوبِ ابْنِ احْمَدَ بْنِ الْخَضِرِ الْجَوَالِيقِيِّ بِبَغْدَادَ مُنَاظَرَةٌ [٣] فِي شَيْءٍ

---

(١) هراة : بفتح الهاء والراء بلد النسب اليها هروى .

(٢) بلخ : بفتح وسكون يصرف ويمنع من الصرف واليها ينسب أبو معشر البلخي

(٣) في الطبعة الثانية لمرجليوث المستشرق : مناذرة .

اخْتَلَفَا فِيهِ ، فَقَالَ لَهُ الْهَرَوِيُّ : أَنْتَ لاَ تُحْسِنُ أَنْ تَنْسُبَ نَفْسَكَ فَإِنَّ الْجَوَالِيقِيَّ نِسْبَةٌ إِلَى الْجَمْعِ ، وَالنِّسْبَةُ إِلَى الْجَمْعِ بِلَفْظِهِ لاَ تَصِحُّ . قَالَ : وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ الْهَرَوِيُّ نَوْعُ مُغَالَطَةٍ ، فَإِنَّ لَفْظَ الْجَمْعِ إِذَا سُمِّيَ بِهِ جَازَ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهِ بِلَفْظِهِ ، كَمَدَائِنِيٍّ وَمَعَافِرِيٍّ وَأَنْمَارِيٍّ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ .

قَالَ مُؤَلِّفُ هَذَا الْكِتَابِ : وَهَذَا الاعْتِذَارُ لَيْسَ بِالْقَوِيِّ ، لأَنَّ الْجَوَالِيقَ [1] لَيْسَ بِاسْمِ رَجُلٍ فَيَصِحَّ مَا ذَكَرَهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ نِسْبَةٌ إِلَى بَائِعِ [2] ذَلِكَ وَاللهُ أَعْلَمُ . فَإِنْ كَانَ إِسْمَ رَجُلٍ أَوْ قَبِيلَةٍ أَوْ مَوْضِعٍ نُسِبَ إِلَيْهِ صَحَّ مَا ذَكَرَهُ . وَقَالَ الْحَافِظُ الإِمَامُ السَّمْعَانِيُّ : سَمِعْتُ أَبَا الْقَاسِمِ الطَّرِيفِيَّ يَقُولُ : سَمِعْتُ أَبَا سَعْدٍ الْهَرَوِيَّ الْمُؤَدِّبَ يَقُولَ : سُئِلَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنِ التَّقْوَى فَأَنْشَدَ :

إِنِّي وَجَدْتُ فَلاَ تَظُنُّوا غَيْرَهُ
هَذَا التَّوَرُّعَ [3] عِنْدَ ذَاكَ [4] الدِّرْهَمِ
فَإِذَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ ثُمَّ تَرَكْتَهُ
فَاعْلَمْ بِأَنَّ هُنَاكَ تَقْوَى الْمُسْلِمِ

---

(١) الجوالق والجواليق – وعاء من صوف أو شعر منسوج وهو الذي يقول عنه العامة شوال – قال الراجز :

يا حبــذا ما في الجواليق الســود   من خشكنان وسويــق مقنود

أي مختلط بالقند وهو عسل قصب السكر يقال سويق مقنود ومقند

(٢) قوله نسبة إلى بائع ذلك : في التعبير نوع تسامح لا يخفى وفي الهامش : لعله بيع .

(٣) الورع والتورع – الزهد في الدنيا ، وتورع من كذا تحرج ، والورع بالكسر الرجل التقي .

(٤) في الطبعة الثانية : عند هذا : والمراد أن التورع انما ينسب اليه المرء ويوسم به اذا قدر على التمتع والتلهي والدراهم ولم يفعل .

وكَانَ ألرَّشيدُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْجليلِ الملقب بالوطواط كَاتِبُ الانْشَاءِ لِخَوَارِزْمَ شَاهَ مِنْ تَلاَمِيذِ الشَّيْخِ أَبِي سَعْدٍ آدَمَ ابْنِ أَحْمَدَ الْهَرَوِيِّ ، وَانْتَقَلَ ألرَّشيدُ مِنْ بَلْخَ إِلَى خَوَارِزْمَ ، وَأَقَامَ بِهَا فِي خِدْمَةِ خَوَارِزْمَ شَاهَ أَشْهُراً ، وكَانَ يُكَاتِبُ الشَّيْخَ أَبَا سَعْدٍ (١) وَيَخْضَعُ لَهُ ، وَيُقِرُّ بِفَضْلِهِ . فَمِمَّا كَتَبَ إِلَيْهِ ، رِسَالَةٌ نُسْخَتُهَا .

كِتَابِي وَفِي ٱلأَحْشَاءِ وَجْدٌ(٢) عَلَى وَجْدِ
إِلَى ألصَّدْرِ (٣) مَوْلاَنَا الأَجَلِّ أَبِي سَعْدِ

أَشَمَّ (٤) طَوِيلِ البَاعِ أَصْبَحَ رَافِعاً
إِلَى قِمَّةِ (٥) ٱلأَفْلاَكِ ألوِيَةَ (٦) الْمَجْدِ

سَرَاةُ (٧) بَنِي ٱلاسْلاَمِ عِقْدُ جَوَاهِرِ
وَفِيهِمْ أَبُو سَعْدٍ كَوَاسِطَةِ (٨) الْعِقْدِ

سَقَى اللهُ أَيَامَنَا بِالْعَقِيقِ (٩) وَدُهُورَنَا بِاللِّوى ، وَأَعْوَامَنَا

---

(١) في الاصل الذي بمكتبة اكسفورد : سعيد .

(٢) الوجد – الحزن والشوق .

(٣) الصدر – البارز السابق – يقال صدر الفرس أي برز بصدره وسبق وصدر وفي المجلس فتصدر .

(٤) أشم – رجل أشم أي طويل الرأس – وأشم الرجل مر رافعاً رأسه ، والمراد علو المكانة .

(٥) قمة الجبل وقنته وقمته : أعلاه .

(٦) ألوية جمع لواء – وهو العلم .

(٧) سراة – السرو سخاء في مروءة . يقال سرا يسرو وسري بالكسر سروا فيها وسرو يسرو سراوة أي صار سريا قال الشاعر : وقرى السرى من الرجال بنفسه وابن السري اذا سرى أسراهما وجمع السرى سراة وهو جمع عزيز أن يجمع فعيل على فعلة ولا يعرف غيره ، وأصله سروة مثال كهنة وسحرة قلب الواو ألفا لتحركها وفتح ما قبلها .

(٨) حبة كبيرة تجعل في وسط العقد عند نظمه في سمطه هي أثمن حبات العقد وزينته .

(٩) العقيق واللوى ولطلوصله أماكن بعينها .

بِالْخُلَصَاءِ، وَشُهُورَنَا بِالْحِمَى؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْمَغَانِيَ[1] لِأَلْفَاظِ الْمَسَرَّاتِ كَالْمَعَانِي، فِيهَا أَثْمَارُ أَطَايِبِ الْأَمَانِي، مِنْ أَشْجَارِ وِصَالِ الْغَوَانِي[2] لَا بَلْ سَقَى مَوَاقِفَنَا بِبَلْخَ فِي الْمَدْرَسَةِ النِّظَامِيَّةِ، وَاجْتِمَاعَنَا فِي الْمَجَالِسِ الْأَجَلِّيَّةِ الْإِمَامِيَّةِ.

مَجَالِسِ مَوْلَانَا أَبِي سَعْدٍ الَّـذِي
بِهِ سَعِدَ الْأَيَامُ وَالدِّينُ وَالدُّنْيَـا

هُمَامٌ حَوَى يَوْمَ الْفَخَارِ بَنَانُـهُ
عَلَى رَغْمِ آنَافِ الْعِدَا قَصَبَ[3] الْعَلْيَا

الْإِمَامُ أَبُو سَعْدٍ. وَمَا أَدْرَاكَ[4] مَا الْإِمَامُ أَبُو سَعْدٍ. سَعْدٌ كُلُّهُ، خَيْرٌ قَوْلُهُ وَفِعْلُهُ، صَاحِبُ جُيُوشِ الْفَصَاحَةِ، وَمَالِكُ رِقَابِ[5] الْبَلَاغَةِ، وَنَاظِمُ عِقْدِ الْمَحَامِدِ، وَجَامِعُ شَمْلِ الْمَكَارِمِ. وَنَاشِرُ أَرْدِيَةِ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ، وَعَامِرُ أَبْنِيَةِ الْأَدَبِ وَالْحِكَمِ:

لِلَّهِ دَرُّ إِمَامٍ كُلُّـهُ أَدَبٌ
بِفَضْلِهِ يَتَحَلَّى الْعُجْمُ وَالْعَرَبُ

اللهُ يَعْلَمُ أَنِّي وَإِنْ شَطَّ[6] الْمَزَارُ؛ وَشَحَطَتِ[7] الدِّيَارُ

---

(١) المغاني – جمع مغنى – وهو الموضع الآهل بأهله.

(٢) الغواني – جمع غانية – وهي التي استغنت بجمالها عن الزينة.

(٣) قصب العليا – أي استولى على الامد والغاية في العلياء والرفعة – أصله أنهم كانوا ينصبون في حلبة السباق قصبة فمن سبق اقتلعها وأخذها ليعلم أنه السابق من غير نزاع ثم كثر حتى أطلق على كل مبرز.

(٤) استفهام يقصد به التفخيم والتهويل كقوله تعالى « الحاقة ما الحاقة والقارعة ما القارعة » أي شيء عظيم.

(٥) أي متمكن منها. (٦) شط المزار – بعد. (٧) شحطت: بعدت.

لاَ أَقْطَعُ أَكْثَرَ أَوْقَاتِي . وَلاَ أُزَجِّي (١) أَغْلَبَ سَاعَاتِي . إِلاَّ فِي مَدْحِ مَعَالِيهِ ، وَشَرْحِ أَيَادِيهِ (٢) لَوْ أَنْفَقْتُ جَمِيعَ عُمْرِي فِي ذَلِكَ وَسَلَكْتُ طُولَ دَهْرِي تِلْكَ الْمَسَالِكَ :

لَمَا كُنْتُ أَقْضِي بَعْضَ وَاجِبِ حَقِّهِ
وَلاَ كُنْتُ أُحْصِي مِن صَنَائِعِه (٣) عُشْرًا (٤)

وَكَيْفَ لاَ أُبَالِغُ فِي ثَنَائِهِ . وَلاَ أُوَاظِبُ عَلَى دُعَائِهِ ، وَهُوَ الَّذِي رَفَعَ قَدْرِي ، وَشَرَحَ لِلآدَابِ صَدْرِي ، وَسَقَانِي كُؤُوسَ الْعِلْمِ وَأَحْشَائِي صَادِيَةٌ (٥) ، وَكَسَانِي حُلَلَ الْفَضْلِ وَعَوْرَاتِي بَادِيَةٌ ، أَغْتَرَفْتُ مِنْ بِحَارِهِ ، وَأَقْتَطَفْتُ مَا أَقْتَطَفْتُ مِنْ ثِمَارِهِ :

وَأَنْتَ الَّذِي عَرَّفْتَنِي طُرُقَ الْعُلاَ
وَأَنْتَ الَّذِي هَدَّيْتَنِي (٦) كُلَّ مَقْصِدِ
وَأَنْتَ الَّذِي بَلَّغْتَنِي كُلَّ رُتْبَةٍ
مَشَيْتُ إِلَيْهَا فَوْقَ أَعْنَاقِ حُسَّدِي

---

(١) أزجي – زجيت الشيء تزجية اذا دفعته برفق يقال كيف تزجي الايام أي كيف تقضيها والريح تزجي السحاب .

(٢) أياديه في الاصل الذي باكسفورد أدبه بدل أياديه والايادي هنا أنسب بالمعنى والسياق والايادي النعم مجاز مرسل علاقته السببية كما هو معروف .

(٣) صنائع – جمع صنيعة وهي الجميل والمعروف قال الشاعر :

إن الصنيعة لا تكون صنيعة حتى تصيب بها مكان المصنع

وفي الحديث : صنائع المعروف تقي مصارع السوء .

(٤) عشرا – يريد جزءاً قليلا لا العشر بعينه قال تعالى : وما بلغوا مشعار ما آتيناهم أي بعضه .

(٥) صادية – الصديان العطشان .

(٦) ما رأيت هدى إلا بمعنى أهدى فلعل البيت فهديتني .

عَبْدُ مَجْلِسِهِ ٱلشَّرِيفِ أَخِي عُمَرْ – أَيَّدَهُ اللهُ – وَرَدَ مِن خُرَاسَانَ ذَاكِراً لِمَا يَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ ٱلْكَرِيمِ فِي ٱلْمَجَالِسِ وَٱلْمَحَافِلِ ، بَيْنَ أَيْدِي ٱلْأَكَابِرِ وَٱلْأَمَاثِلِ ، مِنْ مَدْحِي وَثَنَائِي ، وَتَقْرِيظِي (١) وَإِطْرَائِي . فَمَا أَسْتَبْدَعْتُ (٢) ذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِ كَرَمِهِ ، وَلَا آسْتَغْرَبْتُهُ مِنْ لَطَائِفِ شِيمِهِ ، وَكَانَتْ كَلِمَاتُهُ حَامِلَةً إِيَايَ عَلَى هَذَا التَّصْدِيعِ (٣) . لِمَجْلِسِهِ ٱلرَّفِيعِ . وَرَأْيُهُ فِي سَحْبِ ذَيْلِ ٱلْعَفْوِ عَلَى هَذَا التَّجَاسُرِ (٤) وَتَبْلِيغِ تَحِيَّتِي إِلَى ٱلْقَارِئِينَ عَلَيْهِ ، وَٱلْمُخْتَلِفِينَ (٥) إِلَيْهِ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِي . وَشُرَكَاءِ دَرْسِي يَقْتَضِي (٦) الشَّرَفَ وَالسَّلَامَ .

* * *

(١) التقريظ والاطراء : المبالغة في المدح .
(٢) الاوفق أنها استبعدت .
(٣) صدعت إلى الشيء ملت اليه .
(٤) التجاسر الجرأة .
(٥) المختلفين اليه الخ المترددين عليه من طلاب العلم والآداب .
(٦) يقتضي الشرف – من براعات المقطع المستعملة في ذلك العصر .

٥ - نفح الطيب
للمقري

٥ — نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

للمقّري

إذا كان ابن عبد ربه الذي وقفنا عنده بوصفه ممثلا لكتاب المغرب . قد استقى مادة كتابه « العقد الفريد » من علماء المشرق؛ بحيث قال عنه الصاحب بن عباد عبارته الشهيرة : « هذه بضاعتنا ردت إلينا » . فإن كتاب « نفح الطيب » يعد في مادته غربياً محضاً ؛ فهو لا يعنى إلا بتاريخ الأندلس وأخبار علمائها وأدبائها ، سواء من رحلوا إليها من المشرق أو من رحلوا منها إلى المشرق .

(أ) : ومؤلف هذا الكتاب هو أحمد بن محمد بن أحمد الشهير بالمَقّري المغربي المالكي الأشعري . وقد ولد بقرية مَقَّرة من أعمال تلمسان . ونشأ في تلمسان وتلقى فيها العلوم منذ صباه .

وقد قدم المقري لكتابه بخطبة ومقدمة مسهبة أمدتنا بمعلومات كافية عن تاريخ حياته وعن الظروف التي ألف فيها كتابه « نفح الطيب » .

وكان المقري ، شانه شأن غيره من علماء المشرق والمغرب ، يحب الأسفار والانتقال بين مواطن العلم المختلفة في البلاد الإسلامية . ففي عام ١٠٢٧ هـ عزم على ترك بلاد المغرب والرحيل إلى مصر ؛ فركب البحر وقاسى أهواله حتى وصل إليها . فقضى فيها فترة قصيرة في أزهرها الشريف . وفي عام ١٠٢٨ هـ ترك مصر إلى الحجاز ثم رجع إليها عام ١٠٢٩ هـ . وفي ربيع هذا العام قصد

زيارة بيت المقدس ، ثم عاد إلى القاهرة ، وأخذ يكرر الذهاب منها إلى الأماكن الطاهرة ؛ فذهب إلى مكة خمس مرات بعد ذلك . وأملى فيها بعض الدروس ، كما أملى الحديث النبوي بجوار قبر الرسول عليه السلام . وفي عام ١٠٣٧ هـ ترك مصر إلى دمشق ، حيث قابل جماعة من علماء الأندلس الذين أرخ لهم في كتابه [1] . وكما أملى المقري الحديث الشريف عند قبر الرسول ، أملى البخاريَّ في دمشق . وبالإضافة إلى ذلك أخذ يقصد المجالس الأدبية ، بعد أن طاب له المقام في دمشق ، وكانت جل محاضراته عن الأندلس ، تاريخها وأدبائها .

ويقول صاحب كتاب « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » في التعريف بالمقري : « حافظ المغرب . جاحظ البيان ، ولم ير نظيره في جودة القريحة ، وصفاء الذهن ، وقوة البديهة . وكان آية باهرة في علم الكلام والتفسير والحديث ، ومعجزاً باهراً في الأدب والمحاضرات » . [2]

وإذا كان المقري قد وصف بأنه جاحظي البيان ، فذلك لأنه يهتم ، مثل الجاحظ ، بتقسيم عباراته . ومن خصائص أسلوبه كذلك كثرة التشبيهات والاستعارات والسجع والجناس . يقول على سبيل المثال في رحلته البحرية من بلاد المغرب إلى مصر : « فلا حيا الله ذلك الهول المزعج ولا بياه ؛ والموج يصفق لسماع أصوات الرياح فيطرب بل ويضطرب . فكأنه من كأس الجنون يشرب أو شرب ، فيبتعد ويقترب ، وفرقه تلتطم وتصطفق ، وتختلف ولا تكاد تتفق ، فتتخال الجو يأخذ بنواصيها ، وتجذبها أيديه من قواصيها ؛ حتى كاد سطح الأرض يكشف عن خلالها . وعنان السحب يخطف في استقلالها . » [3]

---

(١) المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . ط . المكتبة التجارية سنة ١٩٤٩ م . ص ١١٥ .

(٢) مقدمة الكتاب ص ٥ .

(٣) انظر مقدمة للمؤلف ص ٤٥ .

ومن أهم كتب المؤلف ، سوى كتاب « نفح الطيب » ، كتاب « أزهار الرياض ، في أخبار عياض » — وعياض هذا هو القاضي المغربي عياض بن موسى بن عمرون بن موسى اليحصبي . وقد قام بيت المغرب بمصر بنشره . ثم كتاب « إضاءة الدجنّة ، في عقائد أهل السنة » ، وكتاب « روض الآس ، العاطر الأنفاس ، في ذكر من لقيته من علماء مراكش وفاس » . ثم كتاب « البدأة والنشأة » ، وهو في الأدب والنظم .

وقد توفي المقري عام ١٠٤١ هـ ، ودفن بمصر بمقبرة المجاورين .

(ب) : وعنوان الكتاب الذي نحن بصدده هو « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » . وهذه التسمية تشير إلى محتوى الكتاب ، فهو كتاب في تاريخ الأندلس وأدبائها الذين يخص منهم بالذكر والدراسة « لسان الدين بن الخطيب » .

ويشرح المقري الدافع الذي دفعه إلى تأليف كتابه ، والسبب في اتخاذ هذا العنوان له ، وذلك في مقدمته ، فيقول إنه كان في أثناء إقامته الطيبة في دمشق يعقد المجالس الأدبية التي يتفرع فيها الكلام في شتى العلوم والمعارف .. ثم يقول مسترسلاً : « فينجر بنا الكلام ، والحديث شجون ... إلى ذكر البلاد الأندلسية ، ووصف رياضها السندسية .. فصرت أورد من بدائع بلغائها ما يجري على لساني من الفيض الرحماني ، وأسرد من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب السلماني ... إذ هو — أعني لسان الدين — فارس النظم والنثر ، في ذلك العصر ... فلما تكرر ذلك غير مرة على أسماعهم ، لهجوا به دون غيره حتى صار كأنه كلمة إجماعهم ... فطلب مني المولى أحمد الشاهيني إذ ذاك ، وهو الماجد المذكور ، ذو السعي المشكور ، أن أتصدى للتعريف بلسان الدين في مصنف يعرب عن بعض أحواله وأنبائه وبدائعه .. وبعض ما له من النثار والنظام ، والمؤلفات الكبار العظام ، الرائعة للأبصار ... فأجبته .. بأن هذا الغرض غير سهل ، ولست ، علم الله ، له بأهل ، من جهات عديدة : أولها

قصوري عن تحمل تلك الأعباء الشديدة ؛ إذ لا يوفي بهذا الغرض إلا الماهر بطرق المعارف السديدة . وثانيهما : عدم تيسر الكتب المستعان بها على هذا المرام ، لأني خلفتها بالمغرب ، وأكثرها في المشرق كعنقاء مُغْرِب . وثالثها : شغل الخاطر بأشجان الغربة .. » . ثم يذكر المؤلف بعد ذلك نبذة عن حياة لسان الدين . وكيف أنه هرب من أعداء المسلمين في الأندلس إلى تلمسان ؛ يلتمس العون من سلطان بن قرين الذي وضع نفسه في خدمته . ولكن هذا السلطان توفي إثر ذلك مباشرة ، فرحل لسان الدين إلى فاس . حيث اغتيل على يد بعض أعدائه . ثم يعود بعد ذلك إلى موضوع تأليف الكتاب الذي طلب منه فيقول : « ثم إني لما تكرر علي في هذا الغرض الإلحاح .. عزمت على الإجابة لما للمذكور علي من حقوق .. فوعدته بالشروع في الطلب عند الوصول إلى القاهرة المعزية . » (١)

فلما فرغ المقري من كتابه أرسله إلى الشاهيني . فرد عليه برسالة يعرب فيها عن سعادته التي تجاوزت الحد برؤيته الكتاب ، ويمدحه بقصيدة في نهايتها ، وذكر له أنه كان يود أن تكتمل سعادته لو أن المؤلف قدم لكتابه بذكر الحلقة التي كان يجتمع فيها بالشاهيني ؛ وأن الشاهيني كان دافعه الأول إلى تأليف الكتاب .

وسعد المقري بهذا الإطراء ، وحثه هذا على استكمال الكتاب . وهو يقول في هذا : « وحصل التصميم على التكميل . والتأليف والتتميم ... فحدث لي بعد ذلك عزم على زيادة ذكر الأندلس جملة . ومن كان يعضد به الإسلام وينصر ... وكنت في المغرب وظلال الشباب ضافية ... معتنياً بالفحص عن أنباء الأندلس . وأخبار أهلها التي تنشرح لها الصدور والأنفس ؛ وما لهم من السبق في ميدان العلوم ، والتقدم في جهاد العدو الظلوم ، ومحاسن بلادهم... حتى اقتنيت منها ذخائر ؛ يرغب فيها الأفاضل الأخاير ... » (٢)

(١) انظر مقدمة المؤلف من ص ٧٦ إلى ص ١١٣ .

(٢) انظر المقدمة ص ١١٧ .

فلما حقق المقري ذلك . كان يتحتم عليه أن يغير عنوان الكتاب ؛ وكان قد سماه : « عَرْف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب . » فلما أضاف إليه الجزء الخاص بالأندلس وتاريخها وعلمائها سماه : « نفح الطيب . من غصن الأندلس الرطيب . وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب . »

(جـ) : ومعنى هذا أن الكتاب ينقسم إلى قسمين مستقلين . وهذا ما يعترف به المقري نفسه [1] .

ويختص القسم الأول بالأندلس بوجه عام . وهو ينقسم بدوره إلى ثمانية أبواب : الباب الأول في طبيعة الأندلس وجغرافيتها ، والثاني في فتح المسلمين للأندلس . والثالث في مكانة الدين الإسلامي فيها . والرابع في قرطبة . والخامس في التعريف بمن رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق . والسادس في التعريف بمن وفد إلى الأندلس من علماء المشرق ، والسابع « في نبذة مما مَنَّ الله تعالى به على أهل الأندلس من توقد الأذهان ، وبذلهم في اكتساب المعارف والمعالي ما عز أو هان » [2] ، والثامن في ذكر انتصار الأعداء على المسلمين بالجزيرة .

أما القسم الثاني فهو في التعريف بلسان الدين بن الخطيب ، وينقسم كذلك إلى ثمانية أبواب . والباب الأول في نسبه ، والثاني في نشأته وترقيه إلى أن أصبح وزيراً ، والثالث في مشايخه . والرابع في مخاطبات الملوك والأكابر له ، وثناء أهل عصره عليه ، والخامس في إيراد جمل من نثره ونظمه ، والسادس في مصنفاته ، والسابع في ذكر بعض تلاميذه الآخذين عنه ، والثامن في التعريف بمن ورث عنه العلم .

(د) : ومنهج كتاب « نفح الطيب » على هذا النحو . يربط ربطاً وثيقاً بين البيئة والنتاج الأدبي والفكري . وهو يتسلسل ببحثه ، في نطاق هذا المنهج ، تسلسلاً علمياً منطقياً ؛ فقد بدأ بالبحث في البيئة الطبيعية لبلاد الأندلس ، ثم

---

(١) نفسه ص ١١٣ .   (٢) المقدمة : ص ١١٥ .

أتبع هذا بالبحث في البيئة السياسية والفكرية الجديدة التي طرأت على الأندلس بعد فتح العرب لها . ثم ينتقل من هذا البحث إلى الحديث عن النماذج البشرية التي تعكس هذا النشاط الفكري والسياسي . ويقدم أمثلة لتوقدهم الذهني .

ثم خبت تلك الجذوة من النشاط الثقافي والفكري ، كما يحدث دائماً في كل الحضارات بعد أن تصل إلى أوج ازدهارها. بأفول نجم العرب في الأندلس. ولهذا فقد ختم المؤلف القسم الأول من كتابه بقصة هذا الأفول .

ولم يكن لسان الدين بن الخطيب سوى ثمرة من ثمار هذه البيئة ، ولهذا فقد أفرد له المؤلف القسم الثاني من كتابه . حقاً إنه كان قد بدأ بكتابة هذا القسم على أساس أنه يؤلف كتاباً مستقلاً عن لسان الدين بن الخطيب ، ولكنه ما لبث أن أدرك بحسه العلمي أن الأديب لا ينفصل عن بيئته الطبيعية والسياسية والفكرية ، ولهذا فقد استكمل بحثه بالقسم الأول الذي يعد : في الحقيقة ، المبحث الأساسي المهد للقسم الثاني الخاص بابن الخطيب . ومن ثم يمكننا أن نقول إن إضافة القسم الأول إلى الكتاب ، لا تعد من قبيل الاستطراد ، كما يزعم بعض الدارسين [1] . بل هو جزء أساسي ، شرع الكاتب مؤخراً في تأليفه حتى يكون بحثه في لسان الدين بن الخطيب ، بوصفه ثمرة من ثمار البيئة العربية الأندلسية ، متكاملاً .

على أن المقري لا يعد في الحقيقة أول رائد في هذا الاتجاه ، فقد سبقه في ذلك الثعالبي في يتيمته . ويعد الثعالبي حقاً أول دارس عربي قديم ربط بين الشعراء وبيئاتهم . وقد تبعه في ذلك وأقر بفضله ، علي بن بسام الأندلسي . وذلك في كتابه « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » :

وإذا كان المقري قد حذا حذوهما في هذا الاتجاه في التأليف ، فإن هذا يعني ان هذا المنهج ، منهج الربط بين الأديب وبيئته ، كان قد استقر في

---

(١) عمر الدقاق : مصادر التراث العربي ، ص ١٢٧ .

أذهان الكتاب العرب ، قبل أن ينادي به الناقد الفرنسي « تين » في الربع الأخير من القرن التاسع عشر .

(هـ) وقد طبع « نفح الطيب » بمطبعة بولاق بمصر في سنة ١٢٧٩ هـ ، ثم طبع بالمطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٢ هـ . ثم طبع القسم الأول من الكتاب طبعة أوروبية في ليدن سنة ١٨٥٥ م .

وثمة طبعة صدرت في عشرة أجزاء في عام ١٩٤٩ بمصر ، قام محيي الدين عبد الحميد بتحقيقها . وآخر طبعة صدرت للكتاب حققها إحسان عباس . وقد نشرت ببيروت في ثمانية مجلدات ، وهي تحتوي على عدد من الفهارس .

* * *

نموذج من الكتاب :

وولي بعده ابنه الحكم بعهدٍ منه إليه . فاستكثر من المماليك ، وارتبط الخيل ، واستفحل ملكه ، وباشر الأمور بنفسه ، وفي خلال فتنة كانت بينه وبين عميه اغتنم العدو الكافر الفرصَةَ في بلاد المسلمين ؛ وقصد بَرْشِلُونة فملكوها سنة خمس وثمانين ، وتأخرت عساكر المسلمين إلى ما دونها ، وبعث الحكم العساكر مع الحاجب عبد الكريم بن مُغيث إلى بلاد الجلالقة . فأثخنوا فيها ، وخالفهم العدو إلى المَضَايق . فرجع على التعبية ، وظفر بهم . وخرج إلى بلاد الإسلام ظافراً . وكانت له الواقعة الشهيرة مع أهل الرَّبَضِ [1] من قَرَطُبَة لأنه في صدر ولايته كان قد انهمك في لَذَّاته ، فاجتمع أهل العلم والورَع بقُرْطُبَة ، مثل يحيى بن يحيى الليثي صاحب مالك وأحد رواة الموطّأ عنه وطالوت الفقيه وغيرهما . فثاروا به ، وخلعوه . وبايعوا بعض قرابته ، وكانوا بالرَّبَضِ الغربيّ من قُرْطُبَة . وكان محلّه متصلا بقصره ، فقاتلهم الحكم ، فغلبهم ، وافترقوا ، وهدم دورهم ومساجدهم ، ولحقوا بفاس من أرض العُدْوة ، وبالإسكندرية من أرض المشرق ، ونزل بها جمع منهم . ثم ثاروا بها ، فزحف إليهم عبدُ الله بن طاهر صاحب مصر للمأمون

---

(١) الربض — بفتح الراء والباء جميعاً — كل ما كان حول المدينة من بيوت ومساكن .

بن الرشيد . وغلبهم ، وأجازهم إلى جزيرة أقريطِش (١) ، فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الإفرنج من أيديهم بعد مدّة .

وكانت في أيام الحكم حروب وفتن مع الثوّار المخالفين له من أهل طُلَيْطلة وغيرهم .

وفي سنة ثنتين وتسعين جمع لُذْريق بن قارلّة ملك الفرنج جموعَه . وسار إلى حصار طَرَسُونة (٢) . فبعث الحكم ابنَه عبدَ الرحمن في العساكر ، فهزمه ، ففتح الله على المسلمين ، وعاد ظافراً .

ولما كثر عَيْثُ الفرنج في الثغور بسبب اشتغال الحكم بالخارجين عليه سار بنفسه إلى الفرنج سنة ست وتسعين ، فافتتح الثغور والحصون . وخرّب النواحي ، وأثخن في القتل والسبي والنهب . وعاد إلى قُرْطُبة ظافراً .

وفي سنة مائتين بعث العساكر مع ابن مُغيث إلى بلاد الفرنج فخرب وهدم عدّة حصون ، وأقبل عليه أليط ملكُ الجلالقة في جموع عظيمة . وتنازلوا على نهر ، واقتتلوا عليه أياماً ، ونال المسلمون منهم أعظم النّيل . وأقاموا كذلك ثلاث عشرة ليلة ، ثم كثرت الأمطار ، ومدّ النهر ، وقفل المسلمون ظافرين ظاهرين .

وهو أول من جنّد الأجناد . واتخذ العدّة ، وكان أفحلَ بني أمية بالأندلس ، وأشدّهم إقداماً ونجدة . وكان يشبه بأبي جعفر المنصور من خلفاء بني العباس في شدّة الملك وتوطيد الدولة وقمع الأعداء : وكان يُؤْثر الفقيه زياد بن عبد الرحمن ، وحضر يوماً عنده ، وقد غضب فيه على خادم له

---

(١) أقريطش : بفتح الهمزة وتكسر ، والقاف ساكنة ، والراء والطاء مكسورتان بينهما ياء ساكنة « اسم جزيرة في بحر المغرب يقابلها من بحر إفريقية لوبيا ، وهي جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى » اه من ياقوت .

(٢) طرسونة — بفتح الطاء والراء جميعاً — مدينة « بينها وبين تطيلة أربعة فراسخ معدودة في أعمال تطيلة ، كان يسكنها العمال ومقاتلة المسلمين ، إلى أن تغلب عليها الروم » اه من ياقوت .

لإيصاله إليه كتاباً كره وصوله ، فأمر بقطع يده ، فقال له زياد : أصلح الله الأمير فإن مالك بن أنس حدّثني في خبر رفعه أن « مَنْ كَظَمَ غيظاً يقدر على إنفاذه ملأه الله تعالى أمناً وإيماناً يوم القيامة » فأمر أن يمسك عن الخادم ، ويعفى عنه ، فسكن غضبه . وقال : آلله إن مالكا حدّثك بهذا ؟ فقال زياد : الله إن مالكا حدّثني بهذا .

وكانت المجاعة الشديدة سنة سبع وتسعين ومائة . فأكثر فيها مواساة أهل الحاجات . وفي ذلك يقول عباس بن ناصح الجزيري فيه :

نكد الزمان فآمنتْ أيامُـــه مِنْ أن يكون بعصْرِه عُسْرُ
ظلع الزمان بأزمة فَجَلاَلَـــهُ تلك الكريهةَ جودُهُ الغَمْرُ[1]

وكان نقش خاتمه « بالله يثق الحكم ويعتصمُ » .

وذكور ولده عشرون . وإناثهم عشرون ، وأمه جارية اسمها زخرف .

وكان أسمر ، طُوَالاً[2] ، أشمّ[3] . نحيفاً .

ومدّة ملكه ست وعشرون سنة . سامحه الله ! .

وقال غير واحد : إنه أول من جعل للملك بأرض الأندلس أبّهة . واستعدّ بالمماليك حتى بلغوا خمسة آلاف : منهم ثلاثة آلاف فارس ، وألفا راجل .

ثم توفي الحكم بن هشام آخر سنة ست ومائتين لسبع وعشرين سنة من ولايته ، ومولده سنة ١٥٤ .

وقال ابن خلدون وغير واحد : إنه أول من جند بالأندلس الأجناد

(١) ظلع : أصل معناه غمز في مشيه ، شبه الأعرج ، وأراد أنه أصيب بضعف ، وجلاله : كشف ، وجلاله الكريهة : أذهبها ، والغمر – بفتح الغين وسكون الميم – الكثير الواسع .
(٢) طوال – بضم الطاء – طويل بالغ الطول .
(٣) أشم : من الشمم ، وهو ارتفاع في قصبة الأنف .

والمرتزقة . وجمع الأسلحة والعُدَد . واستكثر من الخدم والحواشي والحشم ، وارتبط الخيول على بابه . واتخذ المماليك . وكان يسميهم الخرس لعجمتهم ، وحكى في عدّتهم ما تقدم . ثم قال : وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس . وكان يباشر الأمور بنفسه . ويقرب الفقهاء والعلماء والصالحين ، وهو الذي وطّأ الملكَ لعقبه بالأندلس . انتهى .

وكان له — فيما حكى غير واحد — ألفا فرس مرتبطة على شاطىء النهر بقبلي قصره يجمعها داران ، وهو القائل لما قتل أهل الرَّبَضِ وهدم ديارهم وحرثها :

رأبْتُ صُدُوعَ الأرض بالسيف راقعاً
وقدماً لأمْتُ الشَّعْبَ مذ كنتُ يافعا [1]
فَسَائل لثغوري هل بها اليومَ ثُغْـرَةٌ
أبادرُها مستنضيَ السيفِ دارعَـا [2]
تُنَبِّيك أني لم أكن في قِرَاعِهِـم
بوَانٍ . وقدماً كنتُ بالسيف قارعاً [3]
وهل ردت إذ وفّيتُهم صاعَ قَرْضِهم
فوافَوْا منايا قُدِّرَتْ ومَصَارِعَـا
فهذي بلادي ، إنني قد تركْتُهـا
مِهَادا ، ولم أترك عليها مُنازِعَـا

وقال ابن حزم في حقه : إنه كان من المُجَاهرين بالمعاصي ، السافكين للدماء ولذلك قام عليه الفقهاء والصلحاء .

---

(١) رأبت الصدع : المراد أنه أصلح ما فسد وضم ما انتشر ، ولأمت الشعب بمعناه .
(٢) الثغور : جمع ثغر — بالفتح — وهو موضع المخافة ، والثغرة — بالضم — كل فرجة في جبل أو بطن واد أو طريق مسلوك ، ومستنضي السيف : مستله ومخرجه من غمده .
(٣) تنبيك : تخبرك ، والواني : الضعيف الفاتر الهمة .

الباب الثانى

فى المصادر اللغوية والمعاجم

تمهيد

جمع اللغة - التصنيف فيها - المعاجم

(أ) روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنا أفصح العرب ، بيد أنى من قريش ، وأنى نشأت في بنى سعد بن بكر . »[1] .

وقد يتبادر إلى ذهن القارىء لأول وهلة أننا نسوق هذا الحديث استشهاداً ، على فصاحة النبي ؛ ففصاحته لا تحتاج لتأكيد ، إذا كان الله تعالى قد خصه بمعجزة القرآن الذي تحدي به العرب جميعاً في مضمار البلاغة . ولكننا أتينا بهذا الحديث لكى نستشهد به على أن اللغة العربية في بيئتها الطبيعية التي لم تكن تعرف العناصر الأجنبية ، كانت مستويات في الفصاحة والبلاغة . وإذا كان النبي (ص) قد نوه بقبيلة سعد بن بكر ، فهذا يدل على أن هذه القبيلة وبعض القبائل الأخرى كانت تزهو على سائر القبائل بفصاحتها .

وهذا التصريح من قبل العرب أنفسهم بأن لغة العرب ليست في مستوى واحد من الفصاحة ؛ دفعهم منذ زمن مبكر إلى أن يرسلوا أبناءهم منذ نعومة أظفارهم إلى مواطن اللغة الفصحى لكى يتشبعوا بها ، وحرصوا على إبعادهم عن القبائل المتاخمة للأمم المتحضرة ، مثل الفرس والروم ؛ ليقينهم من أن لسان هذه القبائل قد فسد نتيجة متاخمتها للعناصر الأجنبية .[2]

---

(١) السيوطي : المزهر – دار الحلبي ، القاهرة – جـ ١ ص ٢١٠ .
(٢) انظر السيوطي : نفسه ١ / ٢١١ – ٢١٢ .

وإذا كان العربي قد ميز بين الفصيح وغير الفصيح من لغات قبائله منذ زمن مبكر ، وذلك قبل أن تنشأ الدولة الإسلامية وتستقر فيها العناصر الأجنبية المتباينة ، فقد كان طبيعياً أن يكون بعد الإسلام أكثر حرصاً على سلامة لغته ، بعد أن تهددتها عوامل خشى أن تغير من ملامحها وتحط من قدرها ، مالم يعمل قدر جهده على صونها . ولهذا فقد خص العلماء علوم اللغة والنحو باهتمام كبير منذ زمن مبكر . وإذا نحن نظرنا إلى تعريف السيوطى لعلوم الأدب ، وجدنا أن علوم اللغة والنحو تمثل القدر الأكبر منها . يقول السيوطى : « فإن علوم الأدب ثمانية : النحو واللغة والتصريف والعروض والقوافي وصنعة الشعر وأخبار العرب وأنسابهم . وألحقنا بالعلوم الثمانية علمين وضعناهما وهما : علم الجدل في النحو ، وعلم أصول النحو ، فيعرف به القياس وتركيبه وأقسامه ، من قياس العلة وقياس الشبه وقياس الطرد ، إلى غير ذلك على حد أصول الفقه . » (١)

ويقال إن أبا الأسود الدؤلى كان أول من أدرك ما اعترى اللسان العربي من فساد ورأى، بوصفه أول عالم لغوي ، ضرورة البدء في وضع قواعد لضبط اللغة قبل أن يستفحل الأمر . فقد قيل إنه أتى زيادا وهو أمير البصرة فقال له : « إنى أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم وفسدت ألسنتها ، أفتأذن لي أن أضع للعرب ما يعرفون به كلامهم ؟ فقال له زياد : لا تفعل . قال (أي راوى الخبر وهو عاصم) فجاء رجل إلى زياد فقال : أصلح الله الأمير . توفي أبانا وترك بنون . فقال له زياد : توفي أبانا وترك بنون ؟ أدع لي أبا الأسود . فلما جاءه قال له : ضع للناس ما كنت نهيتك عنه . ففعل . » (٢)

وبدأت المدارس اللغوية والنحوية تتكون وتنشط منذ عصر أبى الأسود

---

(١) أبو البركات بن الأنباري : نزهة الألباء في طبقات الأدباء – مكتبة الأندلس ببغداد . تحقيق إبراهيم السامرائي ، ط ٢ سنة ١٩٧٠ – ص ٧٦ .

(٢) ابن الأنباري : نفسه ، ص ٢١ .

الدؤلي . وقد تتلمذ عليه من الرعيل الأول من اللغويين والنحويين عنبسة الفيل ، وميمون الأقرن ، ونصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، ويحي بن معمر [1]

(ب) ثم دخل العرب في طور حضاري جديد باستيلاء العباسيين على الحكم . وكان أول مظهر لهذا الطور تقلص نفوذ العرب وازدياد نفوذ الفرس . ويتمثل المظهر الثاني في ازدياد وسائل الترف وانتشار القيان والمغنيات اللائي لعبن دوراً بارزاً في تطور الغناء بصفة خاصة والحياة الأدبية بصفة عامة . وأما المظهر الثالث فيتمثل في تداخل الثقافات الأجنبية مع الثقافة العربية ، مكونة ثقافة إسلامية جديدة . وكان من الطبيعي أن يتجلى تأثير هذه المظاهر في اللغة .

فقد كان نتيجة معايشة العناصر الأجنبية لعامة الشعب العربي أن ظهرت لغة العوام وهي ما يسميها الجاحظ لغة المولدين والبلديين . وقد أخذت هذه اللغة تؤكد وجودها يوماً بعد يوم ، بعد أن انفصلت عن الفصحى ، إلى درجة أن أقر بعض العلماء بأن التعبير الأدبي في لغة العوام له سماته التي لا ينبغي للفصحى أن تغيره . يقول الجاحظ : « وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام . فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب . أو تتخير لها لفظاً حسناً ؛ أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً ؛ فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها . ومن الذي أريدت له ؛ ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها . » [2]

ولم يقتصر الأمر على ظهور لغة العوام واستقرارها جنباً إلى جنب مع اللغة الفصحى ، بل إن اللغة الفصحى لم تسلم من تأثير العامية فيها . سواء في الإعراب أو الألفاظ أو التراكيب . يقول الجاحظ : « وقد يتملح الأعرابي بأن يدخل

---

(١) انظر ترجمة ابن الأنباري لهؤلاء العلماء : ص ٢٢ - ٢٥ .

(٢) البيان والتبيين ١ / ١٤٦ .

في شعره شيئاً من كلام الفارسية . »[1] وقد أورد نماذج كثيرة من الشعر الذي طعمه أصحابه بألفاظ فارسية على سبيل التظرف . ويقال إن اللحن أصاب العلماء كذلك ، ومن بينهم أبو حنيفة ، وعمرو بن عبيد ، وبشر المريسي .[2]

كل هذا دفع العلماء إلى السير على نهج الأولين في أخذ اللغة السليمة من مصادرها الأصلية ، أي من البادية . ثم صار العالم منهم يعتز كل الإعتزاز بأنه قد قضى سنين طويلة من عمره في البادية ، فقد كان النضر بن شميل يقول : « أقمت في البادية أربعين سنة »[3] وكان البصريون يفخرون على الكوفيين بقولهم : « نحن نأخذ اللغة من حرشة الضباب وأكله اليرابيع ، وأنتم تأخذونها عن أكلة الشواريز وباعة الكواميخ »[4]

ولم يكن العلماء يأخذون عن الأعراب ، وإن انتموا إلى قبيلة عرفت بفصاحة لسانها ، إلا من عرف منهم بعلمه وفصاحته وكثرة روايته . ولما أدرك هؤلاء أهميتهم بالنسبة إلى العلماء ، انتقلوا إلى البصرة أوبغداد ليكونوا على مقربة من العلماء فيذيع بذلك صيتهم . ومن أشهر هؤلاء الذين لم يقتصر دورهم على الرواية بل تعداه إلى التأليف في اللغة . أبو زياد الكلابي ، الذي وفد إلى بغداد وأقام بها وأخذ عنه العلماء هناك . ويذكر ابن النديم أن له من الكتب كتاب النوادر ، وكتاب الفرق ، وكتاب الإبل . وكتاب خلق الإنسان . ومنهم أبو سوار الغنوي ، وقد أخذ عنه أبو عبيدة . وكذلك أبو الجاموس ثور بن يزيد الأعرابي ، وقد أخذ عنه ابن المقفع . ومنهم كذلك أبو مسحل . وكانت له مناظرات في التصريف مع الأصمعي . ولأبي مسحل هذا . وفقا لابن النديم . كتابان هما كتاب النوادر . وكتاب الغريب .[5] ونظرة إلى الكتب التي ألفها

---

(١) البيان والتبيين ١ / ١٤١ .

(٢) ضحى الإسلام ١ / ٢٩٥ .

(٣) طبقات ابن الأنباري : ص ٧٣ .

(٤) الفهرست : ص ٩٢ .

(٥) انظر الفهرست ص ٧٢ – ٧٩ حيث يتحدث عن هؤلاء الأعراب الفصحاء .

هذا الجيل الرائد من الأعراب الخلص ، الذين أخذ عنهم الجيل الأول من علماء اللغة ، تدلنا على أن هؤلاء الأخيرين لم يأخذوا عن الأعراب اللغة فحسب ، بل حذوا حذوهم في التأليف . فكم من كتب ألفت فيما بعد في موضوع النوادر ، وكم من كتب ألفت حول موضوعات إنسانية أو حيوانية أو طبيعية مثل موضوع الأنوار أو الإبل أو طبائع الإنسان ، إلى غير ذلك .

وقد كان نتيجة هذا الإتصال الوثيق بين هؤلاء العلماء وبين الأعراب . أن بدأ العلماء يدركون ما في اللغة العربية السليمة من كنوز وما فيها من جمال . يقول الجاحظ : « ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا أنفع ، ولا آنق ولا ألذ في الأسماع ، ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ، ولا أفتق للسان ، ولا أجود تقويماً للبيان ، من طول سماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء . »(1) وقد كان مما يشرف العالم أن يذكر في كتبه أن مادته مصدرها الأعراب الفصحاء . فأبو زيد يقول في أول كتابه « النوادر » : « ما كان فيه من شعر القصيد ، فهو سماعي من المفضل بن محمد الضبي ، وما كان من اللغات وأبواب الرجز فذلك سماعي من العرب . »(2) وسأل الكسائي الخليل بن أحمد : « من أين علمك هذا ؟ فقال من بوادي الحجاز ونجد وتهامة . فخرج الكسائي وأنفذ خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظه . »(3) وقد قيل لبشار : « ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئاً استنكرته العرب من ألفاظهم وشُكَّ فيه ، وإنه ليس في شعرك ما يشك فيه . قال : ومن أين يأتيني الخطأ وولدت ها هنا ونشأت في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل ، ما منهم أحد يعرف كلمة من الخطأ . وإن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم .

---

(1) البيان والتبيين ١ / ١٤٥ .

(2) أبو زيد الأنصاري : النوادر في اللغة – دار الكتاب العربي ببيروت ، ط ٢ سنة ١٩٦٧ – ص ١ .

(3) طبقات الأدباء ، ص ٥٩ .

وأيفعت فأبديت إلى أن أدركت . فمن أين يأتيني الخطأ ؟ » [1]

(ح) ولما شاع مبدأ أخذ المادة اللغوية والأدبية من مصادرها الأصلية ، كان لابد أن توضع الأسس التي ينبغي أن تتوافر في كل من الناقل والآخذ ، حتى تصبح المادة التي يدونها الآخذ في النهاية حجة يعتمد عليها في تفسير التراث العربي ، قرآناً كان أم حديثاً ، شعرا كان أم خبراً .

وقد اشترط في حامل اللغة أن يكون عدلا ، رجلا كان أم أمرأة ، حراً كان أم عبدا .

وكانت العدالة هي السمة الأساسية التي ينبغى أن تتوافر في ناقل الحديث الصحيح . والسبب في جعل رواية اللغة في مرتبة واحدة من الأهمية مع رواية الحديث هو أن اللغة كانت وسيلة لتفسير الحديث وتأويله [2] . فإذا لم يتوافر عنصرا الصدق والأمانة في حامل اللغة ، سقطت قيمة ما يؤخذ عنه ، وإن انتسب إلى أفصح القبائل لغة . وفي هذا يقول ابن فارس في « فقه اللغة » : « تؤخذ اللغة سماعاً من الرواة الثقات ذوي الصدق والأمانة ، ويتقى المظنون ، فحدثنا على بن إبراهيم عن المعدانى عن أبيه عن معروف بن حسان عن الليث عن الخليل ، قال : إن النحارير ربما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب ، إرادة اللبس والتعنيب . » [3]

وهناك ، إلى جانب هذا الشرط الذي اشترط في حامل اللغة دون خلاف بين العلماء ، شروط أخرى كانت موضع جدال فيما بينهم . وقد ذكرها السيوطى في المزهر . [4]

أما الشروط التي تشترط في الأخذ السليم فأهمها ذكر السند ، كما هو الحال

---

(١) ضحى الاسلام ١ / ٢٩٧ .
(٢) انظر المزهر ١ / ١٣٨ .
(٣) نفسه ١ / ١٣٧ – ١٣٨ .
(٤) انظر المزهر : ١ / ١٣٧ – ١٤٤ .

في الحديث . فإذا قال قائل : حدثني رجل عن فلان . كان هذا « غير مقبول ؛ لأن الجهل بالناقل يوجب الجهل بالعدالة » (١) . وقد يستعيض الراوي عن ذكر السند بذكر الشيخ الذي قرأ عليه فيقول : قرأت على فلان ، أو يقول : قرأ عليّ فلان وأنا أسمع ، أو يقول : أجاز لي فلان قال ، أو يقول : أخبرني فلان فيما كتبه إليّ . (٢)

وهناك مراحل يمر بها العالم حتى يصل إلى مرتبة الحافظ ، وهي أعلى مرتبة يمكن أن يصل إليها . وتتلخص هذه المراحل – كما ذكرها السيوطي فيما يلي :

١– الدءوب والملازمة ، أي الدأب على الدراسة والتحصيل ؛ فقد قيل للأصمعي : « كيف حفظت ونسي أصحابك ؟ قال : درست وتركوا . » (٣)

٢– الكتابة والقيد . فقد روى عن محمد بن يزيد بن أبى المحلم قال : أنشدت يونس أبياتاً من رجز فكتبها على ذراعه . ثم قال لي : إنك لجيّاءٌ بالخيرٌ . » (٤)

٣– الرحلة في طلب الفوائد والغرائب .

٤– حفظ الشعر .

٥– التثبت في الرواية .

٦– التثبت في تفسير غريب القرآن والحديث .

فإذا تحقق للعالم كل هذا وصل إلى مرتبة الحافظ .

ووظيفة الحافظ هي الإملاء والإفتاء في اللغة ، وعزو العلم إلى قائله ، والرد على العلماء إذا أخطأوا . (٥)

---

(١) نفسه ١ / ١٤١ .

(٢) انظر نفسه ١٤٤ – ١٧٠ .

(٣) نفسه ٢ / ٣٠٣ .

(٤) نفسه ٢ / ٣٠٤ .

٥) نفسه ٢ / ٣١٣ – ٣٣٥ .

(د) ولم يكن العلماء في نشاطهم الأدبي واللغوي بمعزل عن الحياة العامة . بل إن البيئة الثقافية العامة كانت من النشاط بحيث كانت على إستعداد لتقبل نتاج عملهم ، لغويا كان أم أدبياً . فلم تكن مجالس الغناء ، على سبيل المثال ، تعقد بقصد الإستمتاع والطرب فحسب ، بل كان يزيد من متعة هذه المجالس أن يكون المغني أو المغنية على قدر وافر من الثقافة العربية . ومن ثم فقد حرص أصحاب دور اللهو والغناء ، وكذلك تجار القيان ، على تثقيف جواريهم عن طريق تدريبهم على اللغة السليمة والنطق السليم ، وحفظ الشعر ومعرفة تراكيبه . وقد كان هذا كفيلا بأن يسمو بمتعة المجلس . ولا غرو أن كان ثمن الجارية يقدر وفقا لدرجة ثقافتها . وبعض هؤلاء الجواري كن عظيمات الحظ من الثقافة والتأدب ، فضلا عن إتقانهن للغناء ورواية الشعر . يقول المبرد : « حدثني الجاحظ عن إبراهيم بن السندى قال : كانت تصير إليّ « هاشمية » ، جارية حمدونة ، في حاجات صاحبتها ، فأجمع نفسي لها . وأطرد الخواطر من فكري ، وأحضر ذهني جهدي ، خوفاً من أن تورد عليّ مالا أفهمه ، لبعد غورها ، واقتدارها على أن تجري على لسانها ما في قلبها . »[1]

وعلى حين كانت مجالس الغناء تغلب عليها المتعة الفنية : كانت مجالس الخلفاء — التي كانت تجمع بين المتخصصين في فروع العلم والمعرفة — كانت تغلب عليها المتعة العلمية ، كما كانت مجالا خصباً لتنافس العلماء ومن بينهم اللغويون والنحويون . ولم يكن الخليفة يألو جهداً في أن يقدم لمن اشتهر من هؤلاء بعلمه وثقته ، كل الوسائل التي تعينه على تأليف كتبه وإذاعتها بين الناس. فقد « أمر أمير المؤمنين المأمون الفرّاء أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو ، وما سمع من العرب ، فأمر أن تفرد له حجرة من حجر الدور ، ووكل بها الجواري وخدما للقيام بما يحتاج إليه . . . وصير له الوراقين ، وألزمه الأمناء والمنفقين . فكان الوراقون يكتبون حتى صنف « الحدود » . . . فبعد أن فرغ من ذلك

---

(١) ضحى الاسلام ١ / ٩١ .

خرج إلى الناس ، وابتدأ يملي (كتاب المعاني) ، فأردنا أن نعد الناس الذين اجتمعوا لإملاء كتاب المعاني ، فلم نضبط . »[1]

ولم يكن الخليفة يتردد في استشارة الثقات من اللغويين فيما عن له من مشكلة لغوية أو أدبية ، فقد سأل الرشيد أهل مجلسه عن صدر هذا البيت :

ومن يسأل الصعلوك أين مَذَاهِبُهُ

فلم يعرفه أحد ، فقال إسحق الموصلي : الأصمعي مريض ، وأنا أمضي إليه فأسأله عنه . فقال الرشيد : احملوا إليه ألف دينار لنفقته . واكتبوا في هذا إليه . . . .

فجاء جواب الأصمعي : أنشدنا خلف لأبي النشناش والنهشلي :

وسائلة أين الرحيل وسائل ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبُه .

ثم ذكر لـه القصيدة بأكلها . [2]

(هـ) وقد كانت نتيجة هذا النشاط الهائل في الجمع والتحصيل والدراسة، أن برزت المشكلات اللغوية العامة التي ناقشها علماء كل جيل وأودعوها مؤلفاتهم . ويمكننا أن نلخص هذه المشكلات فيما يلي :

أولا مشكلة الفصاحة ، فبعد أن استقصي العلماء جميع اللغة ، وجدوا أن بعض القبائل قد تشذ في استخدام ألفاظ في غرض معين لا تستعملها القبائل الأخرى في نفس الغرض . ومن ثم فقد تساءلوا : أي الألفاظ أفصح في التعبير عن هذا الغرض ؟ ولما كان من الصعب الإجابة عن هذا السؤال ، فقد حرر العلماء لذلك ضابطاً يعرف به ما أكثرت العرب من استعماله من غيره : « فقالوا : الفَصاحة في المفرد ، خلوصه من تنافر الحروف . ومن الغرابة ،

(١) طبقات ابن الأنباري ، ص ٨١ .

(٢) انظر المزهر ١ / ١٦٧ .

ومن مخالفة القياس اللغوى . »[1] وزاد بعضهم في شروط الفصاحة خلوصه من الكراهة في السمع ، بأن يمج الكلمة وينبو عن سماعها . . .

ومثال ذلك قول المتنبي :

كريم الجِرِشّى شريف النَّسبَ .

أي كريم النفس[2]

ثانياً : التميز بين ما هو من كلام العرب من ناحية ، وما روّى عنهم وليس من كلامهم من ناحية أخرى .

وقد كان نتيجة تقادم العهد بالعرب ، واختلاف بعض الأعراب الذين أخذ عنهم للأخبار ، ثم نتيجة المنافسة الشديدة بين علماء اللغة ، وبخاصة إذا احتكم إليهم في مجالس الخلفاء في موضوع ما ، ثم نتيجة الصراع الشديد بين البصريين والكوفيين ، أن ظهرت في اللغة ألفاظ غريبة لم يعرف لها مصدر . ومن ثم فقد عكف العلماء على تخليص اللغة من هذه الألفاظ ، وظهرت لهم في ذلك أبحاث كثيرة ، منها على سبيل المثال لا الحصر ، ما كتبه السيوطى في المزهر تحت عنوان : « ما روى من اللغة ولم يصح ولم يثبت » ، وما كتبه المبرد في كتابه « الكامل » تحت عنوان : « أكاذيب العرب . » وسوف نشير إلى ما ألف في هذا الموضوع وفي غيره عند حديثنا عن المرحلة السابقة على تأليف المعاجم .

ثالثاً : البحث في الألفاظ العربية القديمة والإسلامية والمولدة .

فقد كان من الطبيعي أن تزداد ثروة اللغة العربية بعد أن تكونت الدولة الإسلامية واتسعت رقعتها . ويتنوع الرصيد الذي أضيف إلى اللغة المتوارثة بين

---

(١) المزهر ١ / ١٨٢ .
(٢) نفسه ١ / ١٨٦ / ١٨٧ .

ألفاظ إسلامية وألفاظ مولدة . ومن ثم فقد عكف العلماء على دراسة هـــذا الرصيد الجديد الذي أضيف إلى اللغة القديمة .

رابعا : البحث من النوادر والأضداد :

وهما موضوعان أثارهما البحث في اللغة العربية القديمة . فاللفظ قد يستعمل من المعنى ونقيضه ، مثل لفظ « جلَل » ؛ فهو قد يعني الحدث الهين وقد يعني الحدث الفادح . وربما يرجع هذا إلى اختلاف لغات القبائل، وربما يرجع إلى أسباب لغوية أخرى . ومن ثم فقد عكف العلماء على جمع مثل هذه الألفاظ وتدوينها في كتب عرفت بكتب الأضداد . وبالمثل احتوت اللغة العربية على ألفاظ لم يُشك في أصلها العربي ولكنها وردت في قلة . وقد حصرت هذه الألفاظ كذلك ، وألفت فيها كتب بلغت في القرن الثالث وحده ما يربو على العشرين كتابا . وقد أثبتها ابن النديم في فهرسه [1] .

(و) والآن ينبغي لنا أن نشير إلى رواد كل جيل من أجيال علماء اللغة في إبان ازدهار عصر التأليف فيها .

وقد كان الرائد الأول في الدراسات اللغوية والنحوية باعتراف الجميع هو أبو الأسود الدؤلي . وقد أخذ عنه أقطاب الجيل الأول وهم : يحيى بن معمر ، وعنبسة الفيل . وميمون بن الأقرن . ونصر بن عاصم .

وبرز من الجيل الثاني عيسى بن عمر الثقفي (ت ١٤٩ هـ) ومعاصره أبو عمرو بن العلاء .

أما الجيل الثالث فكان على رأسه الخليل بن أحمد (ت ١٧٠ هـ) ، ويونس بن حبيب (ت ١٨٣ هـ) .

وفي الجيل الرابع برز الكسائي (ت ١٩٧ هـ) ، والنضر بن شميل

---

(١) انظر الفهرست ص ١٣٦ .

(ت ٢٠٣ هـ) ، وقطرب (ت ٢٠٦ هـ) ، وأبو عبيدة (ت ٢١١ هـ) ، وأبو زيد الأنصاري (ت ٢١٥ هـ) ، والأصمعي (ت ٢١٧ هـ) ، وأبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) .

وقد أتى بعد هؤلاء جيل لاحق ، كان على رأسه أبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥ هـ) ، والمبرد (ت ٢٨٥ هـ) ، وابن دريد (ت ٣٢١ هـ) .

على انه اتفق على أن العصر العباسي قد جمع بين « ثلاثة هم أئمة الناس من اللغة والشعر وعلوم العرب ، لم ير قبلهم ولا بعدهم مثلهم ؛ عنهم أخذ جل ما في أيدي الناس من هذا العلم بل كله ، وهم : أبو زيد الأنصاري ، وأبو عبيدة ، والأصمعي »(١) .

ولكل من هؤلاء العلماء الثلاثة كتب في كافة الموضوعات اللغوية ، سواء التي ذكرناها . أو التي سنذكرها وشيكا .

(٢)

(أ) كانت العناية باللغة تسير ، منذ بداية الاهتمام بها ، في طريقين متوازيين : طريق يهتم بتركيب الجملة ، أي بوضع الكلمة في الجملة ، وهم النحويون ، وطريق آخر يهتم بالكلمة في حد ذاتها ، وهؤلاء هم اللغويون . ولقد ميز علماء العرب أنفسهم بين الفريقين ، كما أنهم فهموا أن العناية باللغة تعني البحث في الكلمة ودلالتها . ويتضح هذا الفهم من قول أبي الطيب اللغوي في تصنيفه لبعض علماء اللغة من حيث درجة الاجتهاد : « كان أبو زيد أحفظ الناس للغة . وكان الأصمعي يجيب في ثلث اللغة . وكان أبو عبيدة

---

(١) المزهر ٢ / ٤٠١ .

يجيب في نصفها ، وكان أبو مالك يجيب فيها كلها »[1] .

وإلى جانب اصطلاح اللغة ظهر في القرن الرابع اصطلاح آخر هو فقه اللغة . وأول من ألف تحت هذا العنوان ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) . ثم ألف الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) كذلك من بعده كتابه من « فقه اللغة » . على أن البحث في هذين الكتابين لم يتجاوز حد البحث من الألفاظ ودلالتها .

(ب) وعندما شرع العلماء من جمع اللغة من مصادرها الأصليه ، شغلوا في بداية الأمر بالتمييز بين أرباب اللغة الفصيحة وبين غيرهم . ومن ثم فقد استبعدوا القبائل المتاخمة لأهل الحضارة ؛ مثل قبيلتي لخم وجذام ، ولم يأخذوا عنها . وكذلك كانوا يمتحنون الأعرابي الذي ينتمي إلى قبيلة فصيحة اللسان ليتأكدوا من سلامة لسانه . فإذا اطمأن العالم إلى الناقل ، شرع في الأخذ عنه كل ما يتطرق إليه الكلام ، دون التقيد بموضوع بعينه .

فلما انتهى زمن البحث الميداني فيما بعد ، وغلبت على العلماء النزعة إلى التصنيف والتنظيم ، أخذ كل عالم يجمع مادته في الموضوع الذي يود التصنيف فيه ، كأن يكون موضوع الأنواء أو الخيل أو النوادر إلى غير ذلك . وإلى جانب هذا لم يكتف جامعو الشعر بجمعه ، بل كانوا يأتون بشرح مجمل لكل قصيدة في نهايتها . حتى جاء الأخفش الأكبر فاتبع طريقة جديدة في شرح الشعر ، إذ قام بشرح كل بيت على حدة ، شرحا لغويا ونحويا[2] . وقد أفاد من هذا النظام مؤلفو المعاجم فيما بعد .

هذه المادة الهائلة التي جمعها علماء اللغة في كتبهم ، صبت فيما بعد في التأليف المعجمي . حقا ان الخليل بن أحمد كان قد ألف كتابه « العين » في

---

(١) المزهر ٢ / ٤٠٢ – (وأبو مالك هذا هو أبو مالك عمرو بن كوكرة ، أحد الأعراب الفصحاء ، وقد أخذ عنه الخليل وغيره ، ويقال إنه كان يحفظ اللغة كلها وله من الكتب كتاب خلق الإنسان وكتاب الخيل (انظر الفهرست ص ٧٢) .

(٢) د . حسين نصار : المعجم العربي – ط دار مصر للطباعة – جـ ١ ص ٣١ .

زمن مبكر قبل أن يظهر معظم هذه الأعمال اللغوية . ولكن تأليف الخليل بن أحمد لكتابه يعد طفرة وسابقا لأوانه . ولم يأخذ المعجم في الحقيقة شكلا مكتملا إلا بعد أن تمت تلك المحاولات المفردة لاستقصاء المفردات اللغوية ومعانيها في كثير من الموضوعات .

(ج) ونحاول الآن أن نتحدث عن هذه الموضوعات بشيء من التفصيل .

أولا : البحث في غريب القرآن والحديث :

لم يتأخر التصنيف في غريب القرآن عن النصف الأول من القرن الثاني ؛ باستثناء الكتاب الذي يعزى إلى ابن عباس ويرجح أن يكون العلماء قد دونوا فيه رواياته في تفسير القرآن بعد وفاته [1] . وأول كتاب ألف بعد ذلك في غريب القرآن هو كتاب أبي سعيد بن تغلب بن رباح البكري (ت ١٤١ هـ) . ولكن هذا الكتاب لم يصل إلينا ، ومن ثم فنحن لا نعرف شيئا عن منهجه . أما الكتاب الذي وصل إلينا في القرن الثالث فهو « غريب القرآن » لابن قتيبة . وهو يفسر ألفاظ القرآن في سورها. كذلك وصل إلينا من القرن الرابع كتاب « نزهة القلوب » ، وفيه تشرح الألفاظ الغريبة مرتبة وفقا للحرف الأول منها دون التزام بترتيب الحروف التالية له .

وهناك دراسات أخرى اتجهت إلى معاني القرآن . وممن ألف في هذا الموضوع أبو عبيدة وابن الأنباري والمبرد وغيرهم ممن ذكرهم ابن النديم [2] . كذلك ألف الأصمعي وأبو زيد كتبا تحت عنوان « لغات القرآن » .

ومن أشهر ما ألف في غريب الحديث أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) . وقد نال كتابه هذا إعجاب علماء عصره ؛ الفقهاء منهم واللغويين . ومنهجه في تفسير غريب الحديث هو ذكر الحديث ، وشرح ألفاظه شرحا

---

(١) المعجم العربي ١ / ٣٩ .

(٢) الفهرست ص ٥٨ .

لغويا . وذكر مشتقاتها . والاستشهاد على كل ذلك بشواهد من القرآن والشعر . وقد سار على منهجه هذا من جاء بعده . أبي إسحق الحربي . أما كتاب الزمخشري « الفائق في غريب الحديث » فيتميز عن كتاب أبي عبيد في أنه خصّ كل حرف بكتاب وضع فيه الألفاظ التي أولها هذا الحرف ، ثم رتب الألفاظ من فصول وفقا للحرف الثاني .

ثانيا : البحث في المعرب والدخيل :

سبق أن ذكرنا أن علماء اللغة أقروا لبعض القبائل بالفصاحة وأنكروها على بعضها الآخر . ومن ثم فقد كانوا اذا سئلوا عن شيء من كلام هذه القبائل الأخيرة قالوا هذه لغة . أو هذه لهجة . أما الألفاظ الأجنبية التي دخلت في اللغة العربية فقد سموها المعرّب والدخيل . وإلى هذا يشير نص ابن حيان في الارتشاف بقوله : « الأسماء الأعجمية على ثلاثة أقسام . قسم غيرته العرب وألحقته بكلامها . فحكم أبنيته في اعتبار الأصلي والزائد والوزن حكم أبنية غيره . وقسم غيرته ولم تلحقه بأبنية كلامها ، فلا يعتبر فيه ما يعتبر في القسم الأول الذي قبله ، نحو آجر وسِفْسِير . وقسم تركوه غير مغيّر ؛ فما لم يلحقوه بأبنية كلامهم لم يُعَدّ منها ، وما ألحقوه بها عد منها . مثال الأول خراسان . لا يثبت به فعالان . ومثال الثاني خُرَّم ، ألحق بسُلّم ، وكُرْكُم ، ألحق بقمقم » [1] .

وربما كان أول من عني بالبحث في المعرَّب أبو عبيد القاسم بن سلام ؛ فقد أفرد له فصلا في كتابه « الغريب المصنف » تحت عنوان « ما دخل من غير لغات العرب في العربية » . وكذلك كتب فيه ابن قتيبة في كتابه « أدب الكاتب » . كما ألف أبو زيد كتابا تحت عنوان « غريب الأسماء » ، وأفرد له ابن دريد مكانا في جمهرته . حتى إذا كان القرن السادس الهجري ألف الجواليقي في هذا الموضوع كتابا كاملا هو كتاب « المعرّب من الكلام

(١) المزهر ١ / ٢٦٩ .

الأعجمي » . وقد تأثر الجواليقي في كتابه هذا بفكرة الخليل بن أحمد في التمييز بين الألفاظ الفصيحة والألفاظ الدخيلة على أساس جرس الألفاظ . فالألفاظ التي تجتمع فيها الجيم والقاف ، أو الصاد والجيم ، أو النون والراء تالية لها ، أو الدال والزاي تالية لها ، أو الباء والسين والتاء ، والألفاظ الرباعية والخماسية الخالية من حروف الزلاقة تكون من الألفاظ الدخيلة (٢) .

وإلى جانب الألفاظ الدخيلة التي شغل العلماء بالبحث فيها ، كانت هناك الألفاظ العربية التي حورها استعمال العامة فخرجت عن أصولها العربية . وقد اهتم العلماء ببحث هذا الجانب كذلك وسموه « لحن العوام » أو « لحن العامة » . وهناك كتب في هذا الموضوع تنسب لأبي عبيدة والأصمعي والمازني وأبي حاتم السجستاني وأبي عبيد القاسم بن سلام . ومن الكتب التي وصلتنا في هذا الموضوع هي كتاب لحن العامة للكسائي ، وكتاب درة الغواص للحريري ، وإصلاح المنطق لابن السكيت . وهذه الكتب جميعا تنفرد بميزة خاصة لم تشاركها فيها المعاجم الكبيرة ، وهي تصويرها للغة الحية المرتبطة بحياة الناس في الأقاليم .

ثالثا : كتب النوادر :

وما أكثر الكتب التي ألفت في موضوع النوادر اللغوية . وهي الكتب التي تبحث في الألفاظ العربية غير المألوفة . وأول من ألف في هذا الموضوع أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٧ هـ) ، ثم ألف بعده القاسم بن معن الكوفي (ت ١٧٥ هـ) ويونس بن حبيب (ت ١٨٢ هـ) والكسائي (ت ١٩٨ هـ) . أما في القرن الثالث فقد ألف في هذا الموضوع ما يربو على عشرين كتابا ، من بينها كتب أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد .

رابعاً : كتب الصفات :

ونعني بها الكتب التي تحمل هذا العنوان ، مثل « صفة الخيل » ، و « صفة

---

(٢) المعجم العربي ١ / ٧١ .

الإبل » . وقد ذكر ابن النديم « كتاب الصفات » . للنضر بن شميل ووصفه بقوله : « وهو كتاب كبير يحتوي على عدة كتب (في خمسة أجزاء) . الجزء الأول يحتوي على خلق الانسان والجود والكرم وصفات النساء. والجزء الثاني يحتوي على الأخبية والبيوت وصفة الجبال والشعاب والأمتعة . والجزء الثالث للإبل فقط . والجزء الرابع يحتوي على الغنم والطير والشمس والقمر والليل والنهار والألبان والكمأة والآبار والحياض والأرشية والدلاء وصفة الخمر . والجزء الخامس يحتوي على الزرع والكرم والعنب وأسماء البقول والأشجار والرياح والسحاب والأمطار »[1] .

ولأبي زيد في ذلك كتاب النبات والشجر ، وكتاب الوحوش ، وكتاب نعت الغنم . ولأبي عبيدة كتاب الإبل ، وكتاب الخيل . وسنتناول هذا الكتاب الأخير فيما بعد بشيء من التفصيل .

(ج) تأليف المعاجم – المدرسة الأولى :

مما لا شك فيه أن الخليل بن أحمد كان أول من تمثل نظرية المعجم تمثلا كاملا حين صنف كتابه المسمى بالعين .

ولقد أتم هذا العمل في زمن مبكر قبل أن يتم جمع اللغة بطريقة شاملة ، وتصنيفها في الموضوعات التي سبق ذكرها . وقد كانت هذه أول مرة يواجه فيها عالم لغوي قديم مشكلة البحث عن شكل لمعجمه . ولا بد أنه استعرض لنفسه أكثر من شكل لهذا المعجم . يقول ابن كيسان : « سمعت من يذكر الخليل أنه قال : لم أبدأ بالهمزة لأنها يلحقها النقص والتغيير والحذف . ولا بالألف لأنها لا تكون في ابتداء كلمة ولا اسم ولا فعل إلا زائدة أو مبدلة ، ولا بالهاء لأنها مهموسة خفية لا صوت لها . فنزلت إلى الحيز الثاني وفيه العين والحاء . فوجدت العين أفصح الحرفين . فابتدأت به ليكون أحسن في التأليف . وليس العلم

---

(١) الفهرست ص ٨٣ .

بتقدم شيء على شيء . لأنه كله مما يحتاج إلى معرفة . فبأي بدأت كان حسنا . وأولاها بالتقديم أكثرها تصرفا »[1] .

ويفهم من هذا الكلام أمران : أولهما ، أن الخليل لم يفكر ، بادىء ذي بدء ، في أن يرتب معجمه وفقا للترتيب الأبجدي المعروف ، ولو أنه فكر في ذلك ، لما أجهد نفسه في البحث عن نظام مبتكر لمعجمه . وثانيهما ، أنه عندما أجال النظر في الحروف الأبجدية . نظر اليها من الناحية الصوتية . أي من ناحية مخارجها من الحلق . ولم يكن هذا التفكير غريبا على الخليل بن أحمد الذي عرف بحسه الموسيقي ؛ فهو الذي حصر موسيقى الشعر العربي فيما سماه العروض . وهو الذي ألف كتابا في النغم — كما يقول ابن النديم[2] .

ومهما يكن من أمر فقد انتهى الخليل إلى أن يرتب معجمه وفقا لمخارج الحروف مبتدئا بأبعدها خروجا من الحنجرة وهو العين . ومنتهيا بما يخرج من الشفتين . فكان ترتيب معجمه على النحو التالي : ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط ت د ظ ذ ث ر ل ن ف ب م و ي ا ء .

ولما استقام له الأمر على هذا النحو جعل لكل حرف كتابا ؛ فكتاب في العين ، وكتاب في الحاء ، وكتاب في الهاء . وهكذا . ثم سمى كتابه « العين » لأنه الحرف الذي بدأ به . وكان على الخليل بعد ذلك أن يستقصي الأبنية . ولم يجد مشقة في ذلك ؛ حيث إن الصرفيين كانوا قد حصروها من قبل ؛ فهي إما ثنائية أو ثلاثية أو رباعية أو خماسية . ومن ثم فقد اشتمل كل كتاب من كتبه على هذه الأبنية ، أي أنه كان يستقصي المفردات التي تبدأ بهذا الحرف في هذه الأبنية .

ثم فكر الخليل بعد ذلك من الصيغ المختلفة للفظ عن طريق تقليب حروف

---

(١) المزهر ١ / ٩٠ .
(٢) الفهرست ٧١ .

الكلمة الواحدة من تقليباتها المختلفة ، فصَبَدَ مثلا ، يأتي منها بَعَدَ وبَدَعَ وعَدَبَ ودَعَبَ وَدَبَعَ . وقد فعل هذا في كل الأبنية . ولما أدرك أن هذه التقليبات ليست سوى نظام نظري . فقد نص على ما هو مستعمل في اللغة من هذه التقاليب وما هو غير مستعمل .

وقد عنى الخليل في معجمه عناية بالغة بلغات العرب . وقد سمى منها ثلاث لغات هي : عنعنة تميم ، وكشكشة ربيعة ، وقطعة طيء ، كما أشار إلى لغات هذيل وتميم واليمن ، بل أورد كثيرا من لغة المعاصرين له في العراق (١) .

وإلى جانب هذا عنى الخليل لأول مرة بالاشتقاق ، إذ كان سابقوه يهتمون بحصر الألفاظ في موضوعات . فلم يكن الخليل يأتي بالفعل إلا أعقبه المصدر . يقول : جدعه أجدعه جدعا . ونعق الغراب نعاقا ونعيقا . وكان يذكر إلى جانب المصدر الصفات فيقول : كعر الصبي كعرا فهو كَعِر . ويقول : لكع الرجل يلكع لكعا ولكاعة ، فهو ألكَعُ ، ولُكَعٌ ، ولكِيع . ولَكَاعٌ ، ومِلكعان ، ولكوع .

ومن الطبيعي أن يتعرض أول معجم يؤلف لمآخذ اللغويين ومؤلفي المعاجم فيما بعد . ومن أهم ما أخذ على « العين » التصحيف والخطأ في الاشتقاق . وفي هذا يقول السيوطي : « وقد طالعته (أي كتاب العين) إلى آخره . فرأيت وجه التخطئة فيما خطىء فيه غالبه من جهة التصريف والاشتقاق . كذكر حرف مزيد في مادة أصلية ، أو مادة ثلاثية في مادة رباعية ، ونحو ذلك . وبعضه ادّعي فيه التصحيف ، وأما أنه يُخَطأ في لفظة من حيث اللغة بأن يقال : هذه اللفظة كذب ، أو لا تُعرف . فمعاذ الله . لم يقع ذلك » (٢) .

وعلى الرغم من تلك المآخذ وغيرها ، فقد كان لكتاب العين قيمة خاصة

---

(١) انظر : المعجم العربي ١ / ٢٥٦ .
(٢) المزهر ١ / ٨٦ .

لدى علماء اللغة ومؤلفي المعاجم الذين جاءوا بعده ؛ فلم يخل كتاب في اللغة أو معجم من الإشارة إليه ، وكثير من اللغويين ومؤلفي المعاجم أوردوا كلامه نصاً . وسنرى فيما بعد إلى أي حد أفاد منه ابن جني ، العالم اللغوي الأكبر ، في كتابه « الخصائص » .

وقد سار على منهج الخليل في ترتيب الحروف حسب مخارجها ، القالي في معجمه المسمى « البارع » . على أنه أحدث تغييرا في أبنية الخليل فجعلها ستة بدلا من أربعة . ورتبها على النحو التالي : الثنائي المضاعف . الثلاثي الصحيح ، الثلاثي المعتل ، الحواشي أو الأوشاب . الرباعي . الخماسي . وفضلا عن ذلك فقد أضاف إلى معجمه كثيرا من المواد التي لم ترد في كتاب العين ، كما أضاف كثيرا من الشواهد .

ومن المعاجم التي سارت كذلك على منهج الخليل الأزهري في « التهذيب ». ويتميز هذا المعجم بفحصه الشديد لمواده وتصفيتها حتى يضمن فصاحتها . ومن هنا كانت تسمية هذا المعجم بالتهذيب .

ومن المعاجم التي تعد من مدرسة الخليل كذلك . معجم « المحيط » للصاحب بن عباد ، و « المحكم » لابن سيدة .

المدرسة الثانية :

وتضم هذه المدرسة ثلاثة معاجم هي : « الجمهرة » لابن دريد (ت ٣٢١هـ) و « مقاييس اللغة » ، و « المجمل » لابن فارس (ت ٣٩٥). وقد لجأت هذه المدرسة إلى نظام آخر في ترتيب الحروف غير نظام المخارج الصوتية . وهذا النظام هو ترتيب الكلمات وفقا لترتيب الحروف الأبجدية . ويشير عنوان معجم ابن دريد إلى هدف صاحبه الذي أفصح عنه في مقدمته ؛ حيث قال : « وإنما أعرناه هذا الاسم لأننا اخترنا له الجمهور من كلام العرب . وأرجأنا الوحشي المستنكر » [1] . أما معجم المقاييس فيهدف . كما يتضح كذلك من

---

(١) ابن دريد : جمهرة اللغة – دار صادر ببيروت – ص ٤ .

عنوانه ، إلى البحث عن أصول الألفاظ ومقاييسها بقصد البحث عن المعنى المشترك في جميع صيغ المادة . وأما المعجم الثاني لابن فارس وهو « المجمل » . فيهدف إلى إيراد معاني الألفاظ دون الإكثار من الاستطراد والشواهد والحشو (ولهذا فقد سمى « المجمل ») . كما أنه استبعد من ألفاظه الغريب وغير الصحيح .

المدرسة الثالثة :

ورأس هذه المدرسة هو الجوهري ، صاحب معجم « الصحاح » . وقد أتبع الجوهري في هذا المعجم نظاما آخر يخالف معاجم المدرستين الأولى والثانية معا . ويقوم نظامه على الترتيب الأبجدي لأواخر الكلمات . ومعنى هذا أنه قسم معجمه إلى ثمانية وعشرين بابا على عدد الحروف الأبجدية ؛ فباب لما آخره الهمزة ، يليه باب لما آخره الباء ، فباب لما آخره التاء وهكذا . ثم قسم كل باب من هذه الأبواب إلى فصول تبعا للحرف الأول من اللفظ . فباب الهمزة يحتوي على فصل الهمزة ، يليه فصل الباء إلى آخره . ويحتوي هذا المعجم على كثير من الأحكام الصرفية والنحوية كما أنه لم يستبعد المعرّب والمولد * .

وفي القرن السابع ظهر معجم ابن منظور المسّمى « لسان العرب » . الذي اتبع فيه منهج الصحاح في الترتيب والاستقصاء ، وإن كان قد أكثر من المترادفات والنوادر والشواهد من القرآن والحديث .

ثم ظهر من بعد « لسان العرب » معجم « القاموس المحيط» . للفيّروزبادي . وكان هم المؤلف فيه جمع المادة واستقصاءها واستدراك ما فات « الصحاح » .

وفي القرن الثاني عشر الهجري ألف الزبيدي معجم الكبير المسمى « تاج العروس من جواهر القاموس » ، فتوج بذلك محاولات التأليف المعجمي ، لأنه يعد في الحقيقة أكبر وأشمل معجم .

---

* سنفرد لكل منَ هذه المعاجم حديثا خاصا .

(د) معاجم المعاني :

تعد الكتب أو الرسائل التي ألفت حول موضوع بعينه ، مستقصية الألفاظ التي تتصل بهذا الموضوع ، مثل كتاب المطر ، وكتاب خلق الإنسان ، إلى غير ذلك — تعد بداية التأليف في معاجم المعاني .

ثم تطور التأليف في هذا النوع من المعاجم بحيث أصبح المعجم يشتمل على أكثر من موضوع . ومن أهم الكتب التي وصلت الينا من هذه المرحلة كتاب « الألفاظ » لابن السكيت ، ويحتوي على مائة وخمسين بابا ، يضم كل باب منها الألفاظ المتصلة بموضوع بعينه . فباب في الطول ، وباب في القصر ، وباب في الجوع ... وهكذا .

ثم حذا عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني في معجمه المسمى « الألفاظ الكتابية » حذو ابن السكيت [1] . وواضح من العنوان أن المؤلف شاء أن يزود الكاتب بما يعينه على الكتابة في موضوع معين .

ثم خطا التأليف من معاجم المعاني خطوة ثالثة تمثلت في العناية بالترتيب وشمول المادة . ومن أهم ما يمثل هذه المرحلة كتاب « فقه اللغة » للثعالبي . و « المخصص » لابن سيدة .

وينقسم « فقه اللغة » إلى ثلاثين بابا ، وكل باب ينقسم إلى فصول . فإذا كان الباب يتناول موضوع الأصوات مثلا ، تفرعت الفصول حول موضوعات الأصوات ؛ ففصل في الأصوات الخفية ، وفصل في أصوات الخيل ، وفصل في أصوات السباع ، إلى غير ذلك .

أما « المخصص » فقد جمع فيه صاحبه كل ما ألف قبله من موضوعات ظهرت في شكل رسائل أو كتب ، ومن ثم فهو يعد أضخم معجم في المعاني . وقد قسم ابن سيدة معجمه إلى موضوعات كبيرة بدأها بالإنسان وغرائزه ولباسه وطعامه ثم انتقل إلى الحيوان فالنبات فالظواهر الطبيعية .

---

(١) أمجد الطرابلسي : حركة التأليف عند العرب ، ص ٥١ .

الفصل الأول

مصادر لغوية

١ - كتاب الخيل

لأبى عبيده معمر بن المثنى

كتاب الخيــل

لأبي عبيدة مَعْمر بن المُثَنّى

(ا) : هو أبو عبيدة معمر بن المثنى التيميّ ، كان مولى لبني عبد الله ابن معمر التيمي . وذكر أبو بكر الخطيب أنه ولد سنة عشر ومائة في الليلة التي مات فيها الحسن البصري [1] . ويقال إن جده كان يهوديا ، فقد قال له رجل : « يا أبا عبيدة ، قد ذكرت الناس وطعنت في أنسابهم ، فبالله إلا ما عرفتني من أبوك ، وما أصله . فقال : أخبرني أبي أن أباه كان يهوديا » .[2] وقد ذكر الصولي أنه توفي في عام ٢٠٧ هـ ، وقيل ٢٠٩ ، أو ٢١١ ، أو ٢١٣ هـ [3] .

(ا) — ١ : وقد عرف أبو عبيدة بنزعته الشعوبية وميله إلى التشنيع على العرب. يقول ابن النديم إنه « عمل كتاب المثالب الذي كان يطعن فيه على بعض أسباب النبي صلى الله عليه وسلم » . كما يقول عنه إنه كان « مدخول الدين مدخول النسب » [4]

---

(١) طبقات ابن الأنباري ، ص ٨٥

(٢) نفسه .

(٣) نفسه ، ص ٩٠ .

(٤) الفهرست ، ص ٨٥ .

ولهذا فإن الكتب التي ألفها أبو عبيدة حول القرآن والحديث لم تكن موضع ثقة . ويقال إنه أول من ألف في غريب الحديث ، ولكن أخذ عليه أنه أورد أحاديث لا أصل لها [1] . ثم ألف بعد ذلك في مجاز القرآن وغريب القرآن . وهناك رواية تروى عن سبب تأليفه لهذا الكتاب ، تتلخص في أن الفضل بن سهل أرسل في طلب أبي عبيدة من البصرة ، فلما قدم عليه سأله عن قوله تعالى : « طلعها كأنه رءوس الشياطين » وقال له : « إنما يقع الوعد والإيعاد (يعني في القرآن) بما قد عرف مثله . وهذا لم يعرف » . فقال له أبو عبيدة : « إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرىء القيس :

أتقتلني والمَشْرَفِيُّ مُضاجعي ومَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأنياب أغْوالِ

وهم لم يروا الغول قط ؟ ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوْعَدوا به . فاستحسن الفضل ذلك » . وقد قال أبو عبيدة فيما بعد : « واعتقدت من ذلك اليوم أن أضع كتابا في القرآن في مثل هذا وأشباهه ، وما يحتاج إليه من علمه . فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سميته المجاز » [2]

وقد طُعن في كتابه هذا ، فقال الفراء : لو حُمل إليّ أبو عبيدة لضربته عشرين في كتاب المجاز » [3] . كما عابه الأصمعي وقال : « يفسر ذلك برأيه » [4]

وبدافع الشعوبية كذلك ، كان أبو عبيدة يعبر عن آراء تنتقص من شأن العرب وتراثهم . فقد كان على رأس الذين نادوا بأن القرآن تكثر فيه الألفاظ الأعجمية ، وذلك على الرغم من قوله تعالى : « إنّا جعلناه قرآنا عربيا » [5]

---

(١) المعجم العربي ١ / ٥١ .

(٢) طبقات ابن الأنباري ، ص ٨٦ – ٧ .

(٣) طبقات ابن الأنباري : ص ٨٧ .

(٤) نفسه .

(٥) المعجم العربي : ١ / ٧٢ .

ثم إنه كان ينكر على العرب بعض فنونهم وينسبها أصلا للفرس . فقد قال المبرد : « حدثني سليمان بن عبد الله عن أبي العَمَيْثَل مولى العباس بن محمد ، قال : تكاذب أعرابيان . فقال أحدهما : خرجت مرة على فرس لي ، فإذا أنا بظلمة شديدة ، فيممتُها حتى وصلت إليها ، فإذا قطعة من الليل لم تنتبه . فما زلت أحمل عليها بفرسي حتى أنبهتها فانجابت . فقال الآخر : لقد رميت ظبيا مرة بسهم ، فعدل الظبي يمنة فعدل السهم خلفه ، فتياسر الظبي فتياسر السهم ، ثم علا الظبي فعلا السهم خلفه ، ثم انحدر فانحدر حتى أخذه . قال : وحدثني التوزي قال : سألت أبا عبيدة عن مثل هذه الأخبار من أخبار العرب ، فقال : إن العجم تكذب أيضا فتقول : كان رجل نصفه من نحاس ونصفه من رصاص ، فتعارضها العرب بهذا وما أشبهه »[1] .

(أ)– ٢ : وعلى الرغم من هذا فقد كان أبو عبيدة يتمتع بمكانة مرموقة بين علماء عصره ، لكثرة ما حفظ واستوعب من العلوم العربية . يقول عنه الجاحظ : « وممن كان يرى رأي الخوارج أبو عبيدة النحوي معمر بن المثنى ، مولى تيم بن مرة . ولم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلم منه »[2] . ويقول عنه ابن الأنباري : « وكان أبو عبيدة أعلم الناس باللغة وأخبار العرب وأنسابها ، وله في ذلك مصنفات ، كمقاتل الفرسان وغيره »[3] . وقد عُدّ أبو عبيدة أحد الأفراد القلائل الذين كان يصح أخذ الرواية عنهم ، وإن انفرد بروايته ، على شرط ألا يخالفه فيها من هو أكثر منه عددا[4] .

وقد أخذ أبو عبيدة علمه باللغة عن أبي عمرو بن العلاء ، وأبي الخطاب الأخفش ، ويونس بن حبيب ، وجماعة من ثقات الأعراب . كما روى عنه

---

(١) المزهر : ٢ / ٥٠٥ .
(٢) البيان والتبيين : ١ / ٣٤٧ .
(٣) طبقات ابن الأنباري ، ص ٨٥ .
(٤) انظر المزهر ١ / ١٢٩ .

علي بن المغيرة الأثرم . وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وأبو عثمان المازني . وأبو حاتم السجستاني وغيرهم .

(ب) : كان موضوع الخيل من الموضوعات المحببة إلى علماء اللغة ، فقد ألف في موضوع الخيل قبل أبي عبيدة . أبو مالك عمرو بن كركرة . والنضر بن شميل . وابن هشام الكلبي . وأبو عمرو السيباني . وقطرب ، كما كتب فيه معاصره الأصمعي (١) .

ويرجع اهتمام علماء اللغة بموضوع الخيل بصفة خاصة . إلى ما وجدوه لدى العرب في هذا الموضوع من ثروة لغوية وأدبية كبيرة . إذ كانت الخيل أكثر ما كان يعتز به العربي . يقول أبو عبيدة في مقدمة كتابه : « لم تكن العرب في الجاهلية تصون شيئا من أموالها ولا تكرمه . صيانتها الخيل وإكرامها لها . لما كان لهم فيها من العز والجمال والمنعة والقوة على عدوهم ، حتى إن كان الرجل من العرب ليبيت طاويا ويشبع فرسه ويؤثره على نفسه وأهله وولده . فيسقيه المحض ويشربون الماء القراح ، ويعير بعضهم بعضا بإذالة الخيل وهزالها وسوء صيانتها . ويذكرون ذلك في أشعارهم » (٢) .

وقد عرف أبو عبيدة . بعد تأليفه كتابه . بتخصصه في موضوع الخيل . فقد روى عنه أنه قال : « أدخلت على الرشيد فقال لي : يا معمر بلغني أن عندك كتابا حسنا في صفة الخيل أحب أن أسمعه عنك . فقال الأصمعي : وما تصنع بالكتاب ؟ يحضر فرس ونضع أيدينا على عضو عضو ونسميه ، ونذكر ما فيه . فقال الرشيد : يا غلام أحضر فرسي ، فقام الأصمعي فوضع يده على عضو عضو ويقول : هذا كذا ، قال الشاعر فيه كذا ، حتى انقضى قوله . فقال الرشيد : ما تقول فيما قال ؟ قلت : قد أصاب في بعض وأخطأ

---

(١) المعجم العربي : ١ / ١٢٦ .

(٢) أبو عبيدة معمر بن المثنى : كتاب الخيل – نشر بعناية الشيخ سالم الكرنكوي ، حيدر أباد ١٣٥٨ هـ – ص ٢ .

في بعض . والذي أصاب فيه شيء تعلمه ، والذي أخطأ فيه لا آدري من أين أتى به » [1] .

(جـ) : وقد بدأ أبو عبيدة كتابه بمقدمة تاريخية يستعرض فيها أهمية الخيل في العصر الجاهلي وفي الاسلام . فقد كانت الخيل في العصر الجاهلي رمز العزة والمنعة والقوة ، وزاد تقدير العربي لها بعد الإسلام، بعد أن أصبحت وسيلته الأولى في الحروب الإسلامية . فقد قال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » . وكان النبي عليه الصلاة والسلام يسهم للفرس سهمين وللرجل سهما واحدا من الغنائم [2] . ويروي أبو عبيدة حديثا للنبي صلى الله عليه وسلم ويرفعه إلى عبد الله بن دينار ، فيه : « مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه فرسه بثوبه وقال : إن جبريل بات يعاتبني الليلة في إذالة الخيل. » [3] كما ذكر حديثا آخر رفعه إلى أبي عطاء هو قوله صلى الله عليه وسلم : « الغنم بركة موضوعة ، والإبل جمالها لأهلها ، والخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة » [4] .

ويسترسل أبو عبيدة في ذكر الأحاديث النبوية التي رويت في الخيل ، ثم يذكر بعد ذلك نماذج من الشعر العربي في الخيل كذلك .

ويقسم أبو عبيدة كتابه بعد ذلك إلى موضوعات ، فموضوع في وصف جميع أجزاء جسم الفرس حتى أدقها ، مشيرا بذلك إلى الألفاظ التي أطلقها العرب على كل جزء . يقول في رأس الفرس مثلا : « في الرأس ذؤابته وناصيته وعصفوره وقونسه وقَذَاله وفقهته ، وهامته ، وقُمَحْدُوَتُه ، وخُلَيقَاؤُه ، وفراشه ، وجبهته ، وجبينه ، ومحياه ، ولطامه ، ووقباه ، ولَخْصَتَاه ، وحجاباه ، وعيناه » [5] .

---

(١) طبقات ابن الأنباري ، ص ٨٨ .

(٢) كتاب الخيل ، ص ٥ .

(٣) نفسه .

(٤) كتاب الخيل : ص ٥ .

(٥) نفسه : ص ١٦ .

فإذا فرغ من وصف أجزاء الفرس وكأنه بيطار يُشَرِّح كل جزء فيه من الداخل والخارج . ذكر ما يكون من عيوب الخيل الخَلْقيه . وعيوبها الحادثة التي ليست من خلقتها ، وما يستدل به على جودة الفرس وجودة خلقه ، ثم ما يخالف فيه الذكر الأنثى . وأسماء الخيل . وما تستحب العرب من الخيل ، وألوان الخيل . وأسماء الدوائر التي تكون من الخيل ، وصفات الخيل . ومشى الخيل . وعيوب الخيل في جريها . ثم يخصص الجزء الأخير من الكتاب لذكر نماذج من أشعار العرب في الخيل .

وقد أخذ ناشر الكتاب عليه أنه لم يخصص فصلا للحديث عن خيل النبي صلى الله عليه وسلم . كما فعل غيره ممن كتب في هذا الموضوع . ولهذا فقد استدرك الناشر هذا النقص وألحق بالكتاب فصلا عن خيل النبي صلى الله عليه وسلم ، مستمدا معلوماته ممن كتب في ذلك .

(د) ويعد كتاب أبي عبيدة من أهم الكتب اللغوية التي ألفت في الموضوع الواحد ، فكان هو وغيره من أمثال هذه الكتب مصدرا أساسيا لمؤلفي المعاجم ، كما ذكرنا هذا سالفا .

نموذج من كتاب الخيل :

ومما يستدل به على جودة الفرس وهو محضر .

وهو أبين من هذين جميعا ان رأيته يحضر فتفرست في حضره الجودة ان تراه قد سما بهاديه واثبت رأسه واجتمعت قوائمه وكأن يديه في قرن ورجليه في قرن وبسط يديه حتّى لا يجد مزيدا في غير علو من يديه (وقبض برجليه في قرن وبسط يديه حتّى لا يجد مزيدا للحاق وحتّى كأن حافريه دفعا في رفغيه يملخ بيديه ويضرب برجليه في اجتماع كأنما يرفع بهما قائمة واحدة واشتد وقعه لها في حضره ولم يختلط فهو الجواد الكامل الخلق والجري وذلك اذا اشتدت نفسه ورحب منخراه وبهما يصير مع كمال خلقه وحسن أخذه .

قال في ذلك الاحمر بن محرث :

تدارك مسعاتي وركضي بطرفة سَبُوح اذا استعطيتُها الجري تسبحُ
ضروحٍ برجليها سبوح بصدرها كأن سنا نارٍ بدت لك تلمح
تَلَعَّبُ في أقرابها حين ترتمي حوافرُها والأمعزُ المتفلّح

قال أبو يوسف الأمعز الأرض الصلبة ذات الحصى ،والمتفلج المتشقق

وقال الشاعر وقد يحمل على أبي دواد .

صحبت مع الفجر ذا ميعة قرون اليدين شديد الضِراحْ
اذا شاء فارسه ضمّه كما ضم بازٍ إليه الجناحْ

وقال أيضا

ضروح الحماتين سبط الذراع إذا ما انتحاه خبار وثبْ

وإذا اشتد خلق الفرس اجتمعت قوائمه إذا أحضر وإن لم تنتشر وإن كان ذاوا او ملذا أو تمعّطا، غير أن افضل أخذ الحصن واكمله التمعط وذلك لتمام لينه وتسريح يديه ، وأفضل أخذ الإناث النقز والافر، وذلك لاجتماع القوائم لا تتفرق ولا تنباع بكون حضرها واحدا في اجتماع. والدليل على شدة الخلق وحسنه من الذكر والانثى اجتماع القوائم في الحضر على ما وصفت

– والدليل على خبث الخلق من الذكر والانثى تفرق القوائم وانتشارها في الحضر. واذا كان حسن الخلق شديد النفس حسن الصفة رحب المتنفس ثم لم يصبر فذلك من قطع أو علة باطنة. ويعرف ذلك منه اذا تحرك بسقوط نفسه وفترته وكلال ضرسه وانهدام جسمه واختلاط قوائمه اذا أعنق بعد التحريك، وتركه التمعك، وذلك من العجز عن نفسه. وقد يقرب الفرس فيأخذ الأخذ الحسن.

فإذا كان الغالب عليه محاسن خلقه ثم أحضر أخذ هذا الأخذ ووصف هذه الصفة من الجري في حسن الأخذ.

واذا كان الغالب عليه رداءة خلقه فان أخذه ربما اغتفر خلقه فاحسن التقريب وأخذ أخذا حسنا تجتمع فيه قوائمه ويبسط ضبعيه ويسمو بهاديه وتنكفت رجلاه. فاذا أحضر خانه رداءة خلقه فيضعف عن الحضر فتطمئن عنقه وتنتشر قوائمه وتقرب من الارض وتنبطح، فمشوار هذا الضرب من الخيل الحضر.

واذا كان الفرس منشال الخلق قبيحه فانه يسيء الاخذ في التقريب والحضر، وإن أعنق انبسط نساه واسترخت رجلاه وذلك من استرخاء حباله ونساه وسوء خلقه. ويقبح طلله في الجلال فيكون على غير ما وصفت. وإن كان عريا قائما فتأمل عظامه على ما وصفت.

وإن أردت أن تنظر إلى جري فرس لتعتبر به جودته فلا تعتبرن بشيء من الجري إلا بأعلى تقريب وأدنى الحضر على ما وصفت، فإن سواهما من الجري يختلط على صاحبه ولا يستدل به على جودته. وذلك أنه رفع عن التقريب فاجتمع واحزأل وقصر عن الحضر فلم يضطر إلى قبيح خلقه وحسنه، فتلك حال تحسن فيها كل فرس – قال المرار العدوي:

صفة الثعلب أدنى جريه وهو إن يَرْكُض فيعفور أشِرْ

وقال أيضاً

هجنا به نطويه تحت جِلاله فغلامنا يعدو كعدو الثعلب

وقال امرؤ القيس

له أيطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

٢ ـ النوادر
لأبى زيد الأنصارى

النــوادر

لأبي زيد الأنصاري

(أ) : هو أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري الخزرجي ، من الرواد الأوائل الذين أخذوا اللغة مباشرة عن العرب الفصحاء . وكان إلى جانب علمه الواسع باللغة عالماً بالنحو ، ولهذا كان يدعى أبا زيد النحوي . وربما سمي بذلك ولم يسم أبا زيد اللغوي لأنه كان يتفوق على رفيقي دربه : الأصمعي وأبي عبيدة ، اللذين قادا معه حركة جمع اللغة من مصادرها — كان يتفوق عليهما في علم النحو [1] على أن علم أبي زيد بالنحو لم يبلغ ، باعتراف العلماء ، درجة علم الخليل بن أحمد وسيبويه . [2]

(أ) — ١ : وقد أخذ أبو زيد معارفه اللغوية ، بالإضافة إلى أخذه عن الثقاة من العرب الفصحاء ، عن أبي عمرو بن العلاء ، وأبي عبيد القاسم بن سلام ، وأبى حاتم السجستاني ، وأبي الخطاب الأخفش ، ويونس بن حبيب ، وقد كان هؤلاء جميعاً عماد اللغة والنحو قبله ؛ وأصبح أبو زيد من بعدهم « أحفظ الناس للغة ... وأوسعهم رواية ، وأكثرهم أخذاً عن البادية . » [3]

(١) طبقات ابن الأنباري ، ص ٨٨ .
(٢) نفسه ، ص ١٠٢ .
(٣) المزهر ٢ / ٤٠٢ .

لا غرو بعد ذلك أن تتلمذ عليه أبو عليّ الجرمي ، وأبو إسحق بن إبراهيم اليزيدي ، وسيبويه نفسه . وقد روي عن أبي حاتم عن أبي زيد أنه قال : « كان سيبويه يأتي مجلسي وله ذؤابتان ... فإذا سمعته يقول : وحدثني من أثق بعربيته ، فإنما يريدني . »[1] وروي عن أبي زيد كذلك أنه قال : « كتب رجل من أهل رامَهُرْمُز إلى الخليل يسأله كيف يقال : ما أوقفك ههنا ومن أوقفك ؟ فكتب إليه : هما واحد . قال أبو زيد : ثم لقيني الخليل فقال لي في ذلك ، فقلت له : إنما يقال : من وقفك وما أوقفك ... فرجع إلى قولي . »[2]

وكان أبو زيد بصري المذهب ، ولكنه روى عن المفضل الضبيّ من علماء الكوفيين. وفي ذلك يقول ابن الأنباري : «وكان يروى عن علماء الكوفة. ولا يعلم أحد من علماء البصريين بالنحو واللغة أخذ عن أهل الكوفة إلا أبا زيد ، فإنه روى عن المفضل الضبي . »[3]

(أ) — ٢ : وقد أورد ابن النديم أسماء الكتب التي ألفها أبو زيد الأنصاري . وجلها يتصل بجمع اللغة في كتب مفردة ، كل منها يتناول موضوعاً معيناً . ومثال ذلك كتاب الإبل والشاء ، وكتاب المطر ، وكتاب خلق الإنسان ، وكتاب النبات والشجر ، وكتاب الغريب ، وكتاب الهمز ، وكتاب النوادر .

وقد اختلف في تاريخ وفاة أبي زيد ؛ فذكر السيوطي أنه توفي عام ٢١٤ هـ . وقيل عام ٢١٥ هـ . وقيل عام ٢١٦ هـ[4] . أما ابن الأنباري فلم يذكر لذلك سوى تاريخ واحد هو عام ٢١٥ هـ .[5]

(ب) : يعد كتاب النوادر لأبي زيد أقدم كتاب وصل إلينا في هذا

---

(١) نفسه .
(٢) نفسه .
(٣) طبقات ابن الأنباري ، ص ١٠٢ .
(٤) المزهر ٢ / ٤٦١ .
(٥) طبقات ابن الأنباري ص ١٠١ .

الموضوع . وقد جاء في بداية الكتاب : « أخبرنا أبو إسحق إبراهيم بن محمد ابن أحمد بن بسام . قال : أخبرنا أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش . قال : أخبرنا أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي ، قال : أخبرني التَوَّزي وأبو حاتم السجستاني عن أبي زيد قال — وأخبرني أبو سعيد الحسن بن الحسين البصري المعروف بالسكّري عن الرياشي وأبي حاتم عن أبي زيد . » (١)

ومعنى هذا أن الكتاب الذي بين أيدينا يجمع بين روايتين عن أبي زيد . ولهذا قد تختلف رواية عن الأخرى في ذكر الخبر في بعض الأحيان. ففي حين تذكر رواية الرياشي عن أبي حاتم نقلاً عن أبي زيد : « ما كان فيه (أي في الكتاب) من شعر القصيد فهو سماعي من المفضل بن محمد الضبيّ ، وما كان من اللغات وأبواب الرجز فذلك سماعي من العرب » . تقول الرواية الأخرى عن التَوَّزي نقلاً عن أبي زيد : « ما كان فيه من رجز فهو سماعي بن المفضل ، وما كان فيه من قصيد أو لغات فهو سماعي من العرب (٢) » .

(ج) : وينقسم الكتاب إلى خمسة عشر باباً ، بعضها في الشعر ، وبعضها في الرجز ، وبعضها في النوادر . فالباب الأول والثالث والحادي عشر في الشعر ، والباب الثاني والرابع والخامس والسابع والتاسع والثاني عشر والرابع عشر في الرجز ، وسائر الأبواب بعد ذلك في النوادر . وليس لهذا التقسيم في الحقيقة تفسير منطقي ؛ فالباب الأول في الشعر لا يتميز عن الباب الثالث والحادي عشر في الشعر في شيء . وبالمثل لا يتميز باب في النوادر أو الرجز عن الباب الآخر في شيء . وتعليلنا لهذا التقسيم هو أن أبا زيد كان يملي كتابه على حلقات ، فحلقة في تفسير غريب الشعر ، وحلقة في تفسير غريب الرجز ، وحلقة فيما روى عن العرب من نوادر لغوية ، دون مراعاة لترتيب معين . وكان أولى برواة الكتاب عنه أن يجمعوا كل ما يتصل بالشعر في باب . وما

(١) أبو زيد الأنصاري : النوادر في اللغة — ط دار الكتاب العربي ، بيروت — ص ١ .
(٢) نفسه ص ١ ، ٢ .

يتصل بالرجز في باب ثان ، والنوادر في باب ثالث . فيصبح الكتاب بذلك ثلاثة أبواب ، في كل باب في موضوع مستقل بذاته .

(د) : وطريقة أبي زيد في عرض مادته في الشعر والرجز هي أن يأتي بالأبيات منسوبة إلى قائلها مع تعيين العصر الذي عاش فيه . ثم يشرع بعد ذلك في شرح غريب الشعر ، وقد يأتي بأكثر من رواية لبعض ألفاظه . وتكتنف الشروح اللغوية شروح نحوية واستشهاد بالقرآن والحديث والشعر .

أما في أبواب النوادر ، فهو يأتي بالألفاظ الغريبة المختلفة تباعاً . ويشرح معنى كل لفظ ، ويذكر مشتقاته . وفي بعض الأحيان يستشهد بالشعر . فهو يقول مثلاً :

خَلأَ البعيرُ يَخْلأُ : إذا برك فلمَ يكد ينهض ، وكذلك الناقة خلأت تخلأ خِلاءً . والعَجْنَاءُ : الناقة أو الشاة التي في أسفل حَيَائِها داء ، وهو لحم نابت ، فلا تكاد تلقح حتى يذهب ذلك . وقد عَجِنَتْ تَعْجَنَ عَجَناً . ويقال قد غارهم الله بِحَيَاً يَغِيرُهُم : إذا أصابهم مطر أو أصابوا خصباً...[1] »

على أن مادة الكتاب لا تروى جميعها عن أبي زيد ، وإن كانت في الأغلب والأعم مروية عنه . فقد ترد في الكتاب على قلة روايات ينسبها الرواة إلى أنفسهم .

ومثال ذلك : « قال أبو زيد المَلْس : السير الشديد . قال أبو حاتم وأقول أنا ، لا عن أبي زيد ، المَلْس : السير السريع السهل [2] . » ومثال ذلك كذلك : « قال أبو الحسن : منذ ومذ لابتداء الغاية من الزمان ... » [3]

---

(١) نفسه ، ص ٢٥٢ .
(٢) نفسه ، ص ١٢ .
(٣) نفسه ، ص ١٢ .

(هـ) : ولعله يتضح من خلال هذه الأمثلة القليلة ، مقدار ما يحتوي عليه كتاب « النوادر في اللغة » لأبي زيد الأنصاري ، من ثروة لغوية . ولا غرو بعد ذلك أن عده مؤلفو المعاجم مثل القالي في بارعه ، والأزهري في التهذيب ، والصاحب بن عباد في المحيط ، وغيرهم ، مصدراً أساسياً استقوا منه كثيراً من مادة معاجمهم ، وحجة فيما نقله من شروح لغوية ونحوية .

نموذج من كتاب النوادر :

بَابُ نَوادِرَ

أبو زَيْدٍ قَالَ الكِلابِيُّونَ المَهْرُوسُ وَالمَجْشُوشُ وَاحِدٌ، وَهِيَ هَرِيسَةٌ وَجَشِيشَةٌ. وَقَالَ ابُو المَضَاء الكِلابِي: الهَرِيسُ وَالجَشِيش الحَبّ حِينَ يُدَقّ بِالمِهْرَاس قَبْلَ أَنْ يُطْبَخ، فَإِذَا طُبِخَ فَهُوَ هَرِيسَةٌ وَجَشِيشَةٌ إِذَا جَشُوهُ . وَقَالَ اسْتَقْبَلَتُ المَاشِيَةَ الوَادِي فَأَنَا أَسْتَقْبِلُهَا إِيَّاهُ . وَأَقْبَلْتُهَا الوَادِيَ إِقْبَالاً إِذَا أَقْبَلْتَ بِهَا نَحْوَهُ . وَقَبِلَتِ المَاشِيَةُ الوَادِي تَقْبَلُهُ قَبُولاً إِذَا اسْتَقْبَلَتْه هِيَ . قَالَ الرَّاجِزُ :

إِذَا سَمِعْنَ زَأْرَهُ تَعَدّيدَا ... فِي زَفْرَةٍ يُقْبِلُهَا الكَئُودَا

رَفَعْنَ أَمْثَالَ الخَوَافِي سُودَا

ابُو حَاتِمٍ : إِذَا سَمِعْنَ زَأْرَةً . وَالكَئُودُ العَقَبَةُ الشَّاقَةُ

وَيُقَالُ تَاقَتْ نَفْسِي إِلَى ذَلِكَ تَوْقاً وَتَوَقَاناً وَتُؤُوقاً

وَيُقَال أَبَثَّ فُلاَنٌ فُلاناً شُقُورَهُ وَفُقُورَهُ . إِذَا شَكَا إِلَيْه الحَاجَةَ. قَالَ العَجَّاجُ :

وَكَثْرَةَ التَّحْدِيثِ عَنْ شُقُورِي ... (مَعَ الجَلاَ وَلاَئِحِ القَتِيرِ)

قَالَ ابُو حَاتِمٍ قَالَ الأَصْمَعِي وَحْدَهُ شَقُورِي فَفَتَحَ الشِّينَ.

أَبُو زَيْدٍ. وَيُقَالُ جِئْتُ مِنَ القَوْمِ أَيْ مِنْ عِنْدِهِمْ.

وَتَقُولُ شَغَبْتُ القَوْمَ أَشْغَبُهُمْ شَغْباً وَشَغَبْتُ عَلَيْهِمْ .

وَتَقُولُ شَبِعْتُ خُبْزاً وَلَحْماً وَرَوِيتُ مَاءً وَلَبَناً .

وَيُقَالُ لَبِثَ الرَّجُلُ يَلْبَثُ لَبْثاً وَلَبَاثاً وَلَبْثَةً. قَالَ ابُوحَاتِمٍ: لَبَاثَةً وَلِبْثَةً، وَلَمْ يَحْكِ لَبَاثاً وَلاَ لَبْثَةً. قَالَ أَبُو الْحَسَنِ: وَحُكِيَ لَنَا فِي غَيْرِهذَا الْمَوْضِعِ لَبِثْتُ لَبَثاً فَأَنَا لَبِثٌ، كَقَوْلِكَ فَرِقْتُ فَرَقاً فَأَنَا فَرِقٌ، وَبَطِرْتُ بَطَراً فَأَنَا بَطِرٌ. وَالْمُسْتَعْمَلُ الْجَارِي فِي كَلاَمِهِمْ لاَبِثٌ، كَقَوْلِكَ الضَّارِبُ. وَالْمَصْدَرُ اللَّبْثُ، كَقَوْلِكَ الضَّرْبُ. وَالدَّلِيلُ عَلَى هذَا قَوْلُهُمْ لَبْثَةً كَضَرْبَةٍ.

ابُو زَيْدٍ: وَيُقَالُ فِي الرَّجُلِ بُلُلَةٌ، وَفِي الْقَوْمِ بُلُلاَتٌ، وَهِيَ الْبَقِيَّةُ مِنَ الْوُدِّ. وَيُقَالُ طَوَيْتُ الرَّجُلَ عَلَى بُلُلَتِهِ، أَيْ بَقِيَّةَ مَا بَقِيَ مِنْ وُدِّهِ.

وَيُقَالُ رُحْتُ بَنِي فُلاَنٍ أَرُوحُهُمْ رَوَاحاً، إِذَا رُحْتَ إِلَيْهِمْ أَوْ رُحْتَ مِنْ عِنْدِهِمْ. قَالَ ابُو حَاتِمٍ وَالْمَازِنِي أَوْ رُحْتُ عِنْدهمْ.

وَيُقَالُ جَعَلَ الْقَوْمُ حُبُولَهمْ عَلَى غَوَارِبِهِمْ. الْحُبُولُ وَاحِدُهَا حَبْلٌ وَهِيَ الأَرْسَانُ. وَالْغَوَارِبُ وَاحِدُهَا غَارِبٌ وَهِيَ أَعَالِي كُلِّ شَيْءٍ.

وَيُقَالُ مَا سَقَانِي فُلاَنٌ مِنْ سُوَيْدٍ قَطْرَةً، وَهُوَالْمَاءُ، يُدْعَى الأَسْوَدَ. قَالَ الشَّاعِرُ:

أَلا إِنَّنِي سُقِّيتُ أَسْوَدَ حَالِكاً
أَلاَ بَجَلِي مِنَ الشَّرَابِ أَلابَجَلْ

قَالَ ابُو الحسَنِ: وَيُرْوَى مِنَ الْحَيَاةِ. يَعْنِي بالأَسْوَد الْمَاءَ. وَبَجَلِي حَسْبِي. وَيُقَالُ مَا عِنْدَهُ طَعَامٌ وَلاَ شَرَابٌ إِلاَّ الأَسْوَدَانِ، وَهُمَا الْمَاءُ وَالتَّمْرُ الْعَتِيقُ. وَيُقَالُ ذَهَبَ مِنْهُ الأَبْيَضَانِ، أَيْ شَبَابُهُ وَشَحْمُهُ. وَيُقَالُ أَعْطَيْتُهُ ذَاكَ عَيْنَ عُنَّةٍ يَا فَتَى، أَيْ

خَاصَّةً مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِهِ .

وَإِذَا قَالَ لأَضْرِبَنَّ فُلاناً أَوْ لأَقْتُلَنَّهُ قُلْتَ أَنْتَ أَوْ مَرِنْ مَا أُخْرَى. أيْ عَسَى أنْ يَكُونَ غَيْرُ مَا تَقُولُ . أَوْ يَكُونَ أَجْرَأَ لَهُ عَلَيْكَ . وَيُقَالُ عَرَفْتُ ذَالِكَ فِي فَحْوَى قَوْلِهِ ، أيْ فِي مِعْرَاضِ قَوْلِهِ . وَهُمَا سَوَاءٌ. ابُوزَيدٍ : قَالَ الشَاعِرُ— أَنْشَدَهُ الرِّيَاشِيُّ عَنْهُ :

جَاءَتْ تَدَاعَى لِتَجِيباً أَصْوَاتُهَا
أَلْمَـــاءُ فَحْـــوَاهَا وَأَنْجِيَاتُهَا

٣ - إصلاح المنطق
لابن السكيت

إصلاح المنطق

لابن السكّيت

(أ) : هو أبو يوسف يعقوب بن السكّيت . والسكيت لقب أبيه إسحق ، لأنه فيما يقال كان كثير السكوت . وقال ياقوت : «كان أبوه من أصحاب الكسائي ، عالماً بالعربية واللغة والشعر ، وكان يعقوب يؤدب الصبيان مع أبيه في درب القنطرة بمدينة السلام ، حتّى احتاج إلى الكسب ، فأقبل على تعلم النحو من البصريين والكوفيين ، فأخذ عن أبي عمرو الشيباني والفرّاء وابن الأعرابي والأثرم ، وروى عن الأصمعي وأبي عبيدة ، وأخذ عنه أبو سعيد السكري ، وأبو عكرمة الضّبيّ ، ومحمد بن الفرج المقرىء ، ومحمد بن عجلان الأخباري ، وميمون بن الكاتب ، وغيرهم . وكان عالماً بالقرآن ونحو الكوفيين ، ومن أعلم الناس باللغة والشعر ، راوية ثقة . ولم يكن بعد ابن الأعرابي مثله » . (1)

(أ) — ١ : ولم يعرف تاريخ مولده على وجه التحديد ، ولكن روى أنه حين توفي كان قد بلغ الثامنة والخمسين . فإذا كان قد توفي في عام ٢٤٤ هـ ،

---

(١) ابن السكيت : إصلاح المنطق — ط . دار المعارف بمصر ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون — مقدمة التحقيق ، ص ٩ .

وهو التاريخ الذي يذكره كثير ممن ترجموا له [1] . فإنه يكون بذلك قد ولد سنة ١٨٦ هـ .

وقد روى ابن الأنباري رواية في وفاته فقال إنه توفي في خلافة المتوكل وكان المتوكل « قد أمره بشتم رجل من قريش فلم يفعل . وأمر القرشي أن ينال منه فنال منه وأجابه يعقوب . فلما أن أجابه قال له المتوكل : أمرتك أن تفعل فلم تفعل . فلما شتمك فعلت . وأمر بضربه . فحمل من عنده صريعاً مقتولاً . ووجه المتوكل من الغد إلى بني يعقوب عشرة آلاف درهم ديته » . [2]

وقد روى عن أبي عمرو الشيباني أنه قال : « وانتهى علم الكوفيين إلى أبي يعقوب بن إسحق السكيت وأبي العباس أحمد بن ثعلب ، وكانا ثقتين أمينين . ويعقوب أسَنّ وأقدم . وأحسن الرجلين تأليفاً ، وثعلب أعلمهما بالنحو . » [3]

(أ) — ٢ : وقد ذكر ابن النديم . في ترجمته لابن السكيت . الكتب التي ألفها هذا العالم اللغوي . وهي كثيرة . أما ما نشر منها فهو : كتاب الأضداد (وقد نشر ضمن مجموعة كتب الأضداد للأصمعي والسجستاني والصغاني) ، وكتاب القلب والإبدال . وكتاب الألفاظ . ثم كتاب إصلاح المنطق .

(ب) : لم يتقدم ابن السكيت بمقدمة في مطلع كتابه تشرح منهجه وهدفه من وراء تأليف هذا الكتاب . على أننا إذا نظرنا إلى الكتاب في ضوء حركة جمع اللغة من مصادرها الأصلية والعكوف على دراستها . أدركنا أن كتاب ابن السكيت كان ثمرة من ثمار هذا النشاط في الجمع والتأليف ؛ هذا النشاط الذي كان العلماء يسعون من ورائه إلى المحافظة على اللغة العربية سليمة حتى لا يعتريها تحريف في الشكل أو المعنى .

---

(١) انظر طبقات ابن الأنباري : ١٤٠ .
(٢) طبقات ابن الأنباري : ١٤٠ . وانظر الفهرست : ١١٤ .
(٣) المزهر ٢ / ٤١٢ .

(ج) : وتتوزع المادة في الكتاب بين ما يتصل بالألفاظ الفصيحة . وما يتصل بالألفاظ التي حورتها العامة ، أو ما يسمى بلحن العامة . أما الكتاب نفسه فينقسم إلى قسمين غير متميزين في موضوعاتهما الأساسية ؛ ذلك أن كلا القسمين يحتوي على قدر من الألفاظ الفصيحة وقدر من تلك التي طرأ عليها اللحن . ولهذا فليس هناك مبرر منهجي لتقسيم الكتاب إلى قسمين ، وكان أولى بمؤلفه أن يجعله قسماً واحداً ، بخاصة أن حجمه ليس بالكبير .

وينقسم كل قسم من قسمي الكتاب إلى أبواب تختلف بين الطول والقصر ، ويبلغ عدد الأبواب في مجموعها مائة باب ونيفاً . وقد يضع المؤلف للباب عنواناً يتحدد بالصيغة الصرفية التي يبحثها فيه ، مثل باب « فَعْلٍ وفِعْلٍ باختلاف المعنى » ، وباب « فِعْلٍ وفَعْلٍ » باتفاق المعنى . وقد يتحدد عنوان الباب وفقاً للموضوع ، فيذكر « باب النوادر » أو « باب ما يُتكلم فيه بالجحد » ، أو « باب الاسمين يُغَلَّب أحدهما على صاحبه لشهرته أو لخفته من الناس » .

أما الأبواب التي تبحث في لحن العوام فيبلغ عددها عشرة أبواب ، وهي : ١ – « ما هو مكسور الأول مما فتحته العامة أو ضمته » . ٢ – « ما جاء على فَعَلْتُ بالفتح مما تكسره العامة أو تضمه » . وهذان البابان ينتميان إلى ما اعترى الألفاظ في لغة العامة من تحريف في الضبط . ٣ – « باب يتكلم فيه بفعلتَ مما يغلط العامة فيه فيتكلمون بأفْعَلْتُ » . ٤ – « ما يتكلم فيه بأفعلت مما يتكلم فيه العامة بفعلت » . ٥ – « ما يهمز مما تركت العامة همزه » . ٦ – « ما يتكلم فيه بالصاد مما يتكلم به العامة بالسين » . ٧ – « ما يتكلم فيه بالسين فيتكلم فيه العامة بالصاد » . ٨ – « ما يُغْلَط فيه يتكلّم فيه بالياء وإنما هو بالواو » . وهذه الأبواب تكشف عما اعترى بعض ألفاظ الفصحى من تغيير في الحروف في لغة العامة .

ثم هناك بابان تحت عنوان «فيما تضعه العامة في غير موضعه » ، وهما .

يكشفان عما اعترى الألفاظ الفصيحة من تغيير في المعنى في استعمال العامة .

ويبدأ المؤلف كل باب مباشرة بذكر الألفاظ التي ترد على الوزن الذي يبحث فيه ، ثم يذكر معناها ، مستشهداً بآيات من القرآن وبالحديث والشعر . وهو قد يفسح لنفسه المجال فيكثر من الاستطراد ، وقد يوجز بحيث لا يذكر سوى اللفظ ومعناه . يقول ، على سبيل المثال : « يقال : ما عَسَيْتُ أن أصنع . قال الله جل ذكره : (فَهَل عَسَيْتُمْ إنْ تَوَلَّيْتُمْ) . ولا ينطق منها باستقبال . ويقال : دَمَعت عينُه . ويقال : رعَفْتُ أرعفُ ، والضم لغة . وقد عَطَشْتُ أعطِشُ . وقد سَعَلْتُ بالفتح لا غير ... وقد كَفَلْتُ به أكفُلُ كفالة ، وقَبَلْتُ به أقبُلُ به في معنى واحد .. »[1]

أما الأبواب التي يتحدث فيها عن لحن العامة ، فكثيراً ما يخلطها بالحديث عن الألفاظ الفصيحة التي ربما لم تستعملها العامة . فهو يتحدث ، على سبيل المثال ، في باب ما يهمز وتركت العامة همزه ، عن الكلمات الشائعة عند العامة في هذا المجال ، مثل كلمة فاس ، وراس ، وكاس ، وطاطيت بدلا من طأطأت ، وأبطيت بدلا من أبطأتُ ، ثم يقول : « هذا كَمْءٌ ، وهذان كَمْآن ، وهؤلاء أكْمُؤ ثلاثة ، فإذا كثرت فهي الكمأة .[2] وقد أكْمَأت الأرض إذا كثرت كمأتها ، ويقال خرج المتكَمِّئون ، للذين يجتنون الكمأة[2] » .

ولكنه لا يذكر إثر ذلك فيما تغيرت الكلمة عند استعمال العامة لها ، أو أنها استعملت لديهم على ما هي عليه ، كما هو الشأن في هذه الكلمة الأخيرة ومشتقاتها .

(د) : ويعيب الكتاب أن صاحبه لا يهتم بترتيب مواده في الأبواب ترتيبا أبجدياً ، ومن ثم يصعب الكشف فيه عن الكلمة المطلوبة . ولكننا إذا عرفنا أن

---

(١) إصلاح المنطق : ١٨٨ .
(٢) نفسه : ١٤٨ — ٩ .

الكتب التي ألفت في اللغة بصفة عامة قبل ابن السكيت كانت لا تتحرى التبويب أو الترتيب الأبجدي ، أدركنا أن ابن السكيت قد خطا خطوة في سبيل تنظيم المادة عندما صنفها على الأقل في أبواب . أما الترتيب الأبجدي في داخل الأبواب فلم يتحقق إلا على أيدي من جاءوا بعده .

وعلى كل فإن كتاب « إصلاح المنطق » يعد من أوائل الكتب التي ألفت في لحن العامة . وقد نوه الدكتور حسين نصار بأهمية هذه الكتب بقوله : « وجملة القول في كتب لحن العامة والخاصة ... أن أهميتها تقوم على تصويرها الشعب العربي وحياته في جميع الأقاليم تصويراً دقيقاً محكماً لا تعطيناه معاجم اللغة الفصيحة ؛ فقد كانت هذه المعاجم يعتمد المتأخر منها على المتقدم ، ويحاول أن يفسر اللفظ بالمعاني التي كان يستعمله فيها الجاهليون والإسلاميون الأول وحدهم . بينما عنيت هذه الرسائل باللغات الحية في الأقاليم ودلالاتها فكانت أصدق تصويراً . » (١)

وقد اعتمد على كتاب « إصلاح المنطق » فيما بعد كثير من مؤلفي المعاجم ، ومنهم القالي في معجم « البارع » . والأزهري في تهذيبه ، وابن فارس في المقاييس ، وذلك لما احتوى عليه هذا الكتاب من ثروة لغوية غزيرة ، ولاستيفائه مشتقات الألفاظ وتصاريفها .

وقد روى ابن فارس كتاب « إصلاح المنطق » عن أبيه فارس بن زكريا . وقد نص على ذلك في مقدمة معجمه « المقاييس » فقال : « ومنها (أي من الكتب الجليلة في اللغة) كتاب المنطق ، وأخبرني به فارس بن زكريا عن أبي نصر ابن أخت الليث بن إدريس عن الليث عن ابن السكيت » (٢) .

---

(١) المعجم العربي : ١ / ١١٥ .

(٢) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة – ط ، عيسى الحلبي ، القاهرة ، تحقيق عبد السلام هارون – مقدمة المؤلف ص ٥ .

نموذج من كتاب إصلاح المنطق :

باب يتكلم فيه بفعَلْتُ مما تغلَطُ فيه العامة فيتكلمون بأفعلْت .

* تقول : نَعَشَهُ الله يَنْعَشُه ، أي رفعه الله ، ومنه سُمّي النَّعْش نَعْشاً لارتفاعه ، ولا يقال أنْعَشَهُ الله .

* وتقول : قد نَجَعَ فيه الدواء وقد نجعَ في الدابّةِ العَلَفُ ينجَعُ ، ولا يقال قد أنجَعَ فيه .

* ويقال : قد نَبَذْتُ نبيذاً . وقد نبذْتُ الشَّيءَ من يديّ إذا ألقيتُه . فقال أبو محمد : أنشدني غير واحد :

نظرتْ إلى عُنوانِه فَنبذْته كنبذك نَعلاً أخلقَت من نِعالكا

ومنه قول الله عزّ وجل : (فنَبَذوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِم) . ويقال : وجد فلانٌ صبياً منبوذاً . ولا يقال أنبذتُ نبيذاً .

* وقد شغلْتُه ولا يقال أشْغَلْتُه .

* ويقال : قد سَعَرْتُهم شرّاً ، ولا يقال أسعرْتُهم .

* وقد رَعَبْتُه إذا أفزعتَه ، وكذلك رعَبْتُ الحوضَ إذا ملأته ، وهو مَرْعُوب . قال الهُذَليُّ :

تُقاتِلُ جُوعَهُمْ بمُكَلّلاتٍ من الفُرْنيّ يرْعَبُهَا الجميلُ

ويروى : « نقابِلُ جُوعَهُمْ » ، أي تملؤها الإهالة .

* ويقال : جَمَلْتُ الشحْمَ إذا أذبتَهُ ، وكذلك اجتملتُ . وقال الآخر :

بِذِي هَيْدَبٍ، أيمَا الرُّبا تحتَ وَدْقِه
فترْوَي، وأيمَا كُلُّ وادٍ فيَرْعَبُ

أيما : في معنى أمّا .

• وقد هَزَلْتُ دابّتي . وكذلك هَزَل في منطقه يهزِلُ هزْلاً . ويقال : قد أهزَلَ النّاسُ ، إذا وقعَ في أموالِهم الهُزالُ .

• وقد كفأتُ الإناء فهو مكفوء إذا قلبته .

• ويقال : قد قلبْتُ الشيء أقلبُه قَلْباً . وقد قلبْتُ الصّبيانَ وصرفتُهم، بغير ألفٍ . وقالوا : أقْلَبتِ الخبزةُ . إذا نَضِجَتْ وأنَى لها أن تُقلَبَ .

• وقد وقَفْت دابّتي . وقد وقفت وقفاً للمساكين . ووقفتُه على ذَنْبِه – كلُّه بغير ألف. وحكى الكسائيّ : ما أوقفك ها هُنا ؟ أيّ شيء أوقفك ها هنا ؟ صيّرك إلى الوقوف .

• قال الأصمعيّ : يقال : جَنَبَتِ الريحُ وشَمَلَت وقَبَلَتْ وصَبَتْ ودَبَرَتْ ، كله بغير ألفٍ . ويقال . قد أجْنَبْنا وأشْمَلْنا ، أي دخلْنا في الجُنوب والشّمالِ .

• ويقال : قد بَرَقَتِ السّماء وأرعَدَتْ . وقَدْ بَرَق ورعَدَ إذا تهدّد وأوْعَدَ . قال : ولم يكن يرى بيت الكُمَيْتِ حُجةَ لأنه عنده مولّد . وهو قوله :

أبرِق وأرعِدْ يا يزيد فما وعيدكَ لي بِضائرْ

وحكى أبو عبيدة وأبو عمرو : بَرَقَ ورَعَدَ . وأبرَقَ وأرعَدَ ، إذا تهدّد وأوعد. الفراء: يقال : وعدتهُ خيراً ووعدتهُ شرّاً . بإسقاط الألف ، فإذا أسقطوا الخيْر والشرّ قالوا في الخيرِ : وعَدْتُه ، وفي الشرّ : أوعَدْتُهُ ؛ وفي الخير : الوَعْدُ والعِدَة . وفي الشرّ : الإيعادُ والوعيدُ . وإذا قالوا : أوعدتُه بالشرّ أو بكذا ، أثبتوا الألف مع الباء . وأنشد :

أوعَدَني بالسِّجْنِ والأداهِمِ
رِجْلِي ورِجْلي شَثْنَةُ المَناسِمِ

• ويقال : قد كبَبْتُهُ لوجهه وكبَّ الله الأبْعَدَ لوجْهِهِ ، ولا يقال أكبَّ الله .

• ويقال : قد علَفْتُ الدّابّة وقد رسَنْتُها بغير ألف . وقد حَشَشْتُ بعيري . وقد حميْتُ المريضَ أحميه حِمْيَةً . وقد حميتُ أنْفاً أن أفعَل كذا وكذا حمية ومَحمِيَةً . إذا أنِفْتَ أن تفعَلَهُ .

• ويقال : عِبْتُهُ . ولا يقال أعَبْتُهُ . وحدَرْتُ السّفينة . ولا يقال أحدرتُها .

• وعن غير يعقوبَ : حَميت المكان وأحميْتُهُ . أى جعلْتُه حِمىً لا يُقْرَبُ ومنَعتُ الناسَ منه . وكذلك المسمار . وأحميته . أنشدنا أبو الحُسن ويعقوب وغيره :

حَمَى أجَماتِهِ فتُرِكْنَ قفْراً   وأحْمَى ما يليه من الإحـسام

• ويقال : قد عِبْتُه فهو مَعيبٌ ، ولا يقال أعَبْتُه . وقد رَفَدتُه . ولا يقال أرْفَدْتُهُ .

٤ ـ الخصائص

لابن جنى

الخصائص

لأبي الفتح عثمان بن جني

(أ) : هو أبو الفتح عثمان بن جني . كان أبوه « جني » رومياً من موالي سليمان بن فهد بن أحمد الأزدي . ومن هنا ، كان اسمه « أبو الفتح عثمان بن جني الأزدي » . ولد بالموصل ، واختلف في تاريخ وفاته . ولكنه توفي على الأرجح في عام ٣٩٢ هـ ، كما أشار إلى ذلك ابن النديم [١] وابن الأنباري [٢] .

(أ) — ١ : وقد أخذ ابن جني النحو عن الأخفش ، أما أستاذه بحق فهو أبو علي الفارسي ، إذ صحبه ابن جني أربعين عاماً حتى توفي أبو علي ، فخلفه ابن جني في مكانته .

وقد كان ابن جني شاباً يدرّس العربية في مسجد الموصل عندما التقى بأبي علي لأول مرة . ويقال إن أبا عليّ وقف يستمع إليه وهو يتحدث في قلب الواو ألفا ، على نحو قام وقال ، فاعترض عليه أبو علي ، إذ وجده مقصراً ، وأرشده إلى الصواب ، وقال له ، قاصداً أنه قد مارس التدريس قبل أن ينضج : « زَبَبْتَ قبل أن تُحَصْرِم » . ثم قام أبو علي ولم يعرفه ابن جني . وعندما سأل عنه قيل له : هو أبو علي الفارسي النحوي ، فأخذ في طلبه ، فوجده ينزل إلى السميرية يقصد بغداد ، فنزل معه في الحال ، ولزمه وصاحبه

(١) الفهرست : ١٣٤ .

(٢) طبقات ابن الأنباري : ٢٤٢ .

من حينئذ إلى أن مات أبو علي . (١)

وقد روى ابن جني عن الأعراب الفصحاء الثقاة . شأن علماء عصره . كما روى عن أبي بكر محمد بن الحسن المعروف بابن مِعْسَم . وهو من القراء ، وكان راوية ثعلب . فروى عنه في كتبه أخبار ثعلب وعلمه . كما روى عن المبرد وعن أبي الفرج الأصفهاني .

ثم اجتمع ابن جني بالمتنبي بحلب عند سيف الدولة بن حمدان . كما اجتمع به في شيراز عند عضد الدولة ، فحدث بينهما إجلال وتقدير متبادل . كانت نتيجته أن قام ابن جني بأول شرح لديوان المتنبي . وقد تعقب معاصروه شرحه يأخذون عليه فيه بعض أخطائه ، ومنهم الرَّبعيّ عليّ بن عيسى . وابن فورَّجَة ، والشريف المرتضى وغيرهم (٢) . وقد كان ابن جني كثير الثناء على المتنبي ، ولا يقول عنه إلا « شاعرنا » . (٣)

(أ) — ٢ : وقد كان بن جي من أتباع المذهب البصري ، ولكن خلق العالم أبي عليه أن يكون متعصباً لهذا المذهب ، فكان يأخذ بالرأي الذي يقتنع به . أيا كان مصدر هذا الرأي . فنحن نراه في الخصائص يكثر النقل عن الكسائي وثعلب . وقد يقف موقفاً وسطاً بين المذهبين البصري والكوفي ويأخذ بالمذهب البغدادي . (٤)

وقد كان ابن جني حجة في علم التصريف ، وقد مكنه علمه هذا من أن يضع يده عن الأخطاء التي وردت في أمهات المعاجم ومنها كتاب العين للخليل والجمهرة لابن دريد . فهو يشير إلى ما ورد من أخطاء في كتاب العين ، مبرئاً الخليل من أن يكون قد وقع فيها : « أما كتاب العين ففيه بن التخليط والخلل والفساد ما لا يجوز أن يحمل عن أصغر أتباع الخليل فضلاً عن

---

(١) انظر نفسه : ٢٤٥ .

(٢) ابن جني : الخصائص — ط دار الكتب المصرية ، تحقيق محمد علي النجار — مقدمة التحقيق ، ص ٢٢ .

(٣) انظر الخصائص ١ / ٢٤ و ٢٣٩ .

(٤) انظر الخصائص ، مقدمة التحقيق ، ص ٤٦ .

نفسه . ولا محالة أن هذا التخليط لحق هذا الكتاب من قبل غيره . »[١]

وكذلك يقول في نقده للجمهرة : « وأما كتاب الجمهرة ففيه أيضاً من اضطراب التصنيف وفساد التصريف ما أعذر واضعه فيه لبعده عن معرفة هذا الأمر ، ولمّا كتبتُه ولقعتُ في متونه وحواشيه جميعاً من التنبيه على هذه المواضع ما استحييت من كثرته ، ثم إنه لما طال عليّ أومأت إلى بعضه وضربت البتة عن بعضه . »[٢]

(أ) — ٣ : وقد أحصى ياقوت في معجمه كتب ابن جني فبلغت تسعة وأربعين كتاباً ، ومنها سر الصناعة . تفسير ديوان المتنبي الكبير ، تفسير معاني ديوان المتنبي ، اللمع في العربية ، كتاب الألفاظ المهموزة ، التهذيب ، التلقين في النحو ، ثم الخصائص ، وغير ذلك من الكتب التي تشير إلى طول باعه في علمه .

(ب) : وكتاب الخصائص ، كما يتضح من عنوانه ، يبحث في خصائص اللغة العربية ، وإن اشتمل على مباحث تتصل باللغة بصفة عامة ، مثل البحث في الفرق بين الكلام والقول . والبحث في أصل اللغة : ألهام هي أم اصطلاح. الخ أما بقية الأبحاث فتختص باللغة العربية : فلسفتها ومشكلاتها .

وقد نص المؤلف على أن الهدف من تأليف كتابه ليس هو البحث في المشكلات اللغوية الجزئية . ولكنه البحث في مشكلاتها الكلية . أي في فلسفتها . يقول : « إذ ليس غرضنا فيه الرفع والنصب والجر والجزم ؛ لأن هذا أمر قد فرغ في أكثر الكتب المصنفة فيه منه . وإنما هذا الكتاب مبنيّ على إثارة معادن المعاني ، وتقرير حال الأوضاع والمبادىء . وكيف سرت أحكامها في الأحناء والحواشي . »[٣]

(١) المزهر ١ / ٧٩ .
(٢) المزهر ١ / ٩٣ .
(٣) الخصائص ١ / ٣٢ .

وعلى الرغم من حرص المؤلف على أن ينص على أن الهدف من تأليفه هذا الكتاب ليس هو البحث الجزئي في اللغة ، فإن الذين ترجموا له ، عرفوا كتابه « الخصائص » بأنه كتاب يبحث في النحو والتصريف . يقول ابن الأنباري : « وأما بو الفتح عثمان بن جني النحوي فإنه كان من حُذّاق أهل الأدب وأعْلمهم بعلم النحو والتصريف ، صنف في النحو والتصريف كتباً أبدع فيها ، كالخصائص ، والمنصف ، وسر الصناعة ... ولم يكن في شيء من علومه أكمل منه في التصريف » . (١)

والواقع أن ابن جني ، عندما يبحث في مشكلة صرفية أو مشكلة نحوية ، لا يبحث فيها في حد ذاتها ، ولكنه يتخذها منطلقاً . أو لنقل وسيلة ، للوصول إلى مشكلة لغوية أكبر . ومثال ذلك بحثه في الفرق بين القول والكلام . وهو يقدم هذا الباب بقوله : « هذا باب القول على الفصل بين الكلام والقول . ولنقدم أمام القول على فرقٍ بينهما ، طرفاً من ذكر أحوال تصاريفهما واشتقاقهما مع تقلب حروفهما ، فإن هذا موضع يتجاوز قدر الاشتقاق ويعلوه إلى ما فوقه . وستراه فتجده طريقاً غريباً ، ومسلكاً من هذه اللغة الشريفة عجيباً » . (٢)

وهنا نراه يشير إلى أن الموضوع لا يقف عند حد التصريف والاشتقاق ، ولكنه يتجاوزه إلى ما هو أبعد من ذلك ، وهو الفرق بين ما ينطق به اللسان أحياناً فيسمى قولا ، وما ينطق به أحياناً أخرى أو يكتبه القلم فيسمى كلاماً . وهنا يبدأ بتصريف مادة « قَوَلَ » وذكر تقليباتها ، فيجد هذه التقليبات تنحصر في : قَلَوَ . وقَلَ ، وَلَقَ ، لَقَوَ . لَوَقَ . وعندئذ يأخذ في شرح هذه الألفاظ مستعيناً بالتراث الأدبي العربي . فالأصل الأول قَوَلَ وهو القول ، وقد سمي بذلك لأن « الفم واللسان يخِفّان له ، ويقلقان ويَمْذَلان

---

(١) طبقات ابن الأنباري : ٢٤٤ .

(٢) الخصائص ١ / ٥ .

به » . والأصل الثاني « قلو » ، ومنه القِلْو ، وهو حمار الوحشي ، وقد سمي بذلك لخفته وإسراعه . والثالث « وقل » ، ومنه الوَقْل للوعل ، وذلك لحركته . والرابع « ولق » بمعنى أسرع . والخامس « لوق » ، وقد جاء في الحديث الشريف : « لا آكل من الطعام إلا ما لوِّق لي » ، أي ما خُدِم وأعملت اليد في تحريكه .. والسادس « لقو » ، ومنه اللِقْوة للعُقاب ، وقد قيل لها ذلك لخفتها وسرعة طيرانها . ومنه اللِقْوة ، وهي الناقة السريعة اللقاح .

فهذه الألفاظ جميعها يجمع بينها معنى « الخفوف والحركة » .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى تصريف كلمة « كلم » وتحديد تقليباتها ، وهي كلم ، وكل ، ولكم ، ومكل ، وملك. وقد أهمل لمك لأنها لم تأت في ثبت » . وعندما حاول أن يستخلص المعنى المشترك بين هذه التقليبات وجده الشدة والصلابة ؛ فالجرح هو الكَلْم ، للشدة التي فيه ، والكُلام ما غلُظ من الأرض ، وكَمَل الشيء أي تم فأصبح أقوى وأشد ، ومكل : منه بئر مكول أي نضب ماؤها واشتد جانبها . ومَلَكَ : منه ملكت العجين ، أي عجنته حتى اشتد وقوي ، ومنه المُلْك الذي يعطي صاحبه القوة والغلبة .[1]

ويخلص ابن جني من هذا التحليل إلى أن الكلام هو اللفظ المستقل بنفسه ، المفيد لمعناه « وهو الذي يسميه النحويون الجمل » . أما القول « فأصله أنه كل لفظ مذل به اللسان ، تاماً كان أو ناقصاً » .[2] ولهذا فإن القرآن الكريم يقال عنه كلام الله وليس قول الله .

ويظل ابن جني يعالج هذا الموضوع من كافة زواياه ، مثيراً بذلك مشكلات لغوية ما تزال تعالج حتى اليوم في الأبحاث اللغوية الحديثة .

(ج) : ولم تكن عقلية ابن جني عقلية حافظة ناقلة وحسب ، بل كانت عقلية علمية جدلية لا تسلم بالأمر إلا بعد اقتناع وإن صدر عن كبار العلماء .

---

(١) انظر : الخصائص : ١ / ٥ – ١٣ .

(٢) نفسه ١ / ١٧ .

فقد سلم مع بعض علماء عصره بادىء الأمر بأن اللغة إلهام وتوقيف ، ولكن هذا التسليم كان ظاهرياً ، إذ ظل الموضوع يلح عليه ليجيل الفكر فيه مرة أخرى . وهو في ذلك يقول : « واعلم فيما بعد ، أنني على تقادم الوقت ، دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع . فأجد الدواعي والخوالج قوية التجاذب لي ، مختلفة جهات التغول على فكري »[1] وهنالك صرح برأيه في أن اللغة لا يمكن أن تكون وضعية ، لأن « المواضعة لا بد معها من إيماء وإشارة بالجارحة نحو المومأ إليه . والمشار نحوه . والقديم سبحانه لا جارحة له فيصح الإيماء والإشارة بها منه » .[2]

وهو رأي نحس فيه بأثر المعتزلة في فكره .

إن عالم اللغة ينبغي ، من وجهة نظر ابن جني ، أن يناقش المشكلات اللغوية الجوهرية حتى يصل بها إلى حد الوضوح والإقناع ، لأن هذا أساس كل مبحث أدبي وفلسفي . ولهذا فقد صرح بأن العلل اللغوية أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل المتفقهين : « ألا ترى إلى قوة تنازع أهل الشريعة فيها ، وكثرة الخلاف في مباديها . ولا تقطع فيها بيقين ؛ ولا من الواضع لها ، ولا كيف وجه الحكمة في كثير مما أريناه آنفاً من حالها » .[3] أما عالم اللغة ، فيجب عليه « أن ينعم الفكر فيها . ويكاس في الإجابة عنها . »[4] .

(د) : فكتاب « الخصائص » يقف — بموضوعاته اللغوية العميقة ، وأسلوبه المنطقي في الجدل . وثقة صاحبه في الرواية والحفظ ، شامخاً بين كتب اللغة العربية . بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إنه يضارع ما يظهر اليوم في الغرب من أبحاث لغوية جادة وعميقة . ولن نتبين هذا إلا إذا عكفنا على دراسة موضوعاته دراسة متأنية . ووضعناها جنباً إلى جنب مع نظائرها من الأبحاث الحديثة التي يدعي أصحابها أنها جديدة كل الجدة .

---

(١) الخصائص ١ / ٤٧ .

(٢) نفسه ١ / ٤٥ .

(٣) نفسه ١ / ٥٣ .

(٤) نفسه ، ، ، س : يتحري الكيس .

نموذج من كتاب الخصائص :

هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ ؛ ألا ترى أنك إذا سمعت أكرم سعيد أباه ، وشكر سعيداً أبوه . علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول ؛ ولو كان الكلام شَرْحاً واحداً لاستبهم أحدهما من صاحبه .

فإن قلت : فقد تقول ضرب يحيى بُشْرَى . فلا تجد هناك إعراباً فاصلاً ، وكذلك نحوه ، قيل : اذا اتفق ما هذه سبيله ، مما يخفى في اللفظ حاله ، ألزم الكلامُ من تقديم الفاعل . وتأخير المفعول ،ما يقوم مقام بيان الإعراب . فإن كانت هناك دلالة أخرى من قِبَل المعنى وقع التصرف فيه بالتقديم والتأخير ؛ نحو أكل يحيى كُمَّثْرَى : لك أن تقدّم وأن تؤخر كيف شئت ؛ وكذلك ضربَتْ هذا هذه ، وكلّم هذه هذا ؛ وكذلك إن وضح الغرض بالتثنية أو الجمع جاز لك التصرّف ؛ نحو قولك أكرم اليَحْيَيان البُشْريَيْنِ ، وضرب البشريينِ اليحيَوْن ؛ وكذلك لو أومأت إلى رجل وفرس ، فقلت : كلّم هذا هذا فلم يجبه لجعلت الفاعل والمفعول أيّهما شئت ؛ لأن في الحال بياناً لما تعني . وكذلك قولك ولدَتْ هذه هذه ، من حيث كانت حال الأمّ من البنت معروفة ، غير منكورة . وكذلك إن ألحقت الكلام ضرباً من الإتباع جاز لك التصرف لما تُعقب من البيان ؛ نحو ضرب يحيى نفسَه بشري ، أو كلّم بشري العاقلَ مُعَلّى ، أو كلم هذا وزيداً يحيى. ومن أجاز قام وزيد عمرو لم يجز ذلك في نحو « كلّم هذا وزيد يحيى » وهو يريد كلم هذا يحيى وزيد ، كما يجيز « ضرب زيدا وعمرو جعفر » .

فهذا طرف من القول أدّى إليه ذكر الإعراب .

وأمّا لفظه فإنه مصدر أعربت عن الشيء اذا أوضحت عنه ؛ وفلان معرب عما في نفسه أي مبين له ، وموضح عنه ، ومنه عرّبت الفرس تعريباً إذا بزغته ، وذلك أن تنسف أسفل حافره ، ومعناه أنه قد بان بذلك ما كان خفياً من أمره لظهوره إلى مرْآة العين ، بعد ما كان مستوراً ؛ وبذلك تعرف

حاله : أصُلْب هو أم رِخو ؟ (وأصحيح) هو أم سقيم ؟ وغير ذلك .

وأصل هذا كله قولهم « العرب » وذلك لما يعزي اليها من الفصاحة ، والإعراب ، والبيان . ومنه قوله في الحديث « الثيّب تُعرِب عن نفسِها » والمُعْرِب : صاحب الخيل العِرَاب . وعليه قول الشاعر :

ويصهل في مثل جوف الطويّ صَهِيلاً يُبيّن للمعْرب

أي إذا سمع صاحب الخيل العراب صوته علم أنه عربيّ . ومنه عندي عَروبة والعروبة للجمعة . وذلك أنّ يوم الجمعة أظهر أمراً من بقيّة أيام الأسبوع ؛ لما فيه من التأهب لها ، والتوجه إليها ، وقوة الإشعار بها ؛ قال :

* يوائِم رهطا للعَرُوبةِ صُيّما *

ولما كانت معاني المسمَّين مختلفة كان الإعراب الدالّ عليها مختلفاً أيضاً ، وكأنه من قولهم : عَرِبت معدته . أي فسدت . كأنها استحالت من حال إلى حال . كاستحالة الإعراب من صورة إلى صورة . وفي هذا كاف بإذن الله .

الفصل الثانى

من أهم المعاجم القديمة

٢ ـ مقاييس اللغة

لأبى الحسين أحمد بن فارس

مقاييس اللغة

لابن فارس

(ا) : هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء بن محمد بن حبيب الرازي اللغوي. وكان كما يقول عنه الثعالبي : « من أعيان العلم وأفذاذ الدهر ، يجمع إتقان العلماء وظرف الكتاب والشعراء [1] » . وقد ذكر الثعالبي عنه كذلك أنه كان مقيما بهمذان ، ثم استدعى إلى بلاط بني بويه عندما اشتهر بعلمه ، وهناك التقى بالصاحب بن عباد ، الذي صاحبه وأخذ عنه اللغة والأدب ، وكان يقول عنه : « شيخنا أبو الحسين ممن رزق حسن التصنيف وأمن فيه من التصحيف » [2] .

(ا) — ١ : كان والده فقيها شافعيا لغويا ، وقد روى عنه ابن فارس كتاب ابن السكيت كما ذكر ذلك في مقدمة كتابه. ومن شيوخه ابن الخطيب راوية ثعلب ، وهذا يشير إلى أنه كان ينزع إلى مذهب الكوفيين . ومن شيوخه كذلك ابن سلمة القطان ؛ فقد قرأ عليه كتاب العين للخليل ، كما قرأ كتاب « غريب الحديث » و « منصف الغريب » لأبي عبد القاسم بن سلام علي أبي الحسن علي بن عبد العزيز صاحب أبي القاسم . وكان معجبا كل الإعجاب

(١) معجم مقاييس اللغة : مقدمة الناشر ، ص ٥ .
(٢) نفسه ، ص ٧ .

بشيخه أبي عبيد الله أحمد بن طاهر المنجم . وكان يقول عنه : « ما رأيت مثل أبي عبد الله بن طاهر . ولا رأى هو مثل نفسه »[1] .

(ا) — ٢ : وقد أشار ابن خلكان إلى مؤلفات ابن فارس وأشاد بها . كما أنه نوه بفضله على من اشتهروا في عصره أو بعده فقال : « كان إماما في علوم شتى وخصوصا اللغة . فإنه أتقنها ، وألف كتابه « المجمل » في اللغة ، وهو على اختصاره جمع شيئا كثيرا ، وله كتاب « حلية الفقهاء » . وله رسائل أنيقة ، ومسائل في اللغة ، ويعالي بها الفقهاء . ومنه اقتبس الحريري صاحب المقامات ... ذلك الأسلوب ، ووضع المسائل الفقهية في المقامة الطيبية ، وهي مائة مسألة . وكان مقيما بهمذان . وعليه اشتغل بديع الزمان الهمذاني صاحب المقامات »[2] .

ومن أشهر من تتلمذ عليه كذلك ، أبو طالب بن فخر الدولة البويهي ، والصاحب بن عباد ، كما أسلفنا القول ، وكذلك علي بن القاسم المقري .

ولابن فارس شعر طريف يقصد فيه إلى الدعابة والسخرية . وقد قدم الثعالبي وابن خلكان نماذج منه . كذلك كانت له آراء نقدية أوردها في مساجلة أدبية بينه وبين الشاعر عبد الصمد بن بابلك ، وفيها يعيب على أهل عصره عقولهم بتمسكهم بالشعر القديم وشعر الشعراء المشهورين ، وإهمالهم ما دون ذلك للشعراء المغمورين وإن تميز شعرهم بالأصالة والجدة[3] .

واختلف في تاريخ وفاة ابن فارس ، والأرجح إنه توفي سنة ٣٩٥ هـ .

(ب) : كانت اللغة قد جمعت وصنفت في كتب ذات موضوعات مختلفة في القرن الرابع ، كما كان تأثير «كتاب العين » للخليل بن أحمد قد

---

(١) طبقات ابن الأنباري ٢٣٥ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان — دار الثقافة ، بيروت — ج ١ ص ١١٨ — ٩ .

(٣) انظر مقدمة التحقيق لكتاب « مقاييس اللغة » ص ١٥ — ٢٠ .

بلغ ذروته عند من ألفوا في المعاجم من بعده ، مثل القالي في « البارع » ، والأزهري في « التهذيب » ، والصاحب بن عباد في « المحيط » . وابن سيده في « المحكم » ؛ فلقد نحا كل هؤلاء نحو الخليل وتأثروا بمنهجه في ترتيب حروف المعجم وفقا لمخارج الحروف .

غير أن هناك من علماء اللغة ، ومنهم ابن فارس ، من تدبر الأمر ورأى أن يصنف المادة اللغوية على نحو آخر بهدف الكشف عن مزيد من خصائص اللغة العربية ، وإفادة الباحثين من بعده في هذا المضمار . وفي هذا يقول ابن فارس في مقدمة كتابه : « إن للغة العرب مقاييس صحيحة ، وأصولا تتفرع منها فروع . وقد ألف الناس في جوامع اللغة ما ألفوا ، ولم يُعربوا في شيء من ذلك عن مقياس من تلك المقاييس ، ولا أصل من تلك الأصول . والذي أومأنا اليه باب من العلم جليل ، وله خطر عظيم . وقد صدرنا كل فصل بأصله الذي يتفرع منه مسائله ، حتى تكون الجملة الموجزة شاملة للتفصيل ، ويكون المجيب عما يسأل عنه مجيبا عن الباب المبسوط بأوجز لفظ وأقربه » (1) .

ومعنى هذا أن فكرة مقاييس اللغة كانت هي المسيطرة على ابن فارس . وهو يعني بها المعنى المشترك بين صيغ اللفظ المختلفة ؛ ومن ثم فقد سمى كتابه « مقاييس اللغة ». على أن ابن فارس إذا كان قد نجح إلى حد كبير (2) في استنباط المعنى المشترك بين صيغ المادة في الثنائي والثلاثي . فإنه عندما حاول تلك المحاولة في الألفاظ الرباعية أو الخماسية لم يتمكن من ذلك . ولهذا فقد حاول استنباط معاني هذه الألفاظ من خلال نظرية أخرى هي نظرية النحت .

---

(1) انظر مقدمة ابن فارس ص ٣ .

(2) لم ينجح ابن فارس في مادة أجل ، على سبيل المثال ، في استخلاص المعنى المشترك من مشتقاتها . وهو يقول في ذلك : « اعلم أن الهمزة والجيم واللام يدل على خمس كلمات متباينة ، لا يكاد يمكن حمل واحدة على واحدة من جهة القياس . فكل واحدة أصل في نفسها ، وربك يفعل ما يشاء » . (مقاييس اللغة ١ / ٦٤) ولكن هذه المادة وشبيهاتها يمكن أن يحسب من باب الشذوذ على القاعدة .

وهو يقول في ذلك : « اعلم ان للرباعي والخماسي مذهبا في القياس يستنبطه النظر الدقيق ، وذلك أن أكثر ما تراه منه منحوت . ومعنى النحت أن تؤخذ كلمتان وتنحت منهما كلمة تكون آخذة منهما جميعا بحظ »[1] .

(ج) : على أن ابن فارس يعترف بأن هذا الاتجاه في تصنيف اللغة لم يكن من ابتكاره ، بل كان الخليل بن أحمد له فضل السبق في الإشارة إلى هاتين النظريتين ، أعني نظرية المعنى المشترك بين مشتقات اللفظ في الثنائي والثلاثي ، ونظرية النحت في الرباعي والخماسي ؛ وإن لم يأخذ هذا المبحث عند الخليل شكل نظرية أو بحث متكامل كما حدث عند ابن فارس . فهو يقول : « قال الخليل : يقال جذا يجذو مثل جثا يجثو ، إلا أن جذا أدل على اللزوم . وهذا الذي قاله الخليل فدليل لنا في بعض ما ذكرناه من مقاييس الكلام . والخليل عندنا في هذا المعنى إمام »[2] .

ويقول في مكان آخر في « باب ما جاء من كلام العرب على أكثر من ثلاثة أحرف أوله باء » ، بعد أن أشار إلى نظرية النحت : « والأصل في ذلك ما ذكره الخليل من قولهم حَيْعَلَ الرجل إذا قال : حَيَّ عَلَى »[3] .

وينص ابن فارس في مقدمة كتابه الموجزة على أنه استمد مادته من كتب خمسة هي : كتاب العين للخليل ، وكتابا غريب الحديث ومصنف الغريب لأبي عبيد ، وكتاب إصلاح المنطق لابن السكيت ، والجمهرة لابن دريد . ثم يقول بعد ذلك : وما بعد هذه الكتب فمحمول عليها وراجع اليها ، حتى إذا وقع الشيء النادر نصصناه إلى قائله[4] .

(د) : وقد رتب ابن فارس معجمه وفقا للترتيب الأبجدي ، فجعل لكل

---

(١) معجم مقاييس اللغة : ١ / ٣٢٨ – ٩٠ .
(٢) نفسه : ١ / ٤٣٩ / ٤٠ .
(٣) نفسه : ١ / ٣٢٩ .
(٤) مقدمة ابن فارس : ٣ – ٥ .

حرف كتابا ، فكتاب في الهمزة ، وكتاب في الباء ، وكتاب في التاء وهكذا . ثم قسم كل كتاب إلى أبواب . فباب للثنائي المضاعف . مثل أبّ وأتّ وأثّ وهكذا . وباب للثلاثي مثل أبَتَ وأَبَثَ وأَبَدَ ، فما زاد عن ذلك من الرباعي أو الخماسي خصه بباب . وبذلك يكون ابن فارس قد اختصر أبواب الخليل حتى يتمكن من تطبيق نظريته تطبيقا محكما .

والباب عنده يبدأ بالحرف الذي يكتب فيه ثم يتبعه بالحرف الذي يليه ؛ فالهمزة مع الباء مثل أب . ثم الهمزة مع التاء مثل أت وهكذا . وذلك في الثنائي . أما في الأبواب التي تختص بالثلاثي فقد بدأها بالهمزة والباء والتاء ثم الهمزة والباء والثاء . ثم الهمزة والباء والجيم وهكذا . فإذا كان الباب في الهمزة والتاء وما يثلثهما ، بدأ بالحرف الذي يلي التاء لا الذي يسبقها ، أي أنه لم يبدأ بأتَبَ . بل سلسل ألفاظ هذا الباب على النحو التالي : أتل . أتن . أته . أتو . أتى . ثم يعود فيأتي بمادة أتب في نهاية الباب . وبالمثل في باب الهمزة والجيم وما يثلثهما ، فقد بدأ بعد الهمزة والجيم بما يلي الجيم وهو الحاء ، فأصبحت مواد الباب على النحو التالي : أجح . أجد . أجر . أجص ، أجل . أجم ، أجن . ثم عاد فاستدرك مادة أجأ في نهاية الباب .

وقد أخذ ابن فارس هذا الترتيب عن الخليل . ولكن الخليل كان له مبرره في اتباع هذا النظام . وهو أنه كان يجمع التقاليب في موضع واحد . فإذا كان يكتب . على سبيل المثال . في مادة « أبت » أورد تقاليبها وهي أتب وبأت وتأب . ومن ثم فإنه إذا عاد وكتب بعد ذلك في مادة الهمزة والتاء وما يثلثهما ، استبعد مادة أتب التي كتب عنها من قبل . ويأتي مباشرة بمادة أتث ، أما ابن فارس فإنه لم يكن يأتي بالتقاليب . ولكنه لما سار مع نظام إيراد الحرف مع ما يليه حتى يصل إلى الياء من كل مادة ، اضطر إلى إضافة الكلمات المؤلفة من الحرف والحروف السابقة عليه في نهاية الباب ، على نحو ما رأينا .

على أن ابن فارس لم يراع هذا الترتيب في الكلمات الرباعية والخماسية . واكتفى بأن أتى بالألفاظ للحرف المعقود له كل باب دون مراعاة للحرف الثاني ، ودون مراعاة للفصل بين الرباعي والخماسي .

(هـ) ومما لا شك فيه أن معجم « مقاييس اللغة » قد انفرد بفكرته الخاصة التي لم يشاركه فيها معجم آخر . وقد أخلص المؤلف لدراسة فكرته وإثباتها عمليا بحيث جعلها قاعدة في اللغة العربية ، وإن كان لا بد لكل قاعدة من شواذ . وفضلا عن ذلك فقد آلى ابن فارس على نفسه ألا يأتي إلا بالكلام العربي الفصيح . يقول : « وقد شرطنا في أول كتابنا هذا ألا نقيس إلا الكلام الصحيح »[1] . ومن ثم فقد نص على كل ما هو مشكوك في صحته . ومنه :

١ ــ الباء واللام والزاي « ليس بأصل . وفيه كليمات . فالبِلِزّة : المرأة القصيرة . ويقولون البَلأزُ : القصير من الرجال . والبلأزة : الأكل . وفي جميع ذلك نظر »[2] .

٢ ــ المعرّب : فالهمزة والجيم والصاد ليست أصلا . لأنه لم يجيء عليها إلا الأجّاص . ويقال إنه ليس عربيا ، وذلك أن الجيم تقل مع الصاد »[3]

٣ ــ المواد التي تُبَدّل حروفها : فالهمزة والذال ليس بأصل . « وذلك أن الهمزة فيه محولة من هاء »[4] .

٤ ــ حكايات الأصوات : فالهمزة والهاء « ليست بأصل واحد . لأن حكايات الأصوات ليست أصولا يقاس عليها »[5] .

٥ ــ الإتباع : « الباء والياء والصاد ليس بأصل . لأن بيص إتباع لحيص .

---

(١) معجم مقاييس اللغة : ١ / ٦١ .
(٢) نفسه : ١ / ٢٩٩ .
(٣) نفسه : ١ / ٦٤ .
(٤) نفسه : ١ / ١٢ .
(٥) معجم مقاييس اللغة : ١ / ٣٢ .

يقال : وقع القوم في حَيْصَ بَيْصَ »[1] .

٦ – المواد المنحوتة : « الأزل ، الذي هو القدم ، ليس بقياس ، ولكنه كلام موجز مبدل . وإنما كان « لم يزل » . فأرادوا النسبة إليه فلم يستقم ، فنسبوا إلى يزل ، ثم قلبوا الياء همزة فقالوا : « أزليّ »[2] .

هذه بعض حالات مما شك ابن فارس في صحة أصله . وفي الكتاب حالات أخرى ترد في مناسباتها .

ومهما يكن من شيء فإن « مقاييس اللغة » معجم خاص ، يهم الباحثين في فقه اللغة العربية في الدرجة الأولى ، وليس من المعاجم التي يُرجَع إليها في الأحوال العادية لمجرد الكشف عن معنى لفظة من ألفاظ اللغة .

---

(١) نفسه : ١ / ٣٢٦ .

(٢) نفسه : ١ / ٩٧ .

نماذج من كتاب مقاييس اللغة :

— ١ —

(بد) الباء والدال في المضاعف أصل واحد : وهو التفرُّق وتباعُد ما بينَ الشيئين . يقال فرس أبدُّ ، وهو البعيد ما بين الرِّجلَين . وبَدَّدْتُ الشيء ، إذا فرّقتَه . ومن ذلك حديثُ أمِّ سلمة : « يا جارية أبِدِّيهِم تَمرةً تَمْرةً » أي فرّقيها فيهم تَمرة تَمْرة . ومنه قول الهذلي :

فأبَدَّهُنَّ حُتُوفَهُنَّ فهارب ... بِدَمائِه أو باركٌ مُتَجَعْجِعُ

أي فرَّق فيهنّ الحُتوفَ . ويقال فرّقْناهم بَدَادِ . قال :

« فشُلُّوا بالرِّماح بَدَادِ »

وتقول بادَدْتُه في البَيع ، أي بِعتُه مُعَاوَضة . فإن سأل سائل عن قولهم : لا بدَّ من كذا ، فهو من هذا الباب أيضاً ، كأنه أراد لا فِراق منه ، لا بُعد عنه ، فالقياس صحيحٌ . وكذلك قولهم للمفازة الواسعة « بَدْبَدٌ » سمّيت لتباعُد ما بين أقطارها وأطرافها . والبادّان : باطنا الفَخِذين من ذلك ، سمّيا بذلك للانفراج الذي بينهما .

وقد شذّ عن هذا الأصل كلمتان : قولهم الرجل العظيم الخَلْق « أبَدّ » . قال :

« ألَدّ يَمْشِي مِشْيَةَ الأبَدّ »

وقولهم : ما لك به بَدَدٌ ، أي مالك به طاقةٌ .

— ٢ —

(بتع) الباء والتاء والعين أصلٌ واحدٌ يدلُّ على القوّة والشدّة فالبَتَع طولُ العُنُق مع شِدّة مَغْرِزه . ويقال لِكلِّ شديدِ المفاصل بَتِع . فأمّا البِتْعُ فيقولون إنه نَبيذ العَسَلِ . ويمكنَ أن يكونَ سمّيَ بذلك لعلّة أن تكون فيه .

(بتك) الباء والتاء والكاف أصلٌ واحد ، وهو القطع . قالوا : بَتَكْتُ الشيء قطعته أبْتِكُه بَتْكاً . قال الخليل : البَتْكُ قطع الأُذُن . وفي القرآن : (فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأنْعَامِ) . قال : والباتك السّيف القاطع . قال : والبَتْكُ أن تقبض على شَعَرٍ أو ريشٍ أو نحوِ ذلك ثم تجذبه إليك فينبتكَ من أصله ، أي ينقطع ويَنْتَتِفُ ، وكلُّ طائفةٍ من ذلك بِتْكَةٌ ، والجمع بِتَك . قال زُهير :

حتى إذا ما هَوَتْ كَفُّ الغلامِ لها ‏ طارت وفي كَفِّهِ مِنْ ريشِها بِتَكُ

(بتل) الباء والتاء واللام أصلٌ واحد ، يدلُّ على إبانة الشيء من غيره . يقال بتَلْتُ الشيءَ إذا أبَنْتَهُ من غيره . ويقال طلّقها بَتّةً بَتْلَةً . ومنه يقال لمريمَ العذراء « البَتُول » ؛ لأنها انفردت فلم يكن لها زوج . ويقال نَخْلَةٌ مُبْتِلٌ ؛ إذا انفردت عنها الصّغيرة النابتةُ معها . قال الهذليُّ : (... الخ) .

— ٣ —

(باب من الرباعي آخر)

ومن هذا الباب ما يجيءُ على الرُّباعي وهو من الثلاثي على ما ذكرناه ، لكنّهم يزيدون فيه حرفاً لمعنىً يريدونه مِنْ مبالغة ، كما يفعلون ذلك في زُرْقُمٍ وخَلْبَنٍ . لكنّ هذه الزيادةَ تقع أوّلاً وغيرَ أوّلٍ .

من ذلك (البَحْظَلَة) قالوا : أنْ يقفزَ الرَّجُل قَفَزَانَ اليَربوع فالباء زائدةٌ . قال الخليل : الحاظل الذي يمشي في شِقّه . يقال مَرَّ بنا يَحْظَلُ ظالِعاً .

ومن ذلك (البِرْشاع) الذي لا فُؤاد لَهُ . فالرّاء زائدة . وإنما هو من الباء والشين والعين . وقد فُسِّرَ .

ومن ذلك (البَرْغَثَة) فالراء فيه زائدة . وإنما الأصل الباء والغين والثاء . ومنه البُرغُوث .

٣ ـ الصحاح

تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري

معجم الصحاح

للجوهري

(ا) عرفنا في التمهيد أن من صنفوا المعاجم بعد الخليل قد تأثروا بمنهجه إلى حد بعيد ، مثل القالي في « البارع » ، والأزهري في « التهذيب » ، والصاحب بن عباد في « المحيط » وابن سيده في « المحكم » — تأثروا جميعا به مع بعض اختلاف يسير لدى كل منهم ، لا يخرج به عن دائرة الخليل . وعرفنا منذ قليل أن ابن فارس وابن دريد لم يأخذا بنظام مخارج الحروف في ترتيب المعجم ، ذلك النظام الذي اهتدى إليه الخليل ، وإن أخذا من الخليل نظام الأبواب وتقليبات المادة . وقد كانت الانعطافة الكاملة الحقيقية عن منهج الخليل وتأثره هي تلك التي تحققت في القرن الرابع الهجري على يدي الجوهري في معجمه « الصحاح » .

(ا) — ١ : والجوهري هو أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري . يقال إنه ولد في سنة ٣٣٢ هـ ، واختلف في تاريخ وفاته ، فقيل إنه توفي في سنة ٣٩٣ هـ أو ٣٩٨ هـ أو في حدود الأربعمائة دون تعيين .

وفد إلى العراق ، وأخذ اللغة والنحو عن أبي علي الفارسي وأبي سعيد السيرافي ، وعن خاله أبي يعقوب إسحق بن إبراهيم الفارابي (وهو غير الفيلسوف

الأشهر أبي نصر الفارابي) [1] . على أن الجوهري لم يكتف بتحصيل اللغة عن طريق الرواية الصحيحة عن أعلامها ، بل رحل إلى البادية ، كما يفهم من مقدمة كتابه ، وشافه — كما يقول — العرب العاربة في ديارهم بالبادية ، لم يأل في ذلك جهدا . وكان الهدف من هذه الرحلة هو الاستيثاق من صحة ما تجمع لديه من مادة اللغة .

وبعد هذه الرحلة العلمية رحل الجوهري إلى خراسان ، ومنها إلى نيسابور حيث استقر به المقام ، وحيث مارس نشاطه في التأليف والتدريس .

وذات يوم اعترى الجوهري خاطر غريب فذهب إلى الجامع القديم بنيسابور وصعد إلى سطحه وقال : « أيها الناس إني قد عملت في الدنيا شيئا لم يغلب علي ، فسأعمل في الآخرة أمرا لم أسبق إليه » . وضم إلى جنبيه مصراعي باب ، وشدهما بخيط ، وصعد مكانا عاليا ، وزعم أنه يطير ، ولكنه وقع فمات [2] .

(ا) — ٢ : وفيما كان الجوهري في نيسابور ألف معجمه « الصحاح » لأبي منصور عبد الرحيم بن محمد البيشكي . ويذكر ابن الأنباري أن أبا منصور سمع منه إلى حرف الضاد ، وأن المعجم كله ظل على مسوّدته ، غير منقح وغير مبيض ، حتى وفاة الجوهري ، فبيضه أبو إسحق بن صالح الوراق بعد وفاته وغلط فيه في مواضع كثيرة [3] . وربما كان هذا الخبر اعتذارا عما أخذ على « الصحاح » فيما بعد من التصحيف الكثير والأخطاء .

وقد اختلف العلماء قديما في ضبط كلمة « الصحاح » ، أهي بكسر الصاد أم بفتحها . والصِّحاح بكسر الصاد جمع صحيح ، والصَّحاح بفتحها اسم

---

(١) انظر طبقات ابن الأنباري ، ص ٢٥٢ ـ ٢ .
(٢) انظر نفسه ، ص ٢٥٢ — ٣ .
(٣) نفسه .

مفرد معناه الصحيح . ولما كان الجوهري نفسه لم يرْوَ عنه ضبط للكلمة فقد شاع اسم « الصحاح » بالكسر على ألسنة الناس .

(ب) يؤرخ ظهور معجم الصحاح لتحول جوهري في تاريخ فن تصنيف المعاجم العربية . ولم تشع شهرته في الناس منذ ذلك الوقت . ولم يقبلوا على استنساخه واقتنائه ، إلا لأنه شق لنفسه بين المعاجم القديمة والمعاصرة له طريقا جديدا . ييسر على الباحث فيه سبيل الوصول إلى بغيته . وهذا بفضل النظام الجديد الذي اتبعه الجوهري في ترتيب مادته . هذا من جهة . ومن جهة أخرى يقول السيوطي بعد أن ذكر المعاجم التي سبقت « الصحاح » : « وغالب هذه الكتب لم يلتزم فيها مؤلفوها الصحيح . بل جمعوا فيها ما صح وغيره . وينبهون على ما لم يثبت غالبا . وأول من التزم الصحيح مقتصرا عليه الإمام أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري ؛ ولهذا أسمى كتابه بالصحاح »[1] . وإذن فقد جمع الصحاح إلى جانب نظامه الجديد الميسر الصحيح فحسب من مادة اللغة . وبهذا وذاك ذاعت شهرة الصحاح ، وكثر تداوله بين الناس . قال ياقوت الحموي في معجم الأدباء : « كتاب الصحاح هو الذي بأيدي الناس اليوم ، وعليه اعتمادهم . أحسن الجوهري تصنيفه . وجود تأليفه ، وقرب متناوله ؛ يدل وضعه على قريحة سالمة . ونفس عالمة . فهو أحسن من الجمهرة ، وأوقع من تهذيب اللغة ، وأقرب متناولا من مجمل اللغة ... »[2] .

(ج) : ولكن ما الجديد في نظام الصحاح ؟

رتب الجوهري مادة هذا المعجم على أساس ترتيب حروف الهجاء ، لا على أساس ترتيب مخارج الحروف الذي وضعه الخليل . وقد اعتبر الجوهري في هذا الترتيب آخر حروف المادة لا أولها . فإذا كانت الألف المهموزة تأتي الأولى في ترتيب هذه الحروف فإنه يبدأ معجمه بباب يجمع فيه كل المفردات

(١) المزهر : ١ / ٩٧ .
(٢) نفسه ١ / ٩٨ – ٩٩ .

التي تنتهي بألف مهموزة . ثم يقسم هذا الباب وفقا لعدد حروف الهجاء إلى ثمانية وعشرين فصلا . وهو في هذه الفصول يأخذ في الاعتبار مرة أخرى ترتيب حروف الهجاء ، كما يعتبر الحرف الأول من المادة . فإذا كان الحرف الأول هو كذلك الألف المهموزة فإنه يبدأ باب الهمزة بفصل الهمزة ، أي يبدأ بالكلمة التي تنتهي وتبدأ بهذا الحرف . أما الحرف أو الحروف التي قد تتبع الحرف الأول فإنه يتبع فيها أيضا نفس ترتيب حروف الهجاء . ومن ثم يبدأ الباب الأول (باب الألف المهموزة) بالفصل الأول (فصل الألف المهموزة) مع الالتزام بالترتيب الهجائي للحرف أو الحروف التي تتلوها . ومن ثم يبدأ هذا الفصل من ذلك الباب بمادة « أ جَ أ » ، يليها مادة « آ أ » . وبهذا ينتهي فصل الألف المهموزة لكي يبدأ الفصل التالي وهو فصل الباء من نفس الباب . وأول مادة في هذا الفصل هي « بَ أ بَ أ » ، تليها مادة « بَ دَ أ » ، تليها مادة « بَ ذَ أ » فمادة « بَ رَ أ » . وكان الترتيب يقتضي أن تليها مادة « بَ زَ أ » . ولكنها غير مستخدمة في اللغة ، ومن هنا فإن الجوهري يسقطها ويورد على الأثر مادة « بَ سَ أ » ، تليها « بَ ط أ » ... وهكذا حتى يصل إلى « بَ هَ أ » فينتهي بذلك فصل الباء من باب الألف المهموزة ، ويليه فصل التاء ففصل الثاء ففصل الجيم .. وهكذا حتى نصل إلى فصل الياء من باب الألف المهموزة فنجد فيها مادتين على التوالي هما (يَ أيَ أ » و (ىَ رْ نَ أ) . وهنا ينتهي فصل الياء من باب الألف المهموزة وينتهي معه الباب كذلك ، لكي يبدأ باب الباء . وأول فصل فيه هو فصل الألف طبعا ، فتكون أول مادة تطالعنا فيه هي مادة « أ ب » ، يليها « أ ت ب » ، يليها « أ د ب » ... وهكذا على نفس النظام الذي طالعنا في باب الألف .

وفي حالات المواد الرباعية والخماسية يراعى إلى جانب نظام الباب والفصل ترتيب الحرفين الثاني والثالث في الرباعي ، والثاني والثالث والرابع في الخماسي ، وفقا لترتيب حروف الهجاء الواحد بعد الآخر . ففي باب الدال فصل الضاض مثلا نجد مادة « ض د د » ، يليها الرباعي « ض ر غ د » (الضَرْغَد : جبل) ،

يليها الخماسي « ض ف ن د د » (الضَّفَنْدَد : الضخم الأحمق) ، ويعقبها الثلاثي « ض م د » . في الثلاثي الأول تلت الضاد (وهي عنوان الفصل) الدال . وفي المادة الرباعية تلتها راء ، وفي الخماسية فاء . وسقط ما بين الراء والفاء لعدم استخدامه . وهذه هي القاعدة السارية في كل الحالات .

(ج) — ١ : هكذا أفرد الجوهري لكل حرف من حروف الهجاء بابا . ولكنه جمع الواو والياء في باب واحد . ومن ثم فقد قدم الهاء على الواو . ثم اختتم المعجم بحرف الألف اللينة ، وهي الألف غير المهموزة ، وغير المنقلبة عن واو أو ياء . وهكذا صار معجم الصحاح مكونا من ثمانية وعشرين بابا . في كل باب (نظريا) ثمانية وعشرون فصلا . ونقول (نظريا) لأن مادة اللغة لها طبيعتها الخاصة ، إذ تكثر في باب وتقل في آخر . ومن ثم فإن معظم الأبواب يقل عدد فصولها عن ثمانية وعشرين . وأيضا فإن الباب الأخير — باب الألف اللينة — لا فصول فيه . ومن ثم فإن « مجموع ما يضم الصحاح من الفصول اثنان وثلاثون وستمائة فصل » [1] . أما عدد المواد اللغوية فيه فالمتواتر أنها بلغت أربعين ألف مادة .

(ج) — ٢ : وطريقة الكشف في الصحاح عن معنى مفردة من المفردات أن تبدأ بتجريدها من المزيد فيها من الحروف إن كانت مزيدة . فكلمة مثل (السُّبَات) تجرد أولا من أداة التعريف فتصبح (سبات) ، ثم تجرد من ألف المد لأنها مزيدة ، حيث إن الوزن الصرفي للكلمة هو فعال . وعندئذ يبقى صلب المادة وهو (س ب ت) ، وعندئذ تكشف عنها في باب التاء فصل السين فالباء .

وكذلك إذا كان هناك في الكلمة حرف مقلوب عن حرف آخر فلا بد أولا من رده إلى أصله حتى تتحدد حروف المادة الأصلية . فكلمة مثل كلمة (جَيِّد) هي على وزن (فيعل) . والياء الثانية التي تقابل عين الكلمة هي

(١) أحمد عبد الغفور عطار : مقدمة الصحاح — دار الكتاب العربي بمصر ١٩٥٦ — ص ١٢٩ .

مقلوبة عن واو ؛ فالكلمة إذن أصلها (جَيْوِد) واستثقلت الكسرة على الواو بعد الياء الساكنة فقلبت الواو ياء ثم أدغمت في الياء الأولى . وعلى هذا تصبح المادة في صورتها الأصلية هي (ج و د) . وعندئذ تبحث عنها في باب الدال فصل الجيم فالواو .

وقد نظم بعضهم طريقة الكشف في الصحاح فقال :

إذا رُمت كشفا في الصحاح لِلَفظة ‏ ‏ ‏ فآخرها للباب والبدءُ للفصلِ
ولا تعتمد في بدئها وأخيرها ‏ ‏ ‏ مزيدا ، ولكن اعتمادك للأصلِ

(د) هذا النظام الجديد الذي سار عليه الجوهري جعل معجمه كله نسقا واحدا فلا يضل الباحث الطريق فيه إلى بغيته .

وقد أورد السيوطي [1] طائفة من آراء علماء اللغة ومصنفي المعاجم في معجم الصحاح ، فيها كثير من التقريظ له ، وإن اتفقت في النهاية على وقوع كثير من الأخطاء فيه نتيجة التصحيف . ومن ثم وضعت الحواشي وصنفت الكتب التي تعقبت الصحاح في هذه الاخطاء .

ومع ذلك تبقى للصحاح مزاياه الكثيرة من حيث دقة نظامه وبساطته في الوقت نفسه ، ومن حيث دقته في ضبط الكلمات ، وإيراد الشواهد من الشعر والنثر الموثوق بصحتها للشرح والتوضيح ، وعنايته بالمسائل النحوية والصرفية إذا عرضت له . فقد كان ــ كما قالوا ــ أنحى اللغويين ، ثم نصه على ما هو عامي أو معرّب أو مولّد من الألفاظ ، وغير ذلك من مظاهر العناية والدقة والحرص.

ومع أن الجوهري أفاد في نظامه المبتكر من خاله أبي يعقوب الفارابي في كتابه المسمى « ديوان الأدب » فإنه من غير شك قد أصّل هذا النظام وحققه تحقيقا متميزا في معجمه ، ففتح بهذا النظام بابا دخل منه صاحبا أكبر معجمين جاءا بعده ، وهما ابن منظور في « لسان العرب » ، والفيروزبادى في « القاموس » .

---

(٢) المزهر ١ / ٩٧ – ٩٩ .

نموذج من الصحاح :

(جلد)

الجِلْدُ : واحد الجُلُودِ . والجِلْدَةُ أخصُّ منه . وأمّا قول الهذلي :

إذا تَجاوَبَ نَوْحٌ قامتا معــه ضَرْبًا أليماً بِسِبْتٍ يَلْعَجُ الجَلِدا

فإنّما كسر اللام ضرورةً ، لأنَّ للشاعر أن يحرك الساكن في القافية بحركة ما قبله ، كما قال :

عَلَّمَنا إخوانُنا بَنُو عِجِلْ
شُرْبَ النَّبيذِ واعْتِقالاً بالرِجِلْ

وكان ابنُ الأعرابيِّ يرويه بالفتح ويقول : الجِلْدُ والجَلَدُ ، مثل شِبْهٍ وشَبَهٍ ، ومِثْلٍ ومَثَلٍ ، وقال ابن السكيت : وهذا لا يُعْرَفُ .

وتَجْلِيدُ الجَزُورِ مثل سلخِ الشاةِ . يقال : جَلَّدَ جَزُورَهُ ؛ وقلّما يقال : سَلَخَ .

وفرسٌ مُجَلَّدٌ ، إذا كان لا يجزع من الضربِ .

وجَلَدَهُ الحَدَّ جَلْداً ، أي ضربه وأصاب جِلْدَهُ ؛ كقولك : رَأَسَهُ وبَطَنَهُ .

والمِجْلَدُ : قطعةٌ من جِلْدٍ تكون في يد النائحة تلطِم به وجهَها .

والجَلَدُ : جِلْدُ حُوَارٍ يُسْلَخُ فيُلبَس حُوَاراً آخر لتشَمَّه أمُّ المسلوخ فتَرْأَمَهُ . قال العجّاج :

وقد أرَاني لِلْغَوَانِي مِصْيَدا
مُلاوَةً كَـأَنَّ فوقِي جَلَدا

والجَلَدُ : الكبارُ من النوقِ التي لا أولادَ لها ولا ألبانَ ، الواحدة بالهاء . والجَلَدُ أيضاً : الأرضُ الصُلْبةُ . قال النابغة :

إلاَّ الأَوَارِيَّ لأْيـاً مـا أُبَيِّنُهـا
والنُؤْى كالحَوْضِ بالمَظْلُومَةِ الجَلَدِ

وكذلك الأَجْلَدُ . قال جرير :

أجالَتْ عليهـنَّ الرَوَامِسُ بَعْدَنَا
دُقَاقَ الحَصَى من كُلِّ سَهْلٍ وأجْلَدا

والجمع الأَجْلادُ والأَجَالِدُ .

والجَلَدُ : الصلابةُ والجَلادَةُ . تقول منه : جَلُدَ الرجلُ بالضم ، فهو جَلْدٌ وجَلِيدٌ ، بيِّن الجَلَدِ ، والجَلادَةِ ، والجُلُودَةِ ، والمَجْلُودِ ، وهو مصدرٌ مثل المحلوفِ والمعقولِ . قال الشاعر :

* واصْبِرْ فإنَّ أخا المَجْلُودِ مَنْ صَبَرَا *

وربما قالوا رجلٌ جَضْدٌ ، يجعلون اللام مع الجيم ضاداً إذا سكنَتْ . وقومٌ جُلْدٌ ، وجُلَداءُ ، وأجْلادٌ .

والتَجَلُّدُ : تكلُّفُ الجَلادَةِ .

والمُجَالَدَةُ : المبالطةُ . وتَجَالَدَ القومُ بالسيوف واجْتَلَدُوا

وأجْلادُ الرجلِ : جسمه وبدنه ، وكذلك تَجَالِيدُهُ .

والجَلْدَةُ : بالتسكين : واحدة الجِلادِ ، وهي أدسمُ الإبلِ لبناً والجِلادُ من النخلِ : الكبارُ الصلابُ . قال الشاعر سويد بن الصامت

أُدِينُ ومـا دَيْني عليكم بِمَغْرَمٍ
ولكنْ على الشُمِّ الجِلادِ القَرَاوِحِ

وشاةٌ جَلَدَةٌ ، إذا لم يكن لها لبنٌ ولا ولدٌ .

وفلانٌ جَلُودِيٌّ بفتح الجيم . قال الفراء : وهو منسوب إلى جَلُودٍ من قرى إفريقية ولا تقل الجُلُودِيُّ .

والجَلِيدُ : الضريبُ والسقيطُ ، وهو ندىً يسقُطُ من السماء فيجمُدُ لأرض . تقول منه : جُلِدَتِ الأرضُ ، فهي مَجْلُودةٌ .

وجُلَنْدَى . بضم الجيم مقصور : اسم ملك عمان .

(جلخد)

المُجْلَخِدُّ : المستلقِي الذي قد رمَى بنفْسه وامتدّ . قال ابن أحمر :

تَظَلُّ أمامَ بَيْتِكَ مُجْلَخِدّاً كما أَلْقَيْتَ بالسَّنَدِ الوَضِينا

يصفه بالكسل .

(جلعد)

الجَلْعَدُ : الصُلْبُ الشديدُ . والجُلاَعِدُ من الإبل : الشديد . قال مي :

صَوَّى لها ذا كِدْنَةٍ جُلاَعِدا
لم يَرْعَ بالأصْيَافِ إلاّ فارِدا

والجمع الجَلاَعِدُ بالفتح .
وجَلْعَدٌ : موضع من بلادقيس .

٤ - لسان العرب

لابن منظور

لسان العرب

لابن منظور

(ا) ابن منظور هو أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري الإفريقي ثم المصري . كان ينسب إلى رويفع بن ثابت الأنصاري . ولد في المحرم من سنة ٦٣٠ هـ ، وتلمذ لابن المقير ومرتضى بن حاتم وعبدالرحيم بن الطفيل ويوسف بن المخيلي وغيرهم. وكانت وفاته في سنة ٧١١ هـ.

عمل ابن منظور في ديوان الإنشاء طوال حياته ، وولى قضاء طرابلس ، وكان ميله إلى التشيع ولكن دون مغالاة ، كما كان محدثا ، فأخذ عنه كثيرون ، وكان عارفا بالنحو واللغة والتاريخ والكتابة ، فاضلا في الأدب ، مليح الإنشاء .

والغريب في أمر ابن منظور اهتمامه طوال حياته باختصار الكتب المطولة التي صنفت قبله ، فقد اختصر كتاب الأغاني وكتاب الذخيرة ومفردات ابن البيطار وتاريخ دمشق ، وكان لا يمل من ذلك . قال الصفدي: لا أعرف في الأدب وغيره كتابا مطولا إلا وقد اختصره . وكذلك يقال إن الكتب التي دونها بخطه من مختصراته بلغت خمسمائة مجلد . ونقول إن هذا الاهتمام بالتلخيص غريب لأنه حين صنف معجمه « لسان العرب » لم يحاول فيه

اختصار كتاب من كتب اللغة التي سبقته ، بل كان معجمه هذا أضخم وأوسع من كل المعاجم التي سبقته . ولكن ربما زالت هذه الغرابة عندما نعرف الطريقة التي جمع بها مادة هذا المعجمَ .

(ب) والآن ما الدافع الذي دفع ابن منظور إلى تصنيف معجمه ؟

يقول ابن منظور نفسه في مقدمته : « وإني لم أزل مشغوفا بمطالعات كتب اللغة والاطلاع على تصانيفها وعلل تصاريفها ؛ ورأيت علماءها بين رجلين : اما مَن أحسن جمعه فإنه لم يحسن وضعه . وأما من أجاد وضعه فإنه لم يجد جمعه ، فلم يفد حسن الجمع مع إساءة الوضع . ولا نفعت إجادة الوضع مع رداءة الجمع »[1] .

ومعنى هذا أنه شاء بوضعه هذا المعجم أن يجمع بين الحسنيين : بين إحسان الجمع وإحسان الوضع ، أي بين الاستقصاء في المادة وسلامة العرض . وقد ضرب مثلا بتهذيب اللغة للأزهري ، والمحكم لابن سيده ، على كتب اللغة التي توافرت في مادتها الدقة والإتقان ولكن عابها سوء الترتيب واختلاط التبويب . ومن جهة أخرى ضرب مثلا بصحاح الجوهري على حسن الترتيب والنظام ، وإن كان من حيث المادة مختصرا ، فضلا عما فيه من الخطأ والتصحيف .

ومن ثم جعل ابن منظور بين يديه خمسة مصادر من هذه الكتب ، جمع منها في معجمه أفضل ما فيها من حيث المادة والترتيب . وهذه المصادر الخمسة هي : التهذيب للأزهري ، والمحكم لابن سيده ، والصحاح للجوهري ، وحواشي ابن برّي على الصحاح ، والنهاية لأبي السعادات بن الأثير . وعلى هذه المصادر كان معوله في تصنيف معجمه . وكأنه قام بعملية توفيقية بين هذه المعاجم . وهو نفسه يقول : « فجمعت منها في هذا الكتاب ما تفرق ...

---

(١) مقدمة اللسان – طبعة دار صادر ببيروت – ص ٧ .

فانتظم شمل تلك الأصول كلها في هذا المجموع ... وأنا مع ذلك لا أدعي فيه دعوى فأقول : شافهت أو سمعت ، أو فعلت أو صنعت ، أو شددت أو رحلت ، أو نقلت عن العرب العرباء أو حملت ، فكل هذه الدعاوي لم يترك فيها الأزهري وابن سيده لقائل مقالا ... » [1]

فإذا عرفنا الآن هذه الحقيقة لم نعجب حين نجد « اللسان » قد طال حتى صار في عشرين جزءا [2] ، حيث شاء صاحبه أن يستوعب فيه ما اتفقت فيه تلك المصادر الخمسة وما تفرد به كل مصدر منها .

وهكذا لم يكن ابن منظور مبتكرا في معجمه لشيء ، أو مضيفا لشيء ، سوى أنه جعل من معجمه خزانة - كما يقول - للغة . ومن ثم فإنه يعفي نفسه من كل مسئولية علمية في هذا المعجم سوى صحة النقل عن المصادر . يقول : « فمن وقف فيه على صواب أو زلل ، أو صحة أو خلل ، فعهدته على المصنف الأول ، وحمده وذمه لأصله الذي عليه المعول ؛ لأنني نقلت من كل أصل مضمونه ، ولم أبدل منه شيئاً ... بل أديت الأمانة في نقل الأصول بالفص ، وما تصرفت فيه بكلام غير ما فيها من النص » [3] .

وهنا نعود فنقول إن هذا المنهج في التصنيف لا يختلف كثيرا في روحه واتجاهه عما غلب على ابن منظور من اتجاه إلى تلخيص الكتب الطوال في الأدب وغيره .

(ج) اختار بن منظور ترتيب مادة معجمه على نفس النظام الذي سار عليه من قبل الجوهري في صحاحه ، أي نظام الباب والفصل . ومن ثم فلا حاجة بنا هنا إلى تكرار وصف هذا النظام ، ما دام ابن منظور قد طبقه في معجمه

---

(١) مقدمة لسان العرب ، ص ٨ .
(٢) هذا في طبعة بولاق .
(٣) مقدمة اللسان ، ص ٨ .

بحذافيره ، دون أدنى تعديل أو تغيير أو زيادة أو نقصان . وكل ما هنالك من اختلاف بينهما لا يتعلق بهذا النظام ، بل بطبيعة المادة التي كانت متوافرة لدى ابن منظور . ومن ثم فإننا نراه في بعض الأحيان يعقد فصلاً تمهيدياً ، قد يطول وقد يقصر ، يتحدث فيه عن الحرف الذي يعقد له الباب . وأنت تطالع شيئاً من هذا منذ اللحظة الأولى في المعجم ، حيث صدّر الباب الأول ، باب الألف المهموزة ، بحديث طويل عن الهمزة . وهو في هذا الحديث كذلك ينقل عن الأزهري ، وأبي العباس أحمد بن يحيى ، والزجّاج عن سيبويه والخليل بن أحمد ، وأبي زيد الأنصاري . فهو يجمع مادة هذا التمهيد من مصادره الأساسية من جانب ، ومن أقوال علماء النحو من جانب آخر .

وكذلك وضع ابن منظور بين يدي المعجم كله فصلين تمهيديين جاءا تاليين لمقدمته . وقد تناول في الأول منهما تفسير الحروف المقطعة ، التي وردت في أوائل بعض سور القرآن الكريم . وكان الأزهري قد عقد مثل هذا الفصل في نهاية معجمه « تهذيب اللغة » . فآثر ابن منظور أن يصدر به معجمه ، تبركاً ، وتقريباً لها بين يدي المطالع . أما الفصل الثاني فقد تناول فيه ألقاب الحروف وطبائعها وخواصها . ومادة الفصل الأول كلها ، ومادة الجزء الأول من الفصل الثاني ، مجموعة من أقوال علماء اللغة والنحو ، أما الجزء الأخير فقد تطرق فيه إلى الدلالات والاستخدامات السحرية للحروف ، فكان اعتماده هنا على أبي الحسن علي الحرالي وأبي العباس أحمد البوني والبعلبكي وغيرهم ممن صنفوا الكتب في السحر .

وعلى الجملة فليس في هذين الفصلين جديد ، ولاهما يغنيان عن المصادر التي أخذت مادتهما منها ، ثم إنهما آخر الأمر لا يفيدان المعجم نفسه في قليل أو كثير .

ويبقى بعد هذا ما يتعلق بمادة المعجم نفسه ؛ فقد بلغ عدد المواد اللغوية التي ضمها معجم لسان العرب ثمانين ألف مادة ، أي ضعف ما في معجم

الصحاح للجوهري ، وأكثر بعشرين ألف مادة من المعجم الذي جاء بعده ، وهو معجم القاموس المحيط للفيروزبادي [1] . ولكن تفوق لسان العرب في كثرة مواده يرجع — كما مر بنا — إلى أنه جمع من مصادره الخمسة ما انفرد به كل منها من مواد .

وقد قلنا إن ابن منظور بسط أمامه مصادره الخمسة الرئيسية وأخذ من كل منها أفضل ما فيها . فإذا كان ابن سيده في « المحكم » قد حاول اتباع نظام بعينه لصيغ المادة اللغوية ، وإن لم يحققه دائماً على الوجه الأكمل ، فقد تابعه ابن منظور في تنسيق صيغ المادة ، ولكنه يضطرب حين يضطرب النظام لدى ابن سيده . فابن سيدة يذكر الفعل وتصاريفه في الماضي والمضارع والمصدر والصفة منه . ويذكر الاسم في الإفراد والجمع ، سواء أكان جمع قلة أو جمع كثرة أو جمعاً شاذاً . وهو يذكر كل هذا في حالة المادة مجردة ، ثم يتبعه بصيغ المزيد . ولكن لما كان ابن منظور يستمد مادته من « المحكم » وغيره فإنه — كابن سيده نفسه — لم ينجح دائماً في الالتزام بهذا النظام ، بل كثيراً ما اضطربت صيغ المادة عنده أو تفرق تفسيرها ، وذلك نتيجة لحشوه هذه المادة بنقول من المصادر الأخرى .

وعلى سبيل المثال نجده في مادة « ثَلَبَ » يبدأ بتصريف الفعل في صورته المجردة ، في الماضي والمضارع والمصدر ، ثم يذكر المفرد وجمعه ، ثم الصفة منه للشيء ، فالصفة منه للشخص ، وجمع هذه الصفة . ثم ذكر المزيد بالتضعيف (ثَلَّبَ تثليبا) وعاد منه إلى المجرد في صيغة الصفة للشخص (ثِلْبٌ) مرة أخرى فاستنفد معانيها ، ومنها انتقل إلى تصريف جديد لصيغة الثلاثي (ثَلِبَ ثَلَباً فهو ثَلِب) ومنها إلى المزيد بالياء (الثَّلِيب) فذكر له معنى ، ثم انتقل إلى مزيد آخر هو (الإِثْلِب والأَثْلَب) ، وبعد أن استوفى معانيه عاد إلى (الثَّلِيب) مرة أخرى فزاد في إيضاح معناه الذي أورده من

---

(١) انظر القاموس المحيط للفيروزبادي — ط المكتبة التجارية بمصر — مقدمة الهوريني ، ص ذا .

قبل . ثم مرة أخرى يعود إلى صيغة الصفة من الثلاثي (ثِلْبٌ) فيذكر أنها لقب رجل ، ثم يختم المادة بصيغة (الثّلَبُوت) المزيدة . فأنت تلاحظ في كل هذا محاولة للتنظيم يشوبها الاضطراب ، إذ ترد صيغة (ثِلْب) ثلاث مرات : مرة في أوائل المادة ، ومرة في وسطها ، ومرة قرب نهايتها . وهذا من شأنه أن يشتت المعاني المختلفة للكلمة الواحدة في المادة كلها . فيلزم الباحث عن معانيها قراءة المادة من أولها إلى آخرها حتى لا يند عنه معنى من معانيها .

(د) ولما كان معجم « لسان العرب » موسوعة فيما اشتمل عليه من مادة لغوية وأدبية ، بما تضمنه من شواهد من الشعر والحديث الشريف ، وبما قدم من شرح مسهب للمادة يعكس كثيراً من مظاهر حياة اللغة العربية وحياة المجتمع العربي ، على نحو يجعله مفيداً لا في المجال المعجمي المحدود بل في مجالات علمية كثيرة منوعة — لما كان كذلك فقد برزت في العصر الحديث محاولتان لتيسير الإفادة منه ، عن طريق إضفاء الطابع العصري على نظامه في عرض المادة .

أما المحاولة الأولى فهي التي قام بها عبدالله إسماعيل الصاوي ، واستهدف بها ترتيب مواد اللسان وفقاً للترتيب الهجائي ، مع تصحيح ما قد يكون ابن منظور قد وقع فيه من أخطاء . ولكن ظلت صيغ كل مادة بلا ترتيب . وقد طبعت بضع أجزاء صغيرة من هذه المحاولة في سنة ١٣٥٥ هـ ثم توقفت .

أما المحاولة الثانية فكانت أكثر تقدماً ، إذ ذهب فيها صاحبها محمد النجاري إلى ترتيب ألفاظ اللسان جميعاً على حروف الهجاء ، مسقطاً بهذا نظام ترتيب المواد ، واضعاً اللفظ — سواء أكان مجرداً أم مزيداً — في موضعه وفقاً لترتيب حروفه جميعاً . وفي هذه الحالة لا يحتاج الباحث فيه إلى أكثر من معرفة ترتيب الحروف الهجائية ، شأنه في هذا شأن كثير من المعاجم الأجنبية الحديثة . ولكن لم يكتب لهذه المحاولة أن ترى النور بعد .

نموذج من لسان العرب :

نجب : في الحديث : إنَّ كلَّ نَبِيٍّ أُعْطِيَ سبعة نُجَبَاءَ رُفَقَاءَ . ابن الاثير : النَّجِيبُ الفاضلُ من كلِّ حيوانٍ ؛ وقد نَجُبَ يَنْجُبُ نَجابةً إذا كان فاضلاً نَفيساً في نوعه ؛ ومنه الحديث : إن الله يُحِبُّ التاجِرَ النَّجِيبَ أي الفاضل الكَرِيم السَّخِيَّ . ومنه حديث ابن مسعود : الأَنْعامُ من نَجائبِ القُرْآنِ ، أو نواجِبِ القرآن أي من أفاضل سُوَرِه . فالنَّجائبُ جمع نَجِيبة ، تأنيثُ النَّجِيب . وأما النَّواجِبُ : فقال شَمِر : هي عِتاقُه ، من قولهم : نَجَبْتُهُ إذا قَشَرْتَ نَجَبَه ، وهو لِحاؤه وقِشْرُه ، وتَرَكْتَ لُبابَه وخالصَه . ابن سيده : النَّجِيبُ من الرجال الكَرِيمُ الحَسِيبُ ، وكذلك البعيرُ والفرسُ إذا كانا كريمين عَتِيقَين ، والجمع أنْجاب ونُجَباء ونُجُبٌ . ورجل نَجِيبٌ أي كريم ، بَيِّنُ النَّجابة. والنُّجَبَةُ ، مثال الهُمَزَة : النَّجِيبُ . يقال : هو نُجَبَةُ القَوم إذا كان النَّجِيبَ منهم .

وأَنْجَبَ الرجلُ أي وَلَدَ نَجِيباً ؛ قال الشاعر :

أَنْجَبَ أَزْمانَ وَالِـداهُ بِـهِ
إذ نَجَلاهُ ، فنِعْمَ مـا نَجَـلا

والنَّجِيبُ من الإبل ، والجمع النُّجُبُ والنَّجائب. وقد تكرر في الحديث ذِكْرُ النَّجِيبِ من الإبل ، مفرداً ومجموعاً ، وهو القويّ منها ، الخفيف السريع . وناقَةٌ نَجِيبٌ ونجيبةٌ .

وقد نَجُبَ يَنْجُبُ نَجابةً ، وأَنْجَبَ ، وأَنْجَبَتْ المرأةُ ، فهي مُنْجِبةٌ ، ومِنْجابٌ : وَلَدَتِ النُّجَبَاء ؛ ونسوةٌ مَناجِيبُ ، وكذلك الرجلُ .

يقال : أَنْجَبَ الرجلُ والمرأةُ إذا ولدا ولداً نَجِيباً أي كَرِيماً . وامرأة مِنْجابٌ : ذات أولادٍ نجباء . ابن الأعرابي : أَنْجَبَ الرجلُ جاءَ بولد

نجيب . وأنجَبَ : جاءَ بولد جَبانٍ ، قال : فمن جعله ذَمّاً ، أخَذَه من النَّجَب . وهو قِشْرُ الشجر .

والنّجابةُ : مَصْدَر النّجيب من الرِّجال . وهو الكريم ذو الحَسَب إذا خرَج خروجَ أبيه في الكرَم ؛ والفعْلُ نَجُبَ يَنْجُبُ نَجابةً . وكذلك النّجابةُ في نجائبِ الإبل . وهي عِتاقُها التي يُسابَقُ عليها . والمُنْتَجَبُ : المُختارُ من كل شيءٍ ؛ وقد انْتَجَبَ فلانٌ فلاناً إذا اسْتَخْلَصَه . واصْطَفاه اخْتياراً على غيره .

والمِنْجابُ : الضعيف ، وجمعه مَناجيبُ ؛ قال عُرْوة ابنُ مُرَّة الهُذَلي :

بَعَثْتُه في سَوادِ اللّيل يَرْقُبُني
إذ آثر النّومَ والدِّفءَ المَناجيبُ

ويروي المَناخيبُ . وهي كالمَناجيب ، وهو مذكور في موضعه . والمِنْجابُ من السهام : ما بُرِيَ وأُصلِحَ ولم يُرَشْ ولم يُنْصَلْ ، قاله الأصمعي . الجوهري : المِنْجابُ السّهْمُ الذي ليس عليه ريش ولا نَصلٌ . وإناءٌ مَنْجُوبٌ : واسعُ الجوف ، وقيل : واسع القَعْر ، وهو مذكور بالفاء أيضاً ؛ قال ابن سيده : وهو الصواب ؛ وقال غيره : يجوز أن تكون الباء والفاء تعاقبتا ، وسيأتي ذكره في الفاء أيضاً .

والنّجَبُ . بالتحريك : لِحاءُ الشّجَرِ ؛ وقيل : قِشْرُ عروقها ؛ وقيل : قِشْرُ ما صَلُبَ منها . ولا يقال لِمَا لانَ من قُشُور الأغصانِ نَجَبٌ ، ولا يقال : قِشْرُ العُروق . ولكن يقالُ : نَجَبُ العُروق ؛ والواحدة نَجَبَةٌ .

والنّجْبُ ، بالتسكين : مصدر نَجَبْتُ الشجرة أنْجُبُها وأنجِبُها إذا أخذت قِشرَة ساقِها .

ابن سيده : ونَجَبه يَنْجُبُه، ويَنْجِبُه نَجْباً ، وأَنْجبه تَنْجِياً ، وانْتَجَبَه : أَخذه . وذهَبَ فلانٌ يَنتَجبُ أي يجْمَعُ النَّجَبَ . وفي حديث أُبَيّ : المُؤمنُ لا تُصيبُه ذَعْرة ، ولا عَثْرة ، ولا نَجْبَةُ نملة إلاَّ بذَنْب ؛ أي قَرْصَةُ نملة ، مِن نَجَبَ العُودَ إذا قَشَرَه ؛ والنَّجَبَةُ ، بالتحريك : القِشرَةُ . قال ابن الأثير : ذكره أبو موسى ههنا ، ويروى بالخاءِ المعجمة ، وسيأْتي ذكره ؛ وأما قوله :

يا أَيُّها الزاعِمُ أَني أَجْتَلِبْ
وأَنني غَيرَ عِضاهِي أَنْتَجِبْ

فمعناه أَني أَجْتَلِبُ الشِّعْرَ من غَيري ، فكأَني إنما آخُذُ القِشْرَ لأَدْبُغَ به من عِضاهِ غير عِضاهي .

الأَزهري : النَّجَبُ قُشورُ السِّدْر ، يُصْبَغُ به ، وهو أَحمر . وسِقاءٌ مَنْجوبٌ ونَجَبِيٌّ : مدبوغ بالنَّجَب ، وهي قُشور سُوق الطَّلْح ، وقيل : هي لِحاءُ الشَّجَر ، وسِقاءٌ نَجَبِيٌّ .

وقال أَبو حنيفة ، قال أَبو مِسْحَلٌ : سقاء مِنْجَبٌ مدبوغ بالنَّجَب . قال ابن سيده : وهذا ليس بشيء ، لأَن مِنْجَباً مِفْعَلٌ ، ومِفْعَلٌ لا يُعَبَّرُ عنه بمفعول . والمَنجوبُ : الجِلْدُ المدبوغ بقُشُورُ سُوق الطَّلْح . والمَنْجُوب : القَدَحُ الواسِع .

ومِنْجاب ونَجَبَةُ : اسمان . والنَّجَبَةُ : موضع بعينه ، عن ابن الأَعرابي ، وأَنشد :

فنحنُ فُرْسانٌ غَداةَ النَّجَبَهْ ،
يومَ يَشُدُّ الغَنَوِيُّ أَرْبَـــهْ ،
عَقْداً بعَشْرِ مائةٍ لَـــنْ تُتْعِبَهْ

قال : أَسَرُوهمْ ، ففَدَوْهم بأَلفِ ناقةٍ .

والنَّجْبُ : اسم موضع ؛ قال القَتّالُ الكِلابي :

عَفا النَّجْبُ بَعْدي فالعُرَيْشان فالبُتْرُ
فبُرْقُ نِعاجٍ من أُمَيْمَــةَ فالحِجْرُ

ويومُ ذي نَجَبٍ : يومٌ من أيام العرب مشهور .

٥ - القاموس المحيط
لمجد الدين الفيروز بادى

القاموس المحيط

لمجد الدين الفيروزبادي

(أ) — : هو محمد بن يعقوب بن محمد بن ابراهيم بن عمر الشيرازى مجد الدين أبو طاهر الفيروزبادى . ولد سنة ٧٢٩ ببلدة كارزين بفارس : « وكانت ولادته بعد وفاة صاحب لسان العرب بثمانية عشرة سنة . »[١] حفظ القرآن وهو ابن سبع ثم انتقل إلى شيراز وأخذ عن علمائها . وبعدها رحل إلى العراق فالقاهرة ثم طاف في بلا د الشام وبلاد الروم وبلاد الهند ، وكان يقابل في كل بلد كل من عرف بعلمه . وفي عام ٧٩٦ رحل إلى زبيد فتلقاه سلطان اليمن الأشرف اسماعيل وبالغ في إكرامه وولاه قضاء اليمن .

وتوفي الفيروزبادى بزبيد في اليمن عام ٨١٧ ، وكان ما يزال يعمل بها قاضياً . وقد قال ابن حجر العسقلاني : « اجتمعت بالمجد اللغوي في زبيد وفي وادى الخصيب ، وناولني جل القاموس وأذن لي وقرأت عليه من حديثه ، وكتب لي تقريظاً على بعض تخاريجي وأنشدني لنفسه سنة ثمانمائة بزبيد . »[٢]

(١) مجد الدين الفيروزبادي : القاموس المحيط — المكتبة التجارية — مصر — انظر المقدمة الثانية للهوريني — جـ ١ ص ٣ .

(٢) نفسه — مقدمة الهوريني الثانية : ص ٤ .

(ا) — : وممن أخذ عنهم مجد الدين الصلاح الصفدى والبهاء بن عقيل والكمال الأسنوى والتقى السبكى وابن القيم .

ومن تصانيفه : تسهيل الوصول إلى الأحاديث الزائدة على جامع الأصول ، والإصعاد إلى رتبة الإجتهاد ، وشرح مطول على التجارى بلغ عشرين سفرا ، وشوارق الأسرار في شرح مشارق الأنوار . والروض المسلوف فيما له اسمان على الألوف ، وتحبير الموشين فيما يقال له بالسين والشين .

ب — وقد بدأ مجد الدين معجمة بالحمد لله والصلاة على نبيه ، ثم شرح السبب الذي دفعه إلى تأليف معجمة ، فذكر أهمية اللغة في دراسة العلوم العربية وفي مقدمتها القرآن والحديث والشريعة . ثم يقول : « وإني قد نبغت في هذا الفن قديماً وصبغت به أديماً ، ولم أزل في خدمته مستديماً ، وكنت برهة من الدهر ألتمس كتاباً جامعاً بسيطاً ومصنفاً على الفُصَح والشوارد محيطاً ، ولما أعياني الطلاب ، شرعت في كتابي الموسوم باللامع المعلم العُجاب ، الجامع بين المحكم والعباب ، فهما غُرَّتا الكتب المصنفة في هذا الباب . ونَيِّرًا براقع الفضل والآداب ، وضممت إليها زيادات امتلأ بها الوطاب ، واعتلى منها الحطاب ، ففاق كل مؤلف في الفن هذا الكتاب . »[1]

حـ — ويفهم من هذا القول أن مجد الدين قد اعتمد أساساً في كتابه على معجمين أساسيين هما « العباب » للصغاني (٥٧٧ — ٦٥٠ هـ) « والمحكم » لابن سيدة (٣٩٨ — ٤٥٨ هـ) . والسبب في اعتماده على هذين المعجمين ، على الرغم من أنهما ينتميان إلى مدرستين مختلفتين ، إذ أن كتاب « المحكم » سار على نهج كتاب العين في ترتيب الحروف حسب المخارج ، في حين أن كتاب « العباب » سار على نهج المدرسة الثالثة في ترتيب المعجم . أي وفقاً لترتيب حروف الهجاء — السبب في هذا يرجع إلى عناية كل من هذين المعجمين باستيفاء مادته عن المعاجم التي سبقتهما ، فابن سيدة فاق الخليل والأزهري من مواده ،

---

(١) القاموس المحيط : انظر مقدمة المؤلف ص ٣ .

إذ لجأ « إلى جمع المشتت من المواد اللغوية في الكتب والرسائل في كتاب واحد يغني عنها جميعاً ، ويصحح « ما فيها من آراء نحوية خاطئة . »[1] وأما الصغاني فيقول في مقدمة كتاب « العباب » : أؤلف كتابا في لغة العرب يكون إن شاء الله تعالى جامعا شتاتها وشواردها ، حاوياً مشاهير لغاتها وأوابدها ، يشتمل أداني التراكيب وأقاصيها ، ولا يغادر منها – سوى المهملة – صغيرة ولا كبيرة إلا وهو يحصيها . »[2]

على أنه من المعروف أن صاحب كتاب « العباب » كان قد عني بصحاح الجوهري ، وعكف على دراسته وبحثه والتعليق عليه ، فلما شاء أن ينفرد بمعجم سار على منهج الصحاح في ترتيب مواده وأبوابه وفصوله . ولكنه اختلف عنه في عدد مواده التي فاقت مواد الصحاح كثيرا .

وقد كان كتاب الصحاح قد شاع ذكره آنذاك ، وكان إقبال الناس عليه كثيراً . وربما رأى مجد الدين أن الصحاح قد حظي بمكانة أكبر مما يستحق « إذ كان فيه ، من وجهة نظره ، قصور في المادة ومباحثها . ولهذا فقد شاء أن يضع كتاب الصحاح في المكانة الجدير بها عن طريق ما أبرزه في كتابه من مواد لم ترد في الصحاح . وقد لجأ في ذلك إلى طريقة كتابة هذه الكلمات الزائدة بحبر أحمر حتى يتبين للعلماء ما في كتاب الصحاح من نقص ، هذا فضلا عن أنه أشار في ثنايا معجمه إلى بعض أخطائه . ومعنى هذا أن مجد الدين تعامل مع الصحاح على نحو خاص ليضع كتابه في مرتبة أعلى من كتاب الصحاح . يقول : « ولما رأيت إقبال الناس على صحاح الجوهري ، وهو جدير بذلك ، غير أنه فاته نصف اللغة أو أكثر ، إما بإهمال المادة أو بترك المعاني الغريبة النادّه ، أردت أن يظهر للناظر بادىء بدء فضل كتابي هذا عليه ، فكتبت بالحمرة المادة المهملة لديه . وفي سائر التراكيب تتضح المزية بالتوجه إليه . ولم أذكر

(١) المعجم العربي : ١ / ٢٧٢ .

(٢) نفسه : ٢ / ٥٣٠ .

ذلك إشاعة للمفاخر ، بل إذاعة لقول الشاعر : كم ترك الأول للآخر . »[1]

ولما رأى الفيروزبادى أن معجمة سيصل بحجمه إلى ما هو فوق المألوف – لجأ إلى اختصاره . يقول : « غير أني خمنته في ستين سفراً يُعْجز تحصيلُه الطلاب ، وسئلت تقديم كتاب وجيز على ذلك النظام . وعمل مفرغ في قالب الإيجاز والإحكام . مع التزام إتمام المعاني وإبرام المباني ، فصرفت صوب هذا القصد عناني ، وألفت هذا الكتاب محذوف الشواهد مطروح الزوائد ، معرباً عن الفُصح والشوارد . »[2]

ثم سماه بعد ذلك « القاموس المحيط » ، ومعناه كما يقول : « البحر الأعظم . »

ويقال إن « القاموس المحيط » جمع ستين ألف مادة ، وقد زاد على الجوهري بعشرين ألف مادة . أما ابن منظور فقد زاد عليه في « لسان العرب » عشرين ألف مادة .[3] والواقع أن من يتصفح معجم القاموس المحيط يجد أن الكلمات التي لم ترد في كتاب الصحاح ، وهي التي يظهر فوقها خط في النسخة المطبوعة ، يجدها كثيرة . ولهذا فقد قيل في القاموس عند ظهوره :

مذ مدّ مجد الدين في أيامه
من بعض أبحر علمه القاموسا
ذهبت صحاح الجوهري كأنها
سحر المدائن حين ألقى موسى

د– ينبع مجد الدين في ترتيب ألفاظ معجمه الترتيب بعينه الذي اتبعه الصحاح ولسان العرب من قبل ، أي أن معجمة يشتمل على ٢٨ بابا حسب ترتيب حروف الهجاء لأواخر الكلمات . وكل باب ينقسم إلى فصول تشير إلى أوائل

(١) القاموس المحيط : انظر مقدمة المؤلف ص ٣ .
(٢) نفسه : مقدمة المؤلف ص ٣ .
(٣) نفسه : مقدمة الموريني الأولى ، ص ١٦ .

الكلمات التي ترتب أيضاً حسب ترتيب حروف المعجم . وليس من الضروري . كما ذكرنا في حديثنا عن صحاح الجوهري ، أن تصل عدد الفصول إلى ثمانية وعشرين فصلا . إذ قد يسقط من الفصول ما يبدأ بلفظ لا ينسجم مع آخر حرف في الكلمة ولم يرد في لغة العرب . ومثال ذلك أن باب الظاء عنده سقط منه عشرة فصول وهي : التاء والثاء والذال والزاى والسين والصاد والضاد والطاء والظاء والهاء ، لأن الألفاظ التي تبدأ بهذه الحروف وتنتهى بالظاء لم ترد في كلام العرب . وقد أسقط الصحاح هذه الفصول من قبل مضافا إليها فصل الألف وفصل الخاء .

ويتسلسل المعجم بمادته بادئاً بالثنائى فالثلاثى فالرباعى ، ومراعيا الحرف الثاني والثالث للمادة . فإذا بدأ على سبيل المثال بمادة « خب » في باب الباء فصل الخاء ذكر مشتقاتها مثل الحبب . فخَبْخَبَ فالخَبَخْبَةُ . فإذا استنفد كل مشتقات هذه المادة . بدأ مادة أخرى تحت باب الباء وفصل الخاء أيضاً ، ولكن الحرف الثاني فيها يلي الباء وهو التاء . فيذكر مادة خُتْرب ، فإذا فرغ منها ذكر مادة خَدَب فخرب وهكذا .

ويظهر في ترتيبه الداخلي للمادة كذلك تقديم الصيغ المجردة وتأخير المزيدة ، ثم تأخير أسماء الأعلام والقبائل .

وإذا كانت الصيغة فعلاذكر الماضي فالمضارع والمصدر . فإذا كانت أسماء ذكر الجمع وجمع الجمع أحياناً . فيقول مثلا في مادة « الجأ » جاءُ بالمسد الهزيمة وكهدهد الصَّدْرُ والجمع الجآجيء [(١)]. ويقول في مادة « برأ » «برأ الله الخلق كجعل بَرْأ وبُرُوأ . خلقهم . والمريض يَبْرَأُ ويَبْرُ وَبُرْأ بالضم وبُرُوأ . وبَرؤَ ككَرُمَ وفَرِحَ بَرْأً وبُرْأً وبُرْأ . نقه . وأبرأه الله فهو بارىء وبَرِىء » .[(٢)]

---

(١) القاموس المحيط : ١ / ٩ .

(٢) نفسه ١ / ٨ .

وقد اهتم مجد الدين بذكر الأعلام والمحدثين والفقهاء منهم بصفة خاصة . وهو يذكر أسماءهم ضمن إيراده لمعاني المفردات ومشتقاتها . يقول على سبيل المثال في مادة « بَجَّ » : « تَبَجْبَجَ لحمه ، كثر واسترخى . ورجل بُجَابِجٌ كعُلابِط ، بادن . ورمل بُجْبَاجٌ ، مجتمع ضخم . وبُجْبُجُ بنُ خداسٍ كقُنْفُذ ، محدث مغربيّ . » (١)

وفي مادة البُرْجُ « يقول : » وبُرْجَة فرس سنان بن أبي حارثة ، د بالمغرب منه المقرىء على بن محمد الجذامى البُرْجِيّ . » (٢) والحرف « د » هنا إشارة إلى كلمة « بلد » وهي وسيلة اتبعها صاحب القاموس للإختصار . فإذا ذكر الحرف « د» فهو يعني بلد ، وإذا ذكر الحرف « ع » فهويعني موضع ، وإذا ذكر الحرف « ة » فهو يعني قرية ، وإذا ذكر « ج » فهو يعني الجمع . وإذا ذكر « م » فيعني معروف . فهذه الرموز الخمسة استخدمها على نطاق واسع في معجمه للإختصار . وقد ذكر ذلك في مقدمته بوصفها أحد الأمور التي اختص بها القاموس . أما الأمور الأخرى فهو يلخصها في قوله : « ومن أحسن ما اختص به هذا الكتاب تخليص الواو من الياء » . (٣) فهو يكتب صورة الواو ويذكر مادته ثم يصور الياء ويتبعها بالياثى ، وذلك نحو « أتا » فإنه استعمل في كلامهم مادة الأتو وهو الإستقامة في السير ، ومادة الأتْي بالتحتية وهو الاتيان والمجىء . » (٤)

« ومنها أني لا أذكر ما جاء من جمع فاعل المعتل العين على فَعَلَة إلا أن يصح موضع العين منه كجَوَلَة وحَوَلَة . وأما ما جاء منه معتلا كباعة وسادة فلا أذكره لاطراده » (٥) «بين المادتين جَوَلَة وخَوَلة قد تحركتا ، ولذلك فقد

ألحقها بالصحيح وإن كان فعلهما في الأصل معتلا وهو جال وخال . وأما الجمع الذي يجيء من اسم الفاعل المعتل العين مغيراً بالإبدال كباعة وسادة فلا يذكره لاطراده أي لكونه مقيسا مشهوراً .

ومن الأمور التي تميز معجمة كذلك ونص عليها في مقدمته قوله : « ومن بديع اختصاره وحسن ترصيع تِقْصَاره ، أنيّ إذا ذكرت صيغة المذكر اتبعتها بالمؤنث بقولي وهي بهاء . » [1]

ومن أهم ما يميز القاموس المحيط حرصه على الضبط ، فالمشهور والمفتوح يتركهما ، وما عدا هذا يضبطه بذكر لفظ مشهور . وكثيرا ما يعتمد على الأوزان في الضبط ، فيقول مثلا : لجأ كمنعَ وفرِح . ومتأه بالعصى كمنعه وضربه. وقَرُءَ ككَرُمَ . وهكذا .

ولعلنا نرى إلى أي حد كان الفيروزبادي حريصاً على إخراج معجمه في صورة شاملة متقنة ، فهو وإن كان قد حذف الشواهد بغية الإختصار . كان حريصاً على الإحاطة بمعنى اللفظ ومشتقاته ، كما كان حريصاً على التنسيق الداخلي في معجمة ، بحيث لم يفته قط التصاريف والمشتقات .

أي أن الفيروزبادي لم يكن يضع نصب عينيه الرصيد اللغوي للمعجم . وما إذا كان هذا الرصيد عربياً فصيحا أم غير فصيح إلى غير ذلك، فحسب، بل كان يصنع نصب عينيه مسألة الكشف في معجمه والتيسيرات التي يمكن أن يقدمها للباحث بحيث تجعله يكشف عن مادته في يسر ويحيط في الوقت نفسه إحاطة كافية بكل ما يتصل بالمادة لغوياً من مباحث .

---

(١) نفسه .

نموذج من القاموس المحيط :

(فصل الشين) (الشَّبَحُ) محرَّكاً الشخصُ ويُسكَّنُ ج أشباحٌ وشُبوحٌ والشَّبْحانُ الطويلُ ورجلٌ شَبْحُ الذِّراعَيْنِ ومَشْبوحُهُما عريضُهُما وقد شَبُحَ ككَرُمَ وكمَنَعَ شَقَّ والجلدَ مَدَّهُ بين أوتادٍ والدّاعِي مَدَّ يدَهُ للدُّعاءِ وفلانُ لتامثَّلَ والشَّبْحُ ويُحرَّكُ البابُ العالي البناءِ وأشباحُ مالِكَ ما يُعرَفُ من الابلِ والغنمِ وسائرِ المواشي والمُشَبَّحُ كمُعظَّمٍ المَكْشورُ والكِساءُ القويُّ وشبَّحَ تشبيحاً كبَرَ فرأى الشبحَ شبحَيْنِ والشيءَ جعلَهُ عريضاً والشَّبَحانُ محركةً خشبتا المِنقَلةِ والشَّبائحُ عيدانٌ معروضةٌ في القَتَبِ وككتّانٍ وادٍ بأجاً (الشُّحُّ) مُثلَّثةً البُخْلُ والحِرْصُ شَحِحْتَ بالكسر به وعليه تَشَحُّ وشَحَحْتُ تَشُحُّ وتَشِحُّ وهو شَحاحٌ كسَحابٍ وشَحيحٌ وشَحِيحٌ وشَحْشاحٌ وشَحْشَحانٌ وقومٌ شِحاحٌ وأشِحَّةٌ وأشِحّاءُ والشَّحْشَحُ الفلاةُ الواسعةُ والمُواظِبُ على الشيءِ كالشَّحْشاحِ والسَّيِّىءُ الخُلُقِ والخَطيبُ البليغُ والشجاعُ والغَيُورُ كالشَّحْشاحِ والشَّحْشَحانِ ومن الغِرْبانِ الكثيرُ الصَّوْتِ ومن الأرضِ مالا يَسيلُ الامن مَطَرٍ كثيرٍ كالشَّحاحِ والذي يَسيلُ من أدْنى مَطَرٍ ضِدٌّ ومن الحَميرِ الخَفيفُ ويضمّ ومن القَطا السَّريعةُ والطويلُ كالشَّحْشَحانِ والشَّحْشَحَةُ الحَذَرُ وصَوْتُ الصُّرَدِ وتَرَدُّدُ البَعيرِ في الهَديرِ والطَّيَرانُ السَّريعُ والمُشاحَّةُ الضِنَّةُ وتشاحّاً على الأمرِ لا يُريدانِ أن يَفوتَهُما والقومُ في الأمرِ شَحَّ بعضُهم على بعضٍ حَذَرَ فَوْتِهِ وأمرأةٌ شَحْشاحٌ كأنَّها رجلٌ في قُوَّتِها والمُشَحْشَحُ كمُسَلْسَلٍ القَليلُ الخَيْر وأوصى في صِحَّتِه وشِحَّتِه، أي حالِه التي يَشِحُّ عليها وابلٌ شَحائحُ قَليلَةُ الدَّرِ وزَنْدٌ شَحاحٌ لا يُورِي وماءٌ شَحاحٌ نَكِدٌ غيرُ غَمْرٍ • شَدَحَ كمَنَعَ سَمِنَ ولَكَ عنه شُدْحَةٌ بالضم ومُشْتَدَحٌ أي سَعَةٌ ومَنْدوحَةٌ

والأشْدحُ الواسعُ من كُلِ شيء وانْشَدَحَ استَلْقَى وفَرَّجَ رِجْلَيْه وناقة شَوْدَحٌ طويلةٌ على الأرضِ وكَلأٌ شادِحٌ واسعٌ والمَشْدَحُ الحُرُ. الشوْدحُ من النُوق الطَّويلَةُ على وجهِ الأرضِ (شَرَحَ) كمنع كشَفَ وقَطَعَ كَشَرَّحَ وفَتَحَ وفَهِمَ والبِكْرَ افتَضَّها أو جامَعَها مُستَلْقية والشيءَ وسَّعَهُ والشَرْحَةُ القِطْعَةُ من اللَّحْمِ كالشَّريحَةِ والشَّريحِ من الظِباءِ الذي يجاءُ به يابساً كما هو لم يُقَدَّدْ والمَشروحُ السَّرابُ والمَشْرَحُ الحُسرِ كالشرَيْحِ وكِنبْرٍ ابنُ عاهانَ التابِعِيُّ وسَوْدَةُ بنتُ مِشْرَحٍ صَحابيَّةٌ وقيل بالسِينِ والشَّارِحُ حافِظ الزَّرْعِ من الطُيُورِ وشَراحيلُ اسمٌ ويقالُ شَراحِينُ وشَرْحَةُ بنُ عَوَّةَ من بنى سامَةَ بنِ لُؤَيٍ وبَنُو شَرْحٍ بَطْنٌ وكسْراقَةَ هَمْدانيةٌ أقَرَّتْ بالزنا عند علي رضي الله عنه وأُمُ سَهْلَةَ المُحَدِثَةُ وكزُبَيْرٍ وكِتَانٍ اسمان وأبو محمدٍ عبدُ الرحمنِ بنُ أحمدَ بن محمدِ بن أبي شُرَيْحِ الأنْصارىُّ الشُرَيحِيُّ صاحِبُ البَغَوِي وعبدُالله بن محمدٍ وهِبَةُ الله بنُ عليِ الشُّرَيحِيَّانِ محَدِّثانِ . رجلٌ شِرْداحُ القَدَمِ بالكسر غَليظُها عَريضُها وهو الرَّجُلُ اللَّحيمُ الرِخْوُ والطويلُ العظيمُ من الابِلِ والنِساءِ . المُشْرَطِحُ كمُسْرَهَدِ الذَّاهِبُ في الأرض (الشَّرْمَحُ) القَوِيُّ كالشَّرْمَحِيِ والطويلُ كالشَّرَمَّحِ كعَمَلَّسٍ ج شَرامِحُ وشَرْمَحةٌ وشِرْماح بالكسر قَلْعَةٌ قُرْبَ نهاوندَ . شِرِمْساحُ ة بمِصْرَ . الشُّرَنْفَحُ الخفيفُ القَدَمَيْنِ . شِطِحٍ بالكسر وتَشديد الطاءِ زَجْرٌ للعَريضِ من أولادِ المَعَزِ . المُشَفَّحُ كمعَظَّمِ المحرومُ الذي لا يُصيبُ شيأ (الشَّفَلَّحُ) كعَمَلَّسٍ الحُرُ الغليظُ الحروفِ المُستَرْخِي والواسِعُ المِنخَريْنِ العظيمُ الشَّفَتَيْنِ المُستَرْخيهما والمرأةُ الضَّخْمَةُ الأسْكَتَيْنِ الواسِعةُ وثمَرُ الكَبَرِ وشجرةٌ لساقِها أربعةُ أحرُفٍ إن شِئْتَ ذَبحْتَ بكُلِ حرْفٍ شاةً وثمرَتُهُ كرأسِ زنجِيٍ وما تَشَقَّقَ من بَلَحِ النَّخْلِ .

الفهرس

الباب الثاني

في المصادر اللغوية والمعاجم

رقم الإيداع ٩٨٧٩

الترقيم الدولى I. S. B. N. 977 - 215 - 050 - 6

دار غـريب للطبـاعة

١٢ شارع نوباز (لاظوغلى) القاهرة

ص . ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩

هذا الكتاب

إن معرفة التراث العربي فى مصادره الأولى والأساسية تمثل ضرورة ملحة لدى كل مثقف عربي بصفة عامة ، وضرورة أكثر إلحاحا لدى كل المهتمين بدراسة هذا التراث بصفة خاصة.

وهذا الكتاب محاولة لتمهيد الطريق للقارئ وللدارس العربي إلى كسب هذه المعرفة بقطاع عريض من التراث العربي ، متمثلا فى أمهات الكتب والمصنفات القديمة المختلفة ، المتعلقة بالأدب العربي ، شعره ونثره ، وباللغة العربية ذاتها ، وذلك من خلال التعريف بهذه المصادر من حيث المادة التى اشتملت عليها ، والمنهج الذى اتبعه كل مؤلف أو مصنف فى إنجاز عمله. وفى الوقت نفسه يتحرى مؤلف هذا الكتاب رصد معالم التطور التاريخى لحركة التأليف العربي قديما فى هذين الحلقين المعرفين . وعلى هذا النحو يلتئم الحديث عن تلك المصادر فى ذهن القارئ ليشير إلى الكيفية التى تحقق بها النمو المعرفى عند العرب .

وقد مهد مؤلف الكتاب لهذا الرصد بتمهيد طويل ، عرض فيه لكيفيات ظهور التأليف لدى العرب القدامى ، بعد انتقالهم من الرحلة الشفاهيه إلى مرحلة الكتابة ، أو من مرحلة الرواية إلى مرحلة التدوين ، وكيف أن هذا الانتقال كان ضروريا لدخولهم فى مرحلة التأليف والتصنيف . ومن هنا تاتى أهمية هذا الكتاب.

الناشر